

أَبْنُ رَشْدِكُ فِي مِصْرَ

رَكْتَرَزَ وَأَمِلَ غَالِي

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبدده غريب

ابن كُشَيْبٍ فِي

أَبْنُ رَشْدِكُ فِي مِصْرَ

رَكْتَرَزَ وَأَمِلَ غَالِي

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبد الله غريب

الكتاب : ابن رشد في مصر
المؤلف : دكتور وائل خالى
تاريخ النشر : ١٩٩٩ م
حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبد الله خويج

شركة مساهمة مصرية

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

والمطابع : المنطقة الصناعية (C1)

ت : ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

تلفاكس : ٢٤٧٤٠٣٨ - ت : ٢٤٦٢٥٦٢

التوزيع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقم الإيداع : ٩٨/١٤٥٦٩

الترقيم الدولى : I S B N

977-303-057-1

أعظم ما طرأ علىّ فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجداً بقرطبة
وقد حانت صلاة العصر. فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منه.

ابن رشد

التنوير هو خروج الإنسان من مرحلة الارشاد التى تسبب هو نفسه فيها.
والارشاد يعنى عجز الإنسان عن استخدام عقله دون معونة من غيره وشعار
التنوير هو: لتكن لديك الشجاعة فى استخدام عقلك.

عمانوئيل كانط

دائرة المعارف هى صنيع عصر النور، ومن صنع الذهن الذى يخضع
لقوانين عقل مبدع والذى يعترف بتفوق هذا العقل.

برنار جروتويزن

من هنا يكون "البرهان" هو الحقيقة التى لا تجوز مخالفتها. وكل ما ورد
مخالفاً للحقيقة البرهانية لابد من رده بالتأويل إلى تلك.

د. نصر حامد أبو زيد



مُقَدِّمَةٌ

الحاجة الماسة إلى ابن رشد

بمناسبة مرور ثمانمائة سنة على وفاة الفيلسوف ابن رشد، يتناول هذا الكتاب أقوال الشراح المعاصرين الذين شرحوا لابن رشد وتأويلاتهم المختلفة لمذهب هذا الفيلسوف ويقارن بينها ويختار فيما بينها بعيداً عن مقاييس الصواب والخطأ . وهو الاختيار الذى يزن صراع التفسير بميزان الصراع الأيديولوجى فى حقل الفلسفة فى مصر. وهذا هو النقد بعينه، وهو نقد خارجى للنص ^(١) الرشدى وليس لمضمون النص الرشدى نفسه، فهذا سيكون فى المرحلة الثانية - فى كتاب لاحق - بعد نقد المصدر.

والمعروف أن أى نص أصلى لابد أن يذهب منه بعض أفكاره فى انتقاله من تفسير إلى تفسير، وهذا ما حدث فى أفكار ابن رشد الأصلية، كذلك فإن الباحثين المعاصرين والدارسين يحاولون دوماً - رغم تصريحهم بغير ذلك - تطويع النص الرشدى بمعنى أنهم يحيلون تفسيراتهم إلى ابن رشد إلى أصول.

وفى مجال فحص الأفكار الرشدية نبداً بإبراز الصراع الدائر بين ابن رشد والغزالى ثم نتناول ثنائية العروبة والإسلام والقراءة الإسلامية ثم القراءة العربية لابن رشد، ونستخلص أن ابن رشد قد أسس لعصر التنوير الأوروبى الحديث وأن هذا التأسيس الذى يقود إلى تسويق القراءة الإيستمولوجية لما تتطوى عليه من تصورات البرهان والهرمينيوطيقا والسيموطيقا وغيرها من التصورات العقلانية الحديثة المعاصرة.

^(١) د. عبد الرحمن بدوى، مناهج البحث العلمى العربية، ١٩٦٣، ص ١٨٨ - ٢٠٥.

فالقصد ليس الوصول إلى الوحدة لمذهب ابن رشد، كذلك لا يبحث الكتاب عما وراء النص الأساسي إنما القصد هو بيان احتياجنا الآن إلى ابن رشد.

يتناول هذا الكتاب بالنقد والتحليل مجموع المؤتمرات والندوات واللقاءات والأبحاث التي تمت في مصر في عقد التسعينيات حول ابن رشد، وهو يتناول على وجه الخصوص الكتاب التذكاري " الفيلسوف ابن رشد مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العقلي " والذي أشرف عليه د. عاطف العراقي (المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٣).

كذلك يتناول " حوار حول ابن رشد " الذي حرره د. مراد وهبه (المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٥) والعدد الخاص الذي خصصته مجلة ألف (العدد ١٦، ١٩٩٦) " لابن رشد والتراث العقلاني في الشرق والغرب ". كما يتناول " ابن رشد والتتوير " الذي حرره د. مراد وهبه ود. منى أبو سنة وقدمه د. بطرس غالي (دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٧).

وبالطبع ليست هذه أولى الندوات والمؤتمرات التي تحتفل بابن رشد وفلسفته، إلا أنني أرجئ تحليل ندوة باريس (١٩٧٦) وندوة روما (١٩٧٧) ومؤتمر الجزائر (١٩٧٨) وغيرها من المهرجانات التي انعقدت في التسعينيات من هذا القرن في كتاب لاحق.

أما في مصر فقد قدم د. عاطف العراقي القراءة العربية لابن رشد عام ١٩٩٣، ثم تم تقويم هذه القراءة في حوار " حول ابن رشد " العربي ونقده، فظهر عدد ألف (١٩٩٦) ليعيد التأكيد على القراءة العربية، وأخيراً ربط د. مراد وهبه بين ابن رشد والتتوير الأوروبي.

والصراع الأساسي على تفسيرات ابن رشد هو : هل هو فيلسوف عربي إسلامي أم يوناني أوروبي؟



ويحاول الكتاب من خلال تحليل البحوث والدراسات عن فكر ابن رشد ونظرياته وفلسفته أن يجيب عن هذا السؤال الأصلي والذي تتفرع منه كل الأسئلة الثانوية الأخرى.

ويحلل الكتاب في الأساس الصراع الأيديولوجي في حقل الفلسفة، فالصلة التي تربط الفلسفة بالأيديولوجيا واحدة من الصلات الإشكالية في استحضار ابن رشد الراهن. والجهود النظرية المبذولة لاستيعاب هذه الصلة وتنظيمها في تصور فلسفي للتفكير الإنساني لاتزال تتخبط في كثير من التعارض والفوضى.

وقضية الصلة التي تربط الفلسفة بالأيديولوجيا هي قضية الاختلاف في الوحدة وليست قضية انفصال تام أو قضية شكلية فالصراع الأيديولوجي يشتمل بصورة أوبأخرى على محتوى فلسفي ويتخذ موقفاً من كل اتجاه فلسفي يلقاه في صراعه من أجل تحقيق غاياته، والفلسفة قد تتحول إلى دين وتتخذ موقفاً من التصورات الفلسفية التي تقوم عليها الأديان الأخرى، وهناك نظرة أيديولوجية للفلسفة وتصور فلسفي للأيديولوجيا، إلا أن الأيديولوجيا لا تقلب فلسفة بالمعنى الضيق للكلمة ولا تحل الفلسفة محل الأيديولوجيا. والفرقة التصورية بين الفلسفة والأيديولوجيا لا تعني انتفاء الاختلاف بينهما وإنما تعني أن الفلسفة تدخل في صراع أيديولوجي.

ولقد تعيّن على الفلسفة أن تواجه وأن تجابه عبر تاريخها الطويل أنواعاً عدة من الفكر العقائدي، وفي العصور الوسطى الراهنة تبدو معاناتها مع الفكر الديني بشكله الرئيسي السلفي، ففي العصر الراهن تبدو المعركة الرئيسية على الفكر الديني الذي يبسط سيادته وسيطرته على المجتمع بحيث أصبح تطور الفلسفة غير ممكن من دون التصادم النقدي معه.

ولا يوجد تصور بسيط لطبيعة الصلة التي تربط الفلسفة بالصراع الأيديولوجي، فكل تصور له مكوناته التي تحده من كل جانب وهو يحمل رقماً، إنه كثير بالرغم من أن ليس كل كثير تصوراً أو تصورياً، ولا يوجد تصور به مكون

واحد، وحتى التصور الأول الذى تبدأ الفلسفة بحمل مكونات كثيرة، لأنه ليس ضرورياً أن تفرض على الفلسفة أن تبتكر بداية معينة، وإذا حددت الفلسفة بداية معينة يصبح عليها أن تؤسس هذه البداية على أساس معين أو على فكرة معينة أو سبب معين أو وجهة نظر معينة أو منظور معين.

وعلى ذلك لا يبدأ الرشديون المعاصرون بالتصور نقلاً عن ابن رشد بل ليس لديهم تصور واحد للبداية الفلسفية الجديدة فكل تصور مزدوج أو مثلث.. كذلك لا يوجد تصور به كل المكونات، وإذا توفر مثل هذا التصور فهو يخلق جواً من الفوضى، وحتى العموميات المفروضة على قراءة ابن رشد بوصفها تصورات نهائية تستلزم الخروج من هذه الفوضى وأن تخلق كوناً يفسر هذه التصورات التى تزعم أنها نهائية، ومن بينها اعتبار الفلسفة تفكيراً إسلامياً خالصاً.

كل تصور له حدود، وهى حدود غير منتظمة يحددها رقم المكونات، لذلك فمن أرسطو إلى ابن رشد أعاد الفيلسوف اكتشاف الفكرة التى تقول بأن التصور عبارة عن موضع لتمفصل وتقاطع وتقاطع طرق، فالتصور كل لأنه يجمع بين مكونات. إلا أنه كل مفكوك، وهذا هو السبب الذى وراء القراءة النقدية لقراءة ابن رشد، وهو فى الوقت نفسه الأمر الذى يؤسس للخروج من الجمود العقائدى.

ما أفضل الشروط التى تضع التصور فى المقام الأول؟ ما الشروط التى تحوله من الطريق المطلق إلى طريق التصور الآخر؟ هل تحتل الفلسفة بالضرورة المرتبة الثانية خلف الفقه والكلام والدين؟

وإذا كانت الفلسفة - وفقاً للقراءة الإسلامية لابن رشد - تحتل المرتبة الثانية وراء الفقه والكلام والدين فإن ذلك يتم فى حدود معينة هى حدود انقلاب الفلسفة إلى موضوع الذات الدينية.

وهكذا يحيل التصور الفلسفى - لطبيعة الصلة الأيديولوجية بالفلسفة - إلى مشكلة أولوية الدين على الفلسفة أو تفوق الفلسفة على الدين بدون هذه المشكلة



يتحول التصور إلى عمل بلا معنى أو قيمة، وهى مشكلات لا يمكن أن نوضحها أو أن نفهمها إلا حسب تسلسل حلها، وفى مشكلة المواجهة بين الفلسفة والنظر الفقهي مشكلة تعدد زوايا النظر إلى العالم والإنسان والله. وهى مشكلة الصلات التى تربط بينهما وتقديهما المتبادل ومن البديهي أن تتغير المشكلة إذا عرضنا مشكلة أخرى.

وبدهى أن تصور طبيعة الصلة التى تربط الفلسفة بالدين له تاريخ، هذا التصور يحيل إلى نبذ الفكر الدينى - وليس فى ذاته - الفلسفة على زعم أنها تبعدنا عن الله وأنها تغوى النفس وتربطها بالحياة والدنيا وتفسرها وتشغلها بالتوافه، وينبذ الفكر الدينى الديكتاتورى الفلسفة على رغم أنها تقوض النظام بالدعوة إلى الاستقلال الفكرى. هاتان القوتان معاً، قوة (سلطة) رجال الدين وقوة (نظام) الحكم الشمولى ترغبان فى اطفاء شعلة الفلسفة فى سبيل الأنوار الإلهية أو الأنوار الدنيوية (السلطة الكلية).

ومن تحليل المحاورات الحديثة حول ابن رشد نستخلص أنه لا يوجد تعريف واحد لمعنى فلسفته، فالبعض يعتبرها فلسفة علمية، والبعض الآخر يرى أنها تبحث فى التأويل، بل إنه صراع التأويلات الرشدية.

غير أنه من المؤكد أن ابن رشد يربط بين الفلسفة وبين العلوم جميعاً ويربط بينهما وبين البحث التأويلى فى النصوص الدينية. على حين يميل النظر الآن إلى نقد نموذج الفلسفة العلمية، فقد كانت الفلسفة عند ابن رشد ممتزجة بالعلم وتمد الإنسان بنتائج برهانية قاطعة ويقينية، وكانت من ثم تلزم الجميع بالتسليم بها وبصحتها هذا وإن بدت الفلسفة لا تتقدم بالطريقة نفسها التى تسير عليها العلوم؛ فالطلب الآن تقدم عما كان عليه عند ابن رشد أما من حيث فلسفته فهى لم تتجاوز أرسطو بل نستطيع أن نقول إن محصول ابن رشد المعرفى كان أعلى وأرفع من محصول أرسطو.



مفارقة ابن رشد والغزالي

كتب الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان "هذا ديننا" في صحيفة "الشعب" عن مراد وهبة قائلا "ماذا يريد الرجل؟ لقد أوهمنا أن الغزالي درويش كبير، وأن جموده العقلى نال من الفكر الإسلامى كله، وأن ابن رشد هو إمام التنويريين، وأن العالم الإسلامى لن يبصر الطريق إلا إذا مشى خلفه، وبهذا التوجيه أصبحت عصابة الشيوعيين التى تعمل تحت عنوان التنوير تعتمد على أبوة عقلية محترمة!

والغزالي وابن رشد من علماء الإسلام الكبار وكلاهما يحترم الكتاب والسنة، والخلاف العقلى بينهما كالخلاف الفقهى بين الشافعى وأبى حنيفة لا يعنى شيئا ذا بال، ولو قُدر أن وجدا فى هذا العصر لكانا صديقين حميمين ولتعاوننا معا ضد الإلحاد أو الأحمر أو الأصفر.

إن منهج الشك عند ديكارت مستقى من منهج الشك عند الغزالي، وعندما نقد أبو حامد الإغريق كشف عن عقل من أكبر العقول فى دنيا الناس، كان يسبح فى أفق أسمى من آفاق أرسطو وأفلاطون وسقراط جميعا، وبالعقل الذرى الذى منحه الله إياه، ترك هذه الفلسفة خرائب فى أغلب قواعدها، أما ابن رشد فهو مع يقيبه الجازم بالكتاب والسنة فله وجهة نظر تقترب أو تبتعد عن الغزالي، وليس فى ذلك حرج ولا لوم، والعالمان كلاهما من قمم الفكر الدينى، ولا أدرى ما علاقة مراد وهبه وهو مسيحى يخدم مسيحيته بإخلاص - بهذه القضايا القديمة، وما معنى اتهمه الإعلام والتعليم بالأصولية؟! أظنه لن يرضى إذن إلا إذا أقيم تمثال لماركس أولينين فى أحد ميادين القاهرة، وخلع الإسلام من جذوره.

وقد أتى هذا الكلام فى السياق التالى:

" لا نبالى بمن يخاصموننا فى الله، فنحن موقنون بربنا الواحد، وثابتون على احترام وحيه واتباع أنبيائه، وإذا كانت هزائم الأبناء قد عطلت شريعته وأهانت عقيدته، فذلك عَرَض زائل وستعود مسيرتنا الأولى ما بقى فينا نفس يتردد، ولن توجد فى المصحف آية ميتة أو حكم مجمّد.. وسيفشل عبدة الطاغوت فى زماننا بإذن الله. والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

وهكذا فالكلام للشيخ الغزالي إنما هو قياس بالخلف على أن مراد وهبة فيلسوف لما قام به من خدش للمسلمات الدينية الراسخة في الوعي العام المصري والعربي والإسلامي، وأوافق الشيخ الغزالي تماما على أنه لا توجد فلسفة عربية ولا إسلامية، هناك كثير من الثقافة العربية والإسلامية، لكن الفلسفة على وجه التحديد لم تولد بعد، وهناك أسئلة عديدة ومثيرة يطرحها الشيخ أو تقفز إلى الذهن فور قراءة كلامه القاطع والذي يتميز بالوضوح التام: ما هي الصلة التي تربط التنوير بكراهية الله وهداه؟ هل مراد وهبة من مفكرى الاستعمار العالمى؟ ما علاقته بالثقافة الغربية أو الغزو الثقافى؟ هل يريد محو الإسلام من الأرض؟ وهل الإسلام دين أم الدين؟ ماذا تعنى ثنائية الغزالي (الإمام) وابن رشد؟ هل صحيح أن الغزالي يؤمن وابن رشد غير ذلك؟ كيف يبصر العالم الإسلامى الطريق؟ ما هو الفكر الإسلامى؟ وهل كان مراد وهبه شيوعيا ومازال؟ ماذا يعنى الإلحاد عنده؟ وكيف لو كان ملحدا يكون فى الوقت نفسه مسيحيا يخدم مسيحيته بإخلاص؟

والخلاصة التى نود أن نصل إليها هى تحديد مفهوم مراد وهبة لمجموعة من الأشياء جوهرها ما إذا كان يخاصم الله؟ هل يخاصم الله أم يخاصم إله الشيخ محمد الغزالي أو إله الإسلام أم إله المسيحية والإسلام واليهودية جميعا؟ أم ماذا؟ إذا كان صحيحا أنه يخاصم الأديان جميعا فما هو اليقين الذى يضعه محل اليقين الدينى؟ هل يستبدل الأرباب بالرب الواحد؟ ما معنى الوحى؟ وما دلالة النبوة؟ هل يخاصم العقيدة أم الشريعة؟ وإذا كان يخاصم الشريعة فقط دون العقيدة أفلا تقود مخاصمة الشريعة إلى مخاصمة العقيدة أيضا؟ ما هو مذهب مراد وهبة؟ هل هو مسيحى أم شيوعى؟

لا يزعم مراد وهبة أنه يمتلك الحقيقة الكاملة، فالحقيقة كما قال أرسطو عسيرة المنال لكنها ليست مستحيلة المنال، الحقيقة الكاملة منتوج عملية تاريخية تتضافر فيها جهود الفلاسفة جميعا، فالعقل الإنسانى ينزع بطبيعته نحو توحيد المعرفة الإنسانية، وهو من أجل ذلك يتجول فى كل مجال من مجالات هذه المعرفة، ثم هو يضمها جميعا ويربط فيما بينها فى وحدة عضوية بحيث لا يتيسر معه فصل عضو عن الكائن إلا بالقضاء عليه كله، ونزوع العقل نحو التوحيد هو فى الوقت

ذاته نزوع نحو المطلق أى نحو تنظيم المعرفة وتجميعها فى كلٍ موحد أى فى مذهب^(١).

فهل ربط مراد وهبة بين المسيحية والشيوعية فى وحدة عضوية بحيث لا يتيسر فصل المسيحية عن الشيوعية إلا بالقضاء عليهما معاً؟ فإذا سلمنا بأن المذهب عقلى بطبيعته، كيف يوجد عقل وهبة بين المسيحية والشيوعية؟

فالعقل ليس بإمكانه أن يفهم دون أن يوحد،^(٢) ويحاول أن يجعل الجزئيات تلتقى فى نقطة واحدة أو تتوحد فى وحدة.

لكن الانتهاء إلى الوحدة يتضمن تجاوز عملية التحليل والتركيب لأنهما عمليتان من عمليات الفهم العقلى وليس التوحيد العقلى.

والفهم التحليلى والتركيبى لحظة عملية فى التفكير لا يقوم بها الفيلسوف وإنما يقوم بها عالم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والاجتماع والتاريخ والجغرافيا، وهؤلاء العلماء لا يصنعون الموضوعات التى يريدون دراستها، وإنما يجدون هذه الموضوعات جاهزة سلفاً فى الواقع الذهنى أو التجريبى أو الاثنين معاً.

والفلاسفة حين يقيمون بناءاتهم الفلسفية يصوغون ما لا يفعله العلماء فهم يأخذون بمعيار خلق المشكلة الجديدة أساساً لتكوين مذاهبهم، فتصورات الفيلسوف المعينة مشروطة بالأساس بطبيعة المشكلة الجديدة التى يطرحها، والصلة التى تربط الروح الفلسفية بالروح الرياضية أو العلمية لا تتجاوز حدود الشكل إلى المحتوى النظرى نفسه، كما أنه لم تحدث إحالة متبادلة بين الرياضة وبين المنطق إلا فى القرن الماضى، وأما المنطق فهو إلى ذلك التاريخ لم يكن رياضياً على الإطلاق رغماً عن صرامته الواضحة.

وقد نشأت الإحالة المتبادلة بين الرياضيات وبين المنطق فى القرن الماضى ليس بسبب "الهندسة التحليلية والهندسات اللاإقليدية"،^(٣) وإنما بسبب منطقة الرياضيات وترييض المنطق فى حركتين متصلتين، الجوهر إذن هو إرجاء الرياضيات إلى المنطق والمنطق إلى الرياضيات لا "إرجاء الهندسة إلى الحساب"^(٤).

على أية حال فإن الخدمة التى تقدمها الرياضيات والمنطق إلى الفلسفة تنحصر فى حدود الشكل ولا تتعداها إلى المحتوى لأن المحتوى نفسه يتكون من المتناقضات التى تحطمها الروح الرياضية والمنطقية، وليس التضاد بين المذاهب الفلسفية سوى شكل من أشكال تضاد المعرفة المطلقة المتناقضة المتحركة ومفهوم المعرفة المطلقة المتضادة بداخلها يدحض جميع أشكال النزعة اللامذهبية منذ السفسطائيين " فالفلسفة السفسطائية لم تكن إلا نقدا وتحليلا للفلسفة الطبيعية أى دون الإهابة بتكوين مذهب محدد، إنها تريد أن تضع الوجود الإنسانى فى مقابل الوجود الطبيعى وأن ترد كل تقويم إلى هذا الوجود وليس إلى أشياء أخرى فيزيائية أو كائنات أخرى خارجية مفروضة على الوجود فالإنسان هو مقياس الأشياء، وهذه العبارة تجمع بين رأى هيراقليطس فى التغير المتصل، ويقول ديموقريطس إن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة، والمقصود بالإنسان هنا الفرد من حيث هو كذلك لا الماهية النوعية [...] وبذلك تنتفى المعرفة الكلية الموضوعية وتصبح الحقيقة العقلية تناقضا ونزاعا^(٥).

وهكذا نقود النزعة السفسطائية فى التفكير إلى الخطابة والبراعة والمهارة لا إلى المعرفة.

وأما سقراط فقد كان أول من ابتدع مفهوم المذهب لأنه راح ينقب عن ماهية الأشياء، ولما كانت الفلسفة الوجودية عودة إلى ما قبل سقراط حيث كانت دعوة لا إلى فلسفة الوجود وإنما إلى حياة الوجود وتمثله. والمشكلة الأعمق هى فى الربط التصورى بين الماهية والوجود لا فى تفضيل أحدهما على الآخر، وذلك حتى يترابط المذهب ترابطا محكما.

إلا أن مراد وهبة فى كتابه "المذهب فى فلسفة برجسون" يميل إلى التحليل الأفلاطونى لمفهوم المذهب كما يميل إلى الاعتقاد بأن أرسطو هو المسئول عن اللامذهبية فى تاريخ الفلسفة مما يهز معيار المذهبية وهو معيار الوحدة.

وإذا لم تكن عند أرسطو مذهبية فهذا يعنى أو يدل على أنه ليس فيلسوفا أصلا، هناك إذن تقديم الرياضيات على سائر العلوم، وهناك أيضا تحريك للوحدة بحيث يتحرك قوام المذهب، وهناك أخيرا بداية فى الكتاب تخلو من تحديد المشكلة

وتعيين اختيار برجسون دون غيره من الفلاسفة، هذا فضلا عن عدم تحديد المرادف الغربى لكلمة "مذهب" العربية مما يبين عدم القيام بتحليل لفظى أولى للمفهوم الذى يستتبط الإشكالية.

والإشكالية المذهبية عندى تتبع من تحليل هيغل، وبداية أود أن أقول إنه لا صلة قريبة على الإطلاق بين هيغل وكانط كما يقول مراد وهبة والتوحيد بين الفكر والوجود إنما هو توحيد هيغلى محض لا علاقة له بكانط بل سبق أن رفض كانط هذا التوحيد وعلقه فى الافتراض النظرى الخالص. وليس هذا التوحيد الهيجلى توحيدا تجريديا على الإطلاق وإنما هيغل هو أحد الفلاسفة الأول المحدثين الذين حطموا التجريد لأن التجريد هو الفصل بين الفكر والوجود، فكيف يكون الفيلسوف تجريديا ويوحد بين الفكر والوجود؟ هذا فضلا عن أن المقصود بالعبارة الشهيرة، كل واقعى هو عقلى وكل عقلى هو واقعى، ليس الواقع أو الوجود وإنما Wirklichkeit هى وحدة محصلة مباشرة للصلة التى تربط الجوهر بالوجود، الداخل بالخارج، لذا فالمقصود أعقد بكثير مما هو معروف معرفة شائعة، ليس هذا نبذا للوجود وإنما هو الوجود الموضوع فى إطار من الوحدة المباشرة بين الوجود والانكسار، والتجريد يقود إلى الفصل بين الوجود وتحوله، والعلة فى ذلك ان هيغل يتبع الشيء ذاته فى تحولاته وثوابته ولا يتبع منها معينا حتى ولو أطلقنا عليه صفة الجدلى لأن افلاطون ومن اتبعه هم الذين صنعوا المنهج الجدلى الذى هو بحث فى صلة الأجناس والأنواع، ولا يقود التوحيد الهيجلى بين الفكر والوجود إلى غلق المذهب وإنما يقود إلى فتحه إلى غير نهاية. والضرورة والعرضية سمتان جوهريتان فى فكر هيغل وليس الضرورة وحدها، ومفهوم التركيب والتحليل من نصيب العالم عنده لا من حظ الفيلسوف الذى يعيد النظر فيهما إعادة توطئة قبلية أحيانا، وبعدية أحيانا أخرى.

ولا يقضى هيغل على المتقابلات لأن حركة النفس لا تتوقف أبدا، ولا يحوى كلام مراد وهبة عن هيغل سوى مجموعة متنوعة من الشائعات الراسخة التى لا ترقى بأية حال لا إلى الفلسفة أو إلى العلم.

على كل حال لا يبدأ الحديث عن برجسون موضوع البحث عن مفهوم المذهب إلا في الصفحة الثالثة والثلاثين بعد استعراض بالغ التسرع للفكر الفلسفى والذى لم يكن فى حاجة ماسة إليه من زواية المشكلة التى يثيرها.

كما أن برجسون ليس عنده مقولة للزمان وإنما عنده حدس للزمان، وفرق كبير بين مقولة الزمان وحدس الزمان، فالزمان يعاين ولا يستتبط وكيف يكون برجسون حدسياً ويكون فى الوقت نفسه أول من أشار الإشكال الخاص بإمكان تكوين مذهب فى الفلسفة؟ كل فيلسوف يثير إشكال المذهب حتى ولو كان مذهبياً شعورياً أو حدسياً، وقد عرض برجسون هذا الإشكال فى كتابه "الفكر والمتحرك" عرضاً واضحاً فلم البحث فيه من جديد؟

لذا لا أجد مبرراً واضحاً أو مبرراً علمياً واحداً دفع مراد وهبة الى البحث فى المذهب عند برجسون، فهو ليس أول ولا آخر من بحث فى مفهوم المذهب، ويكاد يكون هذا البحث هامشياً بالنسبة لسياق أعماله كلها، وطبيعة المذهب عند برجسون، من طبيعة الحدس المركزى عند الفيلسوف، وطبيعة "المعطيات المباشرة" للوعى تناقض تمام التناقض البحث الذى يقوم به مراد وهبة عن المنهج، فإذا كان هناك منهج فلا بد أن هناك لا مباشرة، وإذا كان هناك مباشرة حدسية فلا يمكن أن يكون هناك منهج، إذن ما الداعى إلى البحث فى المنهج؟

وليست فلسفة برجسون سيكولوجية لأن السيكلوجية علم، وفلسفته ليست علمية، أقصد أن ليس عنده علم للزمان وإنما عنده إدراك مباشر شبه شعري نصف فنى للزمان.

عنده التجربة المباشرة بالزمان، وليس تحديد مقولة الزمان، واهتمام برجسون الجوهرى بالمباشر يحطم البحث فى المذهب، لأن بناء المذاهب يقتضى التوسط بين المباشرة واللامباشرة بين الباطن والظاهر "بدأ برجسون بالكشف عن طبيعة الحياة النفسية وذلك بتحليل التصورات التى يقوم عليها العلم، وهى المكان والزمان، فالعلوم البيولوجية تصدر على الزمان، بينما العلوم الرياضية تصدر على المكان، ومقولاتنا المكان والزمان لم يتعرض لهما الفلاسفة بالنقد والتحليل إلا على يد كائط، غير أن نقد كائط لم يكن حاسماً فى رأى برجسون لأنه - فى الواقع - لم يتصور

الزمان إلا على أنه ذو طبيعة مكانية، وهذا هو السبب الذى دفع برجسون إلى التكرار لمذهب سبنسر فى التطور، وقد كان يدين له فى بداية حياته الفكرية إذ إنه لاحظ خلط سبنسر بين الزمان والمكان وعدم إدراكه للدور الذى تقوم به الديمومة فى صميم التطور، وهذا الخلط هو الأصل فى كل المشاكل الميتافيزيقية التى تولدت عن إنكار زينون الإيلى للحركة^(٦)، ولذا كان ضروريا أن يبدأ مراد وهبة من هذه المشكلة المعينة والأساسية ثم يبين موقع مشكلة " المذهب " على خريطة مشكلة الزمان والمكان، وإذا كان صحيحا أن المذهب مربوط عنده بالرياضيات فكيف يفسر انطلاقا من برجسون أن الرياضيات هى المسئولة عن حجب الباطن المباشر لكل مذهب؟

ذلك أن من خصائص الفكر الفلسفى عامة وليس الفكر الفرنسى خاصة أن يبدأ بدراسة مشكلة معينة تمهيدا للانتقال إلى حلها فى بناء تفرضه عناصر المشكلة، يقول أرسطو: " إنه لضرورى للوصول إلى العلم الذى نطلبه من أن نتعرض فى البداية إلى العقبات التى تأتى إلى النقاش فى المقام الأول وأعنى بذلك فى الوقت نفسه الآراء المخالفة لأرائنا والتى عرضها بعض الفلاسفة حول المبادئ ثم بالإضافة إلى ذلك كل ما أمكن فى الواقع أن يغرب عن بالهم"^(٧).

يبدأ الفيلسوف بالسير فى الطرق المسدودة أى بصياغة اعتراضات تأتى من نظم أو مذاهب فلسفية مغايرة على المشكلة المفروضة نفسها، ذلك أن البحث قبل استقصاء الصعوبات فى كل الاتجاهات أولا ليس إلا سيرا على غير هدى، فنحن نتعرض حتى إلى عدم معرفة هل وجدنا فى وقت معين ما نبحث عنه أم لا؟ وفعلا فإن نهاية النقاش لا تبرز لنا بوضوح وهى لا تبدو كذلك إلا لمن قدم النظر فى المصاعب^(٨). إن السير الأولى فى الطرق المسدودة يؤدى وظيفتين هما: استكشاف مجال البحث وبيان الاعتراضات التى قد توجه إلى المشكلة المطروحة.

وهكذا يمثل المذهب عند برجسون المشكلة الرئيسية فى البحث لكن لا يثيرها الفيلسوف إلا فى الصفحة الخامسة والأربعين من الكتاب أى بعد استعراض تاريخى لا يفيد تحديد مفهوم المذهب فى فلسفة برجسون وكيف يحدد مفهوم المذهب فى فلسفة غير مفهومية وغير تصورية؟

ليس هناك صفات للزمان، فإذا كنا "نستشعر الزمان عندما تتعطف الذات على حياتها الباطنة لكي تشاهد تعاقب إحساساتها وذاكراتها وآلامها ورغباتها"^(٩).

فإن هذا لا يعنى على الإطلاق أن الذات تلتقط جوهرًا يتجدد به الزمان، فالجواهر تجانس أما للزمان فلا متجانس خالص، والجوهر رياضى كمى، أما الزمان فيتتابع كيفياً، والجوهر تخرج عن الوجود، أما الزمان فمتداخل، ليس هناك غير برجسون جوهر للزمان، وبالتالي ليس هناك أيضاً جوهر للمذهب، لذا فبرجسون امتداد لفلسفة عمانوئيل كانط التى لا ترى الجوهر من وراء المظهر، وهو امتداد لنقد العقل وتفنتيت مقولات العقل والعلم على السواء.

إن فلسفة برجسون كما يذهب مراد وهبة هذه المرة عن حق إنما هى فلسفة "قبل علمية" وبالتالي فهى فلسفة "قبل نظرية" و "قبل تصورية" و "قبل مفهومية" و "قبل عقلية" و "قبل معرفية" أى "باطنية"، والمطلق عنده باطنى وليس سيكولوجيا كما يقول مراد وهبة مقتبساً ج. شوفالبيه لأن السيكولوجيا علم وقد قلت إنه قبل علمى وليس علمياً من الناحية الفلسفية.

برجسون إذن باطنى يرى المطلق فى رؤية كما سبق أن رأى بالطريقة نفسها شلنج وشوبنهاور وغيرهما من الرومانتيكيين والفنانين والأدباء والشعراء، والشعراء تلقائيون وأما الفلاسفة فيتوسطون، لذا فبرجسون فيلسوف شاعر أو شاعر فيلسوف وإن كان فيلسوفاً بالجوهر وشاعراً بالعرض، عنده الفلسفة رؤية إذن، رؤية وليست مذهباً، لم إذن البحث عن مذهب فى فلسفة رؤيوية مباشرة لا تحمل وساطات الاستنباط والاستقراء وغيرهما من صيغ الاستدلال؟

إن الروح البرجسونية تتجسد فى فلسفة مارسل الذى يأبى أن يؤلف "مذهباً" يبدأ من المبادئ العامة ويستدل منها بعد ذلك أحكاماً جديدة^(١٠). صحيح أن "كل فلسفة رؤية تصدر عنها، لكن الفيلسوف يعجز نهائياً عن صياغتها فى مذهب، لأن الرؤية تضيف على الفلسفة صفة الاحتمال، والاحتمال يناهض فكرة المذهب بل يشوه المذهب الاحتمال فى يقين غير مشروع.

يمكن القول إذن إن برجسون يريد احتمالا لا يتقدم نحو اليقين ولا يريد يقينا يتقدم على حساب احتمال^(١١) والفيلسوف لا يصنع مذهباً لأنه يظل إنساناً يتردد ويتعثر في حركة جدلية وحيوية، في "تجربة" ليست إلا محاولة قد تخطئ وقد تصيب، وأول رسالة ألفها برجسون تتصف بهذه السمة، سمة المحاولة فعنوانها "محاولة في الكشف عن المعطيات المباشرة للشعور"^(١٢).

ولم يكن كتاب "المادة والذاكرة" إلا "محاولة عن صلة الجسد بالروح" وكتاب "الضحك" إلا "محاولة في دلالة المضحك" وهكذا دواليك. "ومن شأن المحاولة ألا تقف عند مذهب معين، أو تفضل مذهباً على آخر"^(١٣).

فالتناسق إذن غير موجود في الفلسفة عدا الاتساق المنطقي التجريدي المعروف والضروري حتى في القول بالتناسق.

وكل هذه الأمشاج في كتاب "المذهب في فلسفة برجسون" من مختلف المحاولات السابقة عند زكريا إبراهيم ومصطفى سويف ويوسف كرم ويوسف مراد وزكي نجيب محمود في انسجام تام رغماً عن أو بالاتساق مع الاختلاف والتباين بين وضعية زكي نجيب محمود وعلم النفس التحليلي عند يوسف مراد وحدود العقل عند يوسف كرم ونظرية التكامل عند مصطفى سويف وعرض زكريا إبراهيم لمجموع برجسون في عام ١٩٥٦. وأين هذا، هذا النابغة الذي يخترع مذهباً من لا شيء ويؤلف نظرية لا تتصل بما قبلها ولا تتأثر بما حولها؟!

فمذهب مراد وهبة من حيث المذهب في فلسفة برجسون لا يمت بصلة إلى الشيوعية أو التنوير بل يميل إلى نقدهما من طريق نزعة نفسية ووضعية، لكن المذهب النفسي والوضعي هنا معروض في صورة غير مباشرة، لذا فهو خصص كتاباً كاملاً عن "المذهب عند كانط" لكي يحدد مقاييس بناء المذاهب، ولأن كانط فيلسوف للمذهب وليس هنري برجسون، ذلك أن برجسون "يرفض أن يذهب الفلسفة"^(١٤)، وأما عمانوئيل كانط فيحدد بالضبط كيف يقوم المذهب الفلسفي.

وقيام الفلسفة على مذهب أو نسق هو مقياس علميتها، فالنسق يربط الوقائع بحقائق ضرورية، ذات أصل عقلي بالتالي، بحيث يفسرها ويفسر بعضها بعضاً،

وبعبارة أخرى يقتضى العلم نظاما ساميا يضع مبادئ المعرفة، أى نسقا من الحقائق القبلية^(١٥).

ومذهب مراد وهبة ليس العقلانية المعتدلة كما صاغها فى الفكر الفلسفى فى جامعاتنا المصرية يوسف كرم، كما أن مذهبه يغاير التوحيد بين العقل والإيمان عند عثمان أمين، لكنه تأثر بعض الشيء بأسلوب زكى نجيب محمود فى الكتابة بالزرعة العلمية عنده دون أن يتوقف عندها تماما، وهو يعتبر عبد الرحمن بدوى نازيا لا جدوى من فكره، أما يوسف مراد فقد أعد وهبة وقدم لكتابه "المذهب التكاملى" عام ١٩٧٤.

وكان يوسف مراد قد استخلص "المذهب التكاملى" فى أثناء دراسته فى باريس للحصول على إجازة دكتوراه الدولة، وقد حصل عليها فى يناير ١٩٤٠ برسالتين إحداهما عن بزوغ الذكاء ودراسة فى علم النفس التكوينى والمقارن، والأخرى عن علم الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة لفخر الدين الرازى، واقتبس منه مراد وهبة فكرة الحركة الدائرية اللولبية التى تفتح وتغلق المذهب فى آن، وهو لم يتخصص فى علم النفس وعلو الذات على المجتمع وعلم التاريخ وعلو المجتمع على الفرد؟ الواقع أن ليس هناك تضاد لأن المدرسة الجشططية التى تأثر بها يوسف مراد تعتبر سلوك الكائن لا "على أساس سلوك عناصر هذا الكائن كل عنصر على حدة وإنما يتحدد على أساس سلوك الكل أو البناء العام، والكل فى نظر يوسف مراد ينطوى على تناقض، ومن ثم يأخذ من هيجل المنهج الديالكتيكى، لكنه يسترشد فى تطبيق هذا المنهج بالحركة اللولبية التى دعا إليها إنجلز^(١٦).

إن مذهب مراد وهبة هو "التكامل التاريخى"، إذا صح هذا التعبير. مراد وهبة واحد من الرعيل الثانى من أمثال فؤاد زكريا ويحيى هويدى وزكريا إبراهيم كما أنه تميز عن غيره من الفلاسفة الشيوعيين من أمثال أنور عبد الملك ومحمود أمين العالم وإسماعيل المهدي وغيرهم بالتركيب بين علم النفس وبين علم التاريخ، وبينما تحول أنور عبد الملك بعد رحلته إلى باريس من الشيوعية إلى الإسلام كما فعل غيره من أمثال عادل حسين ومصطفى محمود ومحمد عمارة تحول مراد وهبة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى من الشيوعية إلى التنوير، وأما إسماعيل المهدي فلم

يستطع أن يللم نفسه بعد اعتقاله فى مستشفى الأمراض العقلية منذ عبد الناصر، وأما محمود أمين العالم فقد انتقل إلى إحياء ما كان عنده من "نقد تطبيقي" للأدب كما فعل ذلك - أخيرا - مراد وهبة فى كتاب: "فلسفة الإبداع" تلك هى محاولات مراد وهبة من المسيحية إلى الشيوعية إلى التنوير إلى الإبداع الفنى، وفى زمن الشيوعية التى راحت كان مفكرا ناقدًا للجدانوفية والانحراف الستالينى خصوصا فى "محاورات فلسفية فى موسكو" (دار الثقافة الجديدة، ط ٢، ١٩٧٧)، وأغلب الظن عندى أن المرجعية الأكثر أصالة عنده ليست الشيوعية أو المسيحية وإنما هى هنرى برجسون ويوسف مراد، وليست الشيوعية أو التنوير أو الإبداع الفنى سوى فروع الأصول الوجدانية وعلم النفس عند يوسف مراد.

وفى ضوء هذه التجديدات كيف نجيب عن اتهام الشيخ محمد الغزالى رحمه الله والذى وجهه إلى مراد وهبة وفحواه أنه يخاصم الإسلام؟

من ١٩ إلى ٢٢ نوفمبر ١٩٧٩ انعقدت فى كلية التربية جامعة عين شمس أبحاث المؤتمر الدولى الأول للفلسفة الإسلامية تحت عنوان "الإسلام والحضارة" وحررها مراد وهبة ونشرها عام ١٩٨٢ وذلك بالتعاون مع مؤسسة "كونراد أديناور"، ولم يكتف مراد وهبة بالتنظيم والتحرير والنشر وإنما كتب أيضا بحثا أسهم به فى المؤتمر إلى جانب زكى نجيب محمود وجورج قناتى ويحيى هويدى ومحمد نصار وجابر حمزة فراج ونورمان دانييل (إنجلترا) ومفتى على (أندونيسيا) وس. جفرى (باكستان) وب. أ. أيودنرين (نيجيريا) وج. فيريبيكى (بلجيكا) وبسام طيبي (ألمانيا) ومنى أبو سنة، وأميرة مطر وبرنيد آيزنبلاتار (ألمانيا) وديتليف خالد (ألمانيا) وآندرية ميرسييه (برن)، وعبد المجيد الغنوشى (تونس)، وليس المهم أن صيغة حديث مراد وهبة عام ١٩٧٩ / ١٩٨٢ لم تكن هى الصيغة نفسها عام ١٩٩٤ ضمن "مدخل إلى التنوير" (ص ١٣٠ - ١٤٧) أو عام ١٩٩٣ ضمن المجلد الصادر عن المجلس الأعلى للصحافة (ص ٣١ - ٣٨).

وليس المهم أيضا أن أحد ملامح عمل مراد وهبة الفلسفى هو أنه يجمع الباحثين والمفكرين والفلاسفة باستمرار فى القاهرة وغيرها من عواصم العالم لمزيد من الحوار والانفتاح على الأنا والآخر معا، وإنما الأمر الأهم هو أن الشيخ محمد

الغزالي يرى أنه يملك الإسلام وحده دون معاون أو منافس ويرفض قبلنا أن ينظر إليه الآخرون أيا كان هؤلاء الآخرون مسيحيين أو مسلمين على السواء.

وبسبب المؤتمر العالمى الذى عقد بالقاهرة حول "الإسلام والحضارة" وتحت إشراف فيلسوف مسيحى هو مراد وهبة قامت القيامة ولم تقعد حتى الآن، لكن إذا كان مراد وهبة يخاصم الإسلام فهل يخاصم الإسلام بالقدر نفسه - فيلسوف آخر - مسلم هذه المرة وليس مسيحيا - من عيار زكى نجيب محمود والذى شارك فى المؤتمر إلى جانب مراد وهبة بمساهمة تحمل عنوانا بل تحمل مشروعاً بديلاً لاتباع الشيخ محمد الغزالي لا يختلف فى جوهره النهائى عن مشروع مراد وهبة ألا وهو "طريق العقل فى التراث الإسلامى"؟

من الناحية الظاهرية يبدو وكأن اختيار مراد وهبة لابن رشد امتداد لتيار مسيحى فى الثقافة العربية المعاصرة يميل إلى إحالة ابن رشد إلى الكفر بالإسلام، أى أن هناك مفكرين يقومون على فترات متباعدة بإظهار الجانب غير الإسلامى فى الإسلام عبر ابن رشد، فقد سبق أن قال فرح أنطون بأن فلسفة ابن رشد مادية قاعدتها العلم، كما سبق مراد وهبة الأب يوحنا قمر بقوله إن ابن رشد أبعد فلاسفة العرب عن الإسلام بعد المعرى، وأخيراً ذهب روجيه جارودى الفيلسوف المسيحى أيضاً مذهباً يقيم فيه فلسفة ابن رشد فى غير إطار الإسلام، أى فى إطار هيراقليطس وهيجل وماركس، وأقصى ما وصل إليه الإصلاح الدينى الحديث فى شخص الإمام محمد عبده هو القول بأنه لا يصح أن يكون مذهب ابن رشد "مذهب الماديين". و"المفارقة" حسب تعبير مراد وهبة أن ابن رشد حورب لدى المسلمين والمسيحيين على السواء.

والواقع أنه ربط الفلسفة بالدين - والدنيا بالفلسفة دون أن يحيل الصلاحية الفكرية لأحد المجالين إلى الآخر لأن الحق الفلسفى لا يضاد الحق الدينى، للدين حق وللأسفة حق أيضاً، تلك هى نظرية "الحقيقة المزدوجة" التى يعتبرها مراد وهبة أهم إضافات ابن رشد إلى "الإسلام والحضارة" وقد سمح إعطاء الحق للفلسفة بتعميق قانون التأويل العربى من جديد بعد أن كان الخوارج أول "من تأولوا نصوص القرآن من الفرق الإسلامية، ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية" (١٧).

لكن إذا كان صحيحاً أن ابن رشد شرّع التأويل الفلسفى لنصوص القرآن والحديث فإن ما يقوله مراد وهبة عن الغزالى ليس صحيحاً تماماً، ليس صحيحاً أن كل "فلسفة الغزالى ضد التنوير، فماذا يصنع "بالمنفذ من الضلال" و "إحياء علوم الدين"؟

"فالحقيقة أن الغزالى لم يتخل إطلاقاً عن منهج المتكلمين والفلاسفة كما يدعى، وكتابات الغزالى فى المرحلة الأخيرة من حياته تعكس هذا التعدد فى التوجهات ما بين الكلام والفلسفة والتصوف وأصول الفقه والمنطق، والحقيقة أن الغزالى لم يكفه القيام بدور المتكلم أو دور الفيلسوف أو حتى دور الصوفى، ولكنه أراد أن يقدم مشروعاً متكاملًا "إحياء علوم الدين"^(١٨). وكان الإحياء لصالح "علوم الدنيا" وعلى حساب "علوم الدين" وإذا كان ابن رشد قد شرع التأويل بثنائية ظاهر القرآن وباطنه، فإن هذه الثنائية نفسها يوظفها الغزالى على جميع مستويات المعنى والدلالة والبناء والتركيب فى نسق النص ونظامه، فكما أن هناك باطنًا عن ابن رشد فهناك عند الغزالى أيضاً باطن "هو الأسرار والجواهر، هو الحقائق التى يتضمنها النص من حيث هو مضمون"^(١٩). لذا "ليس كل الغزالى إظلاماً، وليس كل ابن رشد تنويراً".

وهو لا يرى الإظلام فى تنوير ابن رشد أو التنوير فى إظلام الإمام الغزالى لأن روح التحليل عنده غير جدلية رغماً عن تصريحه بأنه يدعو إلى الانفتاح المذهبى الجدلى، ويميل تحليله إلى اتباع تصور للجدل هو فى جوهره قبل هيجلى، أى قبل حديث، إنه الجدل السالب كما ساد العقل الفلسفى ممن قبل السقراطيين من أمثال الإميونيين والإيليين وزينون الإيلى والسفسطائيين إلى السقراطيين خصوصاً أفلاطون وأرسطو ثم الرواقيين (كريريبي) وأفلوطين والقديس أجسطينوس وأبيلار والقديس توما ودنس سكوت، وأخيراً فى العصور الحديثة عند ديكارت وكانط وحتى شلنج، وأما مع نيتشه وهيجل فقد بدأت مسيرة جديدة للجدل تزيج عنه صفة المنهج الذى لا يزال عالقا بأذهان كثيرين ومن بينهم مراد وهبة.

إن أول من اخترع الجدل السالب هو زينون الإيلى، لكن أول من ألصق الجدل بفكرة المنهج هو أفلاطون فى الجمهورية (١٥٣٢ / ب / ٥٢٩) وقد تم قراءة جدل هيجل على ضوء مفهوم أفلاطون للجدل أى على ضوء الربط بين المنهج والجدل واعتبار الجدل منهجاً، فالجدل هو المنهج الذى يقود الروح الإنسانية إلى الأفكار أو الصور أو المثل العليا، وهى عند زينون الإيلى أيضاً تقنية منطقية أو منهج للاستدلال يقيس بالخلف على صحة نظرية برمينيدس ببيان النتائج المتناقضة (حيث يقدم برهان زينون الإيلى على مبدأ التناقض أو عدم التناقض التى

تتجهها الطروحات المتعارضة ثم تجاوزها، قبل هيجل كان الجدل فى الكلام أو الخطاب أو العقل، كان الجدل ينتمى إلى الخطاب أو إلى الخطاب المتماسك منطقياً، وباعتباره منطق الوهم عند عمانوئيل كانط فإنه يختلف عن المنطق بالمعنى العصرى لكلمة منطق حيث إن الجدل كان لا يختلف عن المنطق الشكلى المدرسى الوسيطى كما أشار رينيه ديكارت فى الرسالة المقدمة للطبعة الفرنسية من كتابه "مبادئ الفلسفة".

وهكذا كان الجدل يزود الباحث بالأدوات التى تسهل عليه مهمة تبليغ المعرفة التى يمتلكها بل تجعله يقول بلا حكم كلاماً كثيراً يمس الأشياء التى لا يعرفها.

وهكذا أيضاً كان الجدل يقود إلى تزييف العقل وتضليله، لذا ميز عمانوئيل كانط فى "نقد العقل المحض" بين الجدل والمنطق العام لأن الجدل لا يتصل بالموضوعات بينما يتصل التحليل بالموضوع وبالتالى بالحقيقة، إنه الفصل بين الجدل والتحليل على أساس أن الجدل لا يتصل قبلياً بموضوعات التجربة الممكنة، وأما التحليل المتعالى فيتصل قبلياً بموضوعات التجربة نفسها، وعلى هذا لا يصح الجدل منطقياً ولا يصح موضوعياً أو مادياً بل يصح متعالياً، أى أن الجدل لا يصح قبلياً أو موضوعياً.

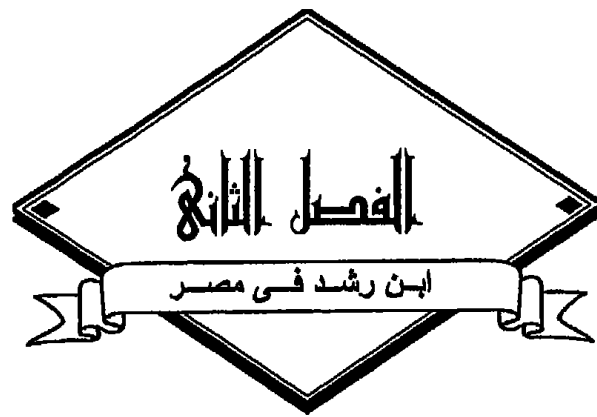
صحيح أن الجدل عند أفلاطون يقود إلى الحقيقة وأنه يقود عند كانط إلى الوهم الذى تخلقه نقائض العقل المحض من وحى نفسه، وصحيح أيضاً أن الجدل فى "توبيقاً" أرسطو هو مجموع الاستدلالات التى تتصل بالآراء الاحتمالية بينما الجدل عند كانط ليس تقنية منهجية تقود إلى الحقيقة التقريبية، وصحيح أخيراً أن الجدل عند كانط كما هو عند هيجل يخص الروح وأنه جدل ضرورى وجوهري لكن النقائض التى أدركها كانط حصرها فى العقل المحض ولم يطابق بينها وبين نقائض الشيء نفسه، ونقائض الشيء نفسه هى التى لا تجعل عند هيجل منهجاً شكلياً منطقياً مدرسياً.

إذن الجدل عند هيجل بحث فى نقائض الشيء نفسه وليس منهجاً، وهو ليس منهجاً عند ماركس بالقدر نفسه، كان ماركس يريد أن يكتب مقدمة فى الجدل لكنه لم يترك لنا أو لغيرنا هذه "المقدمة" وإذا كان يقول فى "مقدمة ١٨٥٧" إن الجدل "المنهج" هو الفكر النظرى فإن إنجلز فى "جدل الطبيعة" يرى فى الجدل "علم" القوانين التى تضبط تطور الطبيعة والمجتمع والفكر نفسه، وإذا كانت مقولات الجدل

فى " مقدمة ١٨٥٧ " هى الملوس والمجرد الخالص والعام فإنها فى جدل الطبيعة تتلخص فى التناقض والكم والكيف وتعنى النفى، وإذا كانت المقدمة ١٨٥٧ تضع الفصل بين النظام التاريخى للأشياء وبين الترتيب المنطقى للتصورات موضوعا مركزيا فإن نظرية "جدل الطبيعة" لا تذكر أصلا هذا الفصل بل كتب إنجلز يقول إن "الجدليات المدعوة "بالجدليات الموضوعية، تهيمن فى جميع أرجاء الطبيعة، والمدعوة بالجدليات الذاتية، الفكر الجدلى ليست سوى انعكاس للحركة من خلال الأضداد المؤكدة لنفسها فى كل مكان"^(٢٠)، وربما يرجع هذا الاختلاف إلى أن "مقدمة ١٨٥٧" تقترب من الجدل فى سياق نظرية المعرفة (الجدل الذاتى) فى حين تقترب نظرية "جدل الطبيعة" من الجدل فى سياق نظرية العالم (الجدل الموضوعى) لكن الأمر الأكيد أن إنجلز فى مقاله الثانى عن "مساهمة فى نقد الاقتصاد" لماركس رادف بين الجدل والمنهج، وأن ماركس فى "رأس المال" يحيل إلى القوانين الجدلية التى تضبط تحول الكم إلى الكيف ونفى النفى باعتبارها قوانين عامة تحكم الطبيعة، لكن فى "مقدمة ١٨٥٧" يعارض ماركس بين جدله وجدل هيغل من ناحية المضمون وليس الشكل فقط بينما يلح إنجلز فى "جدل الطبيعة" على أن هيغل هو الذى اكتشف قوانين الجدل لكن التاريخ برهن على أن "المادية الجدلية والمادية التاريخية" لستالين هو الكتيب الصغير الذى أحال الجدل إلى منهج رغما عن تناقض هذا الربط مع "مقدمة ١٨٥٧" لماركس وقوله فى "رأس المال" بأن الجدل نقد وثورة وليس منهجا.

هوامش الفصل الأول :

- (١) مراد وهبة، المذهب فى فلسفة برجسون، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٧٨، ص٩.
- (٢) المرجع السابق.
- (٣) المرجع السابق، ص١٢.
- (٤) المرجع السابق.
- (٥) المرجع السابق، ص١٥.
- (٦) المرجع السابق، ص٤٥.
- (٧) أرسطو، ما بعد الطبيعة، ألبا، ١٩٥١ ٢١ - ٢٧.
- (٨) المرجع السابق، ألبا، ١٩٥٠ ٣٥ - ٩٥ ب٣.
- (٩) مراد وهبة، المذهب فى فلسفة برجسون، مرجع سبق أن ذكرته، ص.
- (١٠) المرجع السابق، ص١١٠.
- (١١) المرجع السابق، ص١٠٧.
- (١٢) المرجع السابق، ص ١١٨.
- (١٣) المرجع السابق، ص ١١٩.
- (١٤) المرجع السابق، ص ١٢٣.
- (١٥) مراد وهبة، المذهب عند كانط، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤، ص٧.
- (١٦) يوسف مراد والمذهب التكاملى، إعداد وتقديم مراد وهبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ٨-٩.
- (١٧) الفيلسوف ابن رشد مفكرا عربيا ورائدا لالاتجاه العقلى، بحوث ودراسات عن حياته وأفكاره ونظرياته الفلسفية، إشراف وتصدير عاطف العراقى، المجلس الأعلى للثقافة لجنة الفلسفة والاجتماع، القاهرة، ١٩٩٣، ص٣٤.
- (١٨) نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة فى علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص٢٧٨.
- (١٩) المرجع السابق، ص ١٨٠.
- إنجلز، جدليات الطبيعة، ت. محمد أسامة القوتلى، منشورات دار الفن الحديث العالمى، دمشق، ١٩٧٥، ص ٢٩٤.



ثنائية العروبة والإسلام

ربما لم يستطع د. مراد وهبة أن يثير سؤال ما فلسفة ابن رشد العربية أو الإسلامية في الندوة الفلسفية التي عقدتها لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة في ٤ - ٥ مايو ١٩٩٤ إلا في سن متقدمة أو بعدما تراكبت السنوات أو بعدما آن وأن الكلام العملى. والحقيقة أن الببلوغرافيا ضئيلة للغاية. لا يثير أساتذة الفلسفة عندنا هذا السؤال عادة إلا عندما لا يعود عندهم ما يثرونه من أسئلة كانوا يثرونه في الماضى. ولم يتوقفوا عند إثارته. لكن التناول كان دوما غير مباشر أو مواربا. كان تناولا مصنوعا للغاية أو تجريديا إلى أبعد الحدود. كانوا يقرضون السؤال وكانوا يسيطرون على السؤال سيطرة عابرة ولم يكن السؤال نفسه يحتويهم ولم يقتنعوا تماما. كانت وربما لا تزال رغبة ممارسة الفلسفة أشد. لم يكن يثار السؤال حول ماهية عروبة الفلسفة عندنا أو إسلامها إلا من حيث الجانب الشكلى. يعطى تقدم السن فى حالات معينة لا الشباب الدائم بل الحرية السائدة أو الضرورة الخالصة. فيتمتع المرء بلحظة إلهام بين الحياة واللاحياة وتتركب كل قطع التصور وترسل ملمحا فى المستقبل يخترق مراحل الحياة.

وقبل أن نخوض فى الحوار الذى دار فى السنوات الأخيرة حول ابن رشد والطبيعة العربية أو الإسلامية لفلسفته خاصة والفلسفة عندنا على وجه الخصوص. لابد من أن نقول أولا إن الفلسفة هى فن تشكيل التصورات واختراعها وصناعتها.

والإجابة وحدها بأن ابن رشد عربى أو مسلم أو بأن الفلسفة عندنا عربية أو إسلامية ليست كافية. إنما الضرورى أن نحدد - زمان عروبة ابن رشد (أو إسلامه) وظروفه وشروطه وتجلياته وشخصه فضلاً عن مجاهيل سؤال عروبه أو إسلامه؟ وقد توفرت القدرة والشجاعة لدى د. مراد وهبة لكى يثير السؤال بين الزملاء والأساتذة والدكاترة والمتخصصين فى فلسفة ابن رشد خصوصا والفلسفة العربية والإسلامية عموما فى ٤ - ٥ مايو ١٩٩٤ بالمجلس الأعلى للثقافة لمراجعة الكتاب التذكارى عن ابن رشد الذى كان قد نشره المجلس نفسه فى عام ١٩٩٣ والذى أشرف عليه د. عاطف العراقى. وقد أثار د. مراد وهبة السؤال حول ما يبدو أنه تناقض بين ما هو عربى وما هو إسلامى فى عمل ابن رشد وكأنه يطلب الاعتراف أو إفشاء سر ما أو كأنها مواجهة.

وسنرى أن التصورات فى حاجة إلى شخصيات تصورية تساهم فى تعريفها. والصدىق هو هذا النوع من الشخصيات التى ارتبطت بالأصل اليونانى لمفردة "الفلسفة". كان فى الحضارة (العربية؟) (الإسلامية؟) حكماء. أما اليونان فقد قدموا شخصية "الأصدقاء" والأصدقاء اليونانيون ليسوا حكماء يتواضعون وحسب. وقد افترض البعض أن اليونانيين قضوا سلفاً على الحكيم العربى / الإسلامى (؟) ووضعوا فى مكانه "الفلاسفة"، أصدقاء الحكمة، أى من يبحثون عن الحكمة دون أن يمتلكوها امتلاكاً حقيقياً، نهائياً. وليس بين الفيلسوف والحكيم اختلاف فى الدرجة وحسب، بل يفكر الحكيم "بالصورة" أو "بالمجاز"، على حين يخترع الفيلسوف ويتصور. ولا شك أن الحكمة قد تغيرت. ولا شك أيضاً أن "الصدىق" عند اليونان يختلف عن الصدىق عند العرب أو المسلمين. فى الصفحات الأولى من "رسالة الصداقة والصدىق" كتب أبو حيان التوحيدى يقول "وإذا أردت الحق علمت أن الصداقة والألفة والإخوة والمودة والرعاية والمحافظة قد نبذت نبذاً، ورفضت رفضاً، ووطئت بالأقدام، ولويت دونها الشفاه، وصرفت عنها الرغبات". فهل يعنى نبذ الصداقة رفض الفلسفة فى مجال التداول العربى والإسلامى؟

وقد يدل لفظ الصدىق على معنى حميم. وقد يدل على الذوق المادى أو على طاقة كطاقة النجار مع الخشب، فالنجار الجيد هو الخشب بالقوة، هو صدىق الخشب. والسؤال مهم. لأن الصدىق عند اليونان لا يدل على شخصيات مظهرية، مثال، ظرف تجريبى. وتدل شخصية الصدىق على حضور معين للصدىق فى الفكر، على شرط أساسى من شروط الفكر، على مقولة حية، على معيش متعال. وقضى اليونان من خلال الفلسفة على الصدىق الذى لا يتصل بغيره بل يتصل بكائن أو بموضوع أو بجوهر ما.

يعرف الفيلسوف التصورات ويبحث عنها. وهو يعرف التصورات التى تقبل الحياة وما بعدها والتصورات التى تخضع إلى المصادفة فى نشأتها. وهو يعرف كذلك التصورات التى لا تحتوى على محتوى. وهو يعرف أخيراً التصورات التى لا تصمد طويلاً أمام المتغيرات الفكرية والواقعية. وهو يعرف العكس تماماً. يعرف

التصورات الممتازة التي تشهد على إبداع معين من حيث كونها مثيرة للقلق أو للخطر.

ما معنى الصديق؟ ما معنى الصديق / الشخصية التصويرية أو شرط من شروط ممارسة الفكر؟ أم أن المقصود كان العاشق؟ ألا يجب أن نتحدث عن العاشق؟ ألم يعد الصديق اليوناني إلى الفكر الصلة الحيوية مع الغير؟ ألم تطرد الصداقة العربية / الإسلامية الغير من الفكر الخالص؟ أم أن المقصود فى الثقافة العربية / الإسلامية شخص غير الصديق، غير العاشق؟ فإذا كان الفيلسوف صديقا، عاشقا للحكمة ألا يعنى ذلك أنه يتطلع إلى الحكمة ويسعى إليها بالقوة على حين يزعم الحكيم العربى / الإسلامى امتلاكها بالفعل؟ قد يكون الصديق مدعيا، وقد يكون الشخص الذى يقول إنه صديق أيضا، وقد يكون موضوع الإدعاء.

قد تدفع الصداقة إلى الحذر. فيشتد العشق إلى موضوع الرغبة وحينما تتجه الصداقة إلى الجوهر قد يصبح الصديق مدعيا، منافسا.

لا شك أن الفلسفة ليست شيئا يونانيا فى ذاته. ارتبطت الفلسفة اليونانية بالمدن، بمجتمع الأصدقاء، بمجتمع المتساوين. وارتبطت أيضا "ببنية المجتمع اليونانى الذى كان يسوده النظام العبودى الذى كان العمل الأساسى فيه يقوم على عاتق العبيد. فهم الذين يعملون ويتحركون بالولاء والتبعية لأسيادهم" (١). ودفع هذا النظام إلى التنافس والتعارض فى الحب، الألعاب، القضاء، السياسة، الفكر.

ولم يجد الفكر العربى / الإسلامى شرطه فى الصديق وإنما فى المدعى، فى المنافس، فى الصراع بين العروبة والفلسفة، بين الإسلام والفلسفة، بين الدين والفلسفة، بين الفقيه والفيلسوف.

الصديق واحد متعال. وبالرغم من صفته المتعالية فهو لا يفقد وجوده، كثافته، حيويته فى الشخصية نفسها. وحينما نعيد الاعتبار إلى ابن رشد إنما نعيد الاعتبار فى الجوهر لمعنى كلمة صديق فى الفلسفة. ونعيد السؤال الداخلى. ويفيد السؤال عن شروط الفكر. هل شخصية "الصديق" شخصية يونانية فقط؟ أم أن الفكر العربى / الإسلامى قد أبدع شخصية "تصورية" مختلفة؟ تلعب "الشخصيات

التصورية" دوراً مهماً في تطوير الفلسفة. وينبغي أن نفهم تنوع الشخصيات دون أن نختزلها إلى الوحدة التي تفرضها مسبقاً شخصية الفيلسوف اليوناني المعقد.

الفيلسوف صديق التصور. هو بالقوة تصور ولا تقتصر الفلسفة على تشكيل التصورات واختراعها وصناعتها. لأن التصورات ليست بالضرورة اختراعات أو منتجات. الفلسفة هي النطاق المعرفي الذي يتم فيه إبداع التصورات. وهل الصديق هو صديق إبداعاته الخاصة؟ أم أن هذا من صنع التصور الذي يحيل إلى فكرة الصديق ووحدة المبدع وظله؟

إن موضوع الفلسفة هو إبداع تصورات جديدة. لذلك يحيل التصور إلى الفيلسوف وكأنما يحيل إلى من يمتلكه بالقوة أو إلى من عنده بالقوة أو القدرة أو الكفاءة.

وليس في مقدورنا أن نفترض أن الإبداع محسوس وفني بالضرورة أو بحجة أن الفن يبدع الكائنات الروحية أو بحجة أن التصورات الفلسفية "محسوسة" على نحو من الأنحاء. تبدع العلوم والفنون والفلسفات جميعاً. لكن الفلسفة هي التي تبدع التصورات. والتصورات ليست جاهزة ولا تسقط من السماء. فلا توجد سماء للتصورات، بل على الفيلسوف أن يخترع التصورات أو أن يصنعها أو أن يبدعها.

وقد تكون التصورات عدماً إذا غاب عنها توقيع مبدعها. وقد حدد بعض الفلاسفة المعاصرين مهمة الفلسفة حينما قالوا بأن واجب الفلاسفة ألا يكتفوا بالتصورات كما هي أو أن يعدلوا أو أن يختزلوها وحسب بل عليهم أن يصنعوا التصورات وان يبدعوها وأن يضعوها وأن يقنعوا البشر بالالتجاء إليها.

وكان الفيلسوف إلى الآن يثق في صحة تصوراتهِ وكأنها وحي منزل. لكن من واجب الفيلسوف أن يأخذ الحذر لا أن يثق ثقة تامة. ومن واجبه أن يأخذ الحذر من التصورات التي لم يبدعها بنفسه. كان أفلاطون يعرف ذلك وإن علم أن المعرفة تنكر للماضي. وكان أفلاطون يقول بأن واجب الفيلسوف أن يتأمل المثل العليا. لكنه كان قد أبدع تصور التصور. وما قيمة الفيلسوف الذي لم يبدع التصور؟

نعرف الآن كيف نجيب عن سؤال: ما نقيض الفلسفة؟ الفيلسوف لا يتأمل ولا يفكر ولا يتحاور. وذلك حتى ولو استطاع أن يعتقد حيناً بأنها هذا أو ذاك نتيجة

القدرة التى تتوفر لدى كل مجال معرفى لإنتاج أوهامه الخاصة وللتخفى وراء ضباب يرسله خصيصا إلى هذا الهدف. ولا يتأمل الفيلسوف لأن التأملات هى الأشياء نفسها من حيث كونها تصورات ثم إبداعها على نحو من الأنحاء ولا يفكر الفيلسوف لأن أحداً ليس فى حاجة إلى الفلسفة للتفكير فى أى شىء. ونتوهم أننا نعطى إلى الفلسفة الكثير حين نصفها بأنها فن التفكير على حين أننا بذلك نسحب من الفلسفة كل ما تمتلكه. فعلماء الرياضيات لم ينتظروا الفلسفة للتفكير فى الرياضيات. وعلماء الفقه لم ينتظروا الفلسفة للتفكير فى الفقه. وعلماء الأصول لم ينتظروا الفلسفة للتفكير فى الأصول وعلماء الكلام لم ينتظروا الفلسفة للتفكير فى الكلام الإلهى. ولم ينتظر الفنانون الفلاسفة للتفكير فى الفن التشكيلى، والموسيقى، والشعر، الرواية، القصة، السينما، الباليه، المسرح، الغناء. ومن التتكىت أن نقول بأنهم حينما يفكرون يتفلسفون. فتفكيرهم ينتمى إلى إبداعهم الخاص. كما لا تلجأ الفلسفة أبداً إلى التحوار لأن التحوار ينحو بقوة نحو الآراء لا نحو التصور الفلسفى. يخلق وفاقاً ولا يبدع تصوراً. ولم ينتج التحوار الديمقراطى بين الأصدقاء، الزملاء، الأساتذة، الدكاترة حول ابن رشد، تصوراً واحداً حول ابن رشد. وربما تتبع فكرة التحوار الديمقراطى من اليونان. لكن اليونان أنفسهم كانوا يتشككون فيها كثيراً وكانوا يعالجون الأمر معالجة خاصة. كان التصور يطير فوق المعارك والكلام والمنافسة والصراع. لا يتأمل الفيلسوف إذن.

ولا يفكر أو يتحاور، هذا وإن كان من واجبه أن يبدع تصوراً حول التفكير والتحوار والتأمل وغيرها من الأفعال والانفعالات، وليس التأمل والتفكير والتحوار علوما بل هى أدوات للتعميم فى العلوم. ويبدو تعميم التأمل أو التفكير كأداة للتعميم فى العلوم وكأنهما وهمان سبق أن حلقت فوقهما الفلسفة فى أثناء حلمها السيطرة على العلوم غير الفلسفية. ولا ترفع الفلسفة من شأن نفسها حين تقدم نفسها وكأنها "أثينا" ديمقراطية جديدة أو حين تتضوى تحت لافتات التحوار كأداة للتعميم فى السيطرة الوهمية على الإعلام والأسواق.

كل إبداع مفرد. والتصور إبداع فلسفى خاص. والمبدأ الأول الذى تقوم عليه الفلسفة هو أن التعميم (التأمل، التفكير، التحاور) لا يفسر بقدر ما هو مادة للتفسير الفلسفى.

حدد الفلاسفة الفلسفة بعدة حدود. فقالوا إنها معرفة الإنسان ذاته. وقالوا أيضا إنها التفكير. وقالوا ثالثا إنها الحياة مع عدم التسليم بأى شىء دون الفحص المسبق. وقالوا رابعا إنها الدهشة. وقالوا خامسا إنها الاندهاش أمام وجود الموجود. وحددوها بحدود أخرى. وهى كلها حدود أو تعريفات منطقية أو لفظية لا تقدم عملاً محدداً أو تحدد نشاطاً دقيقاً.

فأما ما يحدث به عين الفلسفة حداً حاسماً فهو أن الفلسفة هى معرفة التصورات الخالصة. وليس فى مقدور الفيلسوف أن يعرف شيئاً عن التصورات إن لم يكن قد أبدعها مسبقاً، أى إن لم يكن قد بناها فى حدس خاص بكل تصور على حدة. ويستلزم كل تصور مجالاً، خطأ للسير وأرضاً. ويستلزم كذلك وجوداً مستقلاً للإبداع التصور. فإبداع التصور هو عمل شىء معين. وسؤال استعمال أو جدوى الفلسفة أو حتى ضررها (تضر بمن) يتغير فى ضوء هذا التصور للإبداع الفلسفى.

وتبقى التصورات موقعة.

هناك "جوهر" أرسطو و "مثل" أفلاطون و "فيض" الفارابى و "كوجيتو" ديكارت و "مدة" برجسون. ويستعمل البعض كلمة غير عادية أحياناً، وحشية أحياناً أخرى، صدامية أحياناً ثالثة، على حين يكتفى البعض الرابع بكلمة دارجة، عادية، بسيطة، يملؤها تجانس قد لا تتركه آذان غير فلسفية. ويلجأ آخرون إلى مفردات بدائية. ويلجأ البعض الآخر إلى نحت المفردات بعد أن يكونوا قد مارسوا تدريباً اشتقاقياً يستخلص التصور من مصدر أدبى أصلى.

وقد استعمل د. مراد وهبة كلمة "المفارقة" لبناء تصوره عن ابن رشد. يقول د. مراد وهبة: "المفارقة تقال على قضية تبدو متناقضة ومع ذلك يمكن أن تعبر عن حقيقة ما" (٢). وهو يؤسس تصوره على هذا التعريف المنطقى لمصطلح "المفارقة". وكان قد شاع استعمال هذا اللفظ فى اللغة العربية الحديثة للدلالة على الآراء

المخالفة للمعتقدات المألوفة. وقد أطلق هذا اللفظ أيضاً على الرأي الغريب الذى لا يعتقده صاحبه، ولكنه يدافع عنه أمام الناس لحملهم على الإعجاب به. والرأى المفارق ليس رأياً فاسداً اضطراراً، ولكنه مخالف لما يعتقده الناس، الأولى أن يسمى إغراباً، لأن من يغرب فى كلامه يأتى بالغريب البعيد عن الفهم، ولأن للمفارق فى الفلسفة العربية القديمة معنى آخر ليس هو المقصود عند د. مراد وهبة لأن "بمفارقة" ابن رشد ترتبط بالمادة السياسية الاجتماعية فى القرن الثاني عشر الميلادى. والمفارقات الأخلاقية الرواقية هى الآراء المطلقة، كقولهم: إن الحكيم لا يخطئ، ولا يضطرب، ولا يخاف، ولا يرجع، ولا يأسف، ولا يندم، بل يرتفع بنفسه فوق كل شىء، ويحتفظ بحريته، وينعم بفضيلته. وليس للحكمة عندهم درجات، فمن لم يكن كاملاً لم يكن حكيماً، ولا فاضلاً.

ويستعمل إذن د. مراد وهبة كلمة غير عادية، صدامية. وهو يصوغ لغة رشدية أخرى داخل اللغة الفلسفية. ولا يرتب مجموعة مفردات بل تصل "المفارقة" إلى مرتبة البنية العميقة. وإذا كان د. مراد وهبة قد بدأ يقول بالمفارقة الرشدية منذ عقد السبعينيات من هذا القرن إذا كانت المفارقة قد ارتبطت باسمه دون غيره من أسماء أساتذة الفلسفة فى مصر فهى تحمل تصوراً لا يموت وإذا كان يتجدد، يتبدل، يتغير. وهو التغير الذى يؤرخ للفلسفة ويرسم لها جغرافيا الارتباك وشكل الارتباب.

تحافظ كل لحظة على نفسها فى الزمان. كذلك يحافظ كل مكان على نفسه فى الزمان وإن كانا يجريان خارج الزمان. وإذا كانت التصورات فى تغير دائم فأية وحدة تبقى للفلاسفة؟ لا تصوغ العلوم أو الفنون تصورات. لكن هل تصوغ شيئاً مماثلاً من التغير والوحدة معاً؟ ماذا عن تاريخ تصور "مفارقة" ابن رشد؟ إذا كانت الفلسفة خلقاً مستمراً للتصورات، فما تصور الفكرة الفلسفية العربية / الإسلامية؟ وما محتوى الأفكار الخلاقة الأخرى والتصورات الأخرى؟ ما محتوى الأفكار التى تنتمى إلى الدين والقومية العربية صاحبة التاريخ الخاص، المصير الخاص، الصيرورة الخاصة، العلاقات الخاصة بينها وبين الفلسفة؟

وظيفة الفيلسوف أن يبدع التصورات. لكن إبداع التصورات لا يمنح الفيلسوف أية أولوية أو تفوق أو امتياز. لأن هناك طريقة أخرى للتفكير والخلق

والإبداع لا تستلزم نحت التصورات. وهو حال الفكر الدينى أو التفكير الدينى. سنعود دوماً إلى السؤال حول جدوى النشاط التصورى وتميزه عن النشاط الدينى. لماذا يجب خلق التصورات؟ لماذا ينبغى خلق تصورات جديدة؟ أية ضرورة تتبعها التصورات فى الخلق؟ ما كيفية الاستعمال؟ ما الغايات؟

ولا شك أن الإجابة بأن الفلسفة بلا جدوى هى الإجابة السائدة. لكنها إجابة أصبحت هى نفسها بلا جدوى. ليست القضية هى قضية موت الميتافيزيقا أو مجاوزة الفلسفة إلى الدين. لا شك أن الأنساق الفكرية العامة قد انهارت صورها أو تصوراتها القائمة لكن لم تنته كل التصورات. هناك تغير فى تصور الأنساق العقائدية: من تصور الرأسمالية والاشتراكية والقومية والوحدة والعدل الاجتماعى والحرية إلى تصور العلمانية / الأصولية.

ولا يستقيم حال صديق التصور بدون منافسين. وإذا كانت الفلسفة يونانية فى أصلها فإن ذلك رجع إلى أن المدينة اليونانية القديمة قد اختلفت عن أسلوب الإمبراطوريات والدول واخترعت المنافسة لتأسيس مجتمع "الأصدقاء" وجماعة الإنسانية الحرة بوصفها تجمع بين المنافسين، المواطنين. وإذا كان كل مواطن يتطلع إلى شىء معين فهو يلتقى مع منافسين بحيث يتوجب عليه أن يحكم على أسس. يريد النجار الخشب. لكن حارس الغابات والحطاب والفحام يقولون جميعاً: إنه أنا، إنه أنا صديق الخشب. وفى حال رعاية الإنسانية. فهناك العديد من المدعين الذين يرون فى أنفسهم أصدقاء للإنسانية: الفلاح الذى يزرع الأرض ويحصد الثمار والترزى الذى يعد للإنسان ثيابه، والطبيب الذى يعالجه، والجندي الذى يحميه. وفى السياسة يستطيع أى شخص أن يدعى أى شىء فى ظل نظام ديمقراطى.

وهناك فى الفلسفة من يقول: ابن رشد الحقيقى هو تصورى أنا له، أنا صديق ابن رشد. وتبلغ المنافسة ذروتها فى الاتهامات المتبادلة. لكن كيف التمييز بين الصديق الزائف لابن رشد وبين تصور الزيف؟ الزائف والصديق.

كانت الفلسفة العربية / الإسلامية ولا تزال تلتقى بمنافسين معينين. فى البداية أرادت الإلهيات خصوصاً علم الكلام والفقه أن يحلا محل الفلسفة. كانت



الفلسفات قد فقدت تدريجياً طموحها إبداع تصورات. ولجأت إلى التعميمات. هل كان تخلياً عن إبداع التصور في سبيل علم دقيق للنص أم العكس كان تغييراً في طبيعة التصورات؟ فلقد تحولت التصورات الفلسفية إلى تمثيلية وإلى تصورات للعالم تتبع من النص الدينى. ثم جاء دور نظرية اللغة والبلاغة. واجهت الفلسفة منافسين يتزايدون.

وتكمن مفارقة ابن رشد في أنه كان ممهداً للتطوير في أوروبا على حين أنه كان موضع اضطهاد من أمته. فلقد أصدر الإمبراطور فريدرش الثانى هوهنشتاوفين (١١٩٧ - ١٢٥٠) أمراً بترجمة مؤلفات ابن رشد. وفى منتصف القرن الثالث عشر كانت جميع مؤلفاته مترجمة إلى اللاتينية والعبرية.

"فى بداية القرن الثانى عشر نشطت حركة التجارة والصناعة وتطورت القرى إلى المدن، وانتشر التجار وأرباب المهن والحرف حول القصور الإقطاعية. ونتج عن هذا التطور أمران مهمان: انتظام التجار والصناع فى نقابات، وإغناؤهم من السخرات الإقطاعية. وأخرجت دار الصناعة فى كل من البندقية وجنوة أساطيل بحرية لحمل المتاجر. وفي فرنسا أصبحت الأسواق ملتقى التجار من أنحاء غرب أوروبا، وغدت أنهار أوروبا سبيلاً لنشأة العلاقات التجارية. وهكذا بدأ سلطان الطبقة الثالثة فى النمو. وواكب كل ذلك بزوغ الروح العلمانية التى ترفض وجود حكومات ثيوقراطية يكون مركزها روما"^(٣) هذا من جهة التغيير الاجتماعى أما من جهة التغيير الفكرى فقد أمر فريدرش الثانى بترجمة مؤلفات ابن رشد "لأن فلسفته تستجيب لمناهضة الثيوقراطية كنظام اجتماعى تسانده الكنيسة الرومانية"^(٤). ورغم اعتراض د. فؤاد زكريا المسبق على إقامة ندوة لمناقشة الكتاب التذكارى الذى كان قد أشرف عليه ونشره د. عاطف العراقى من قبل بشأن الاحتفاء بابن رشد فى مواجهة قوى الظلام، فإنه فى سياق حديثه عن "ابن رشد وإشكالياته المعاصرة، بحث نقدى حول الكتاب التذكارى" فى الندوة التى عقدتها لجنة الفلسفة فى ٤-٥ مايو ١٩٩٤، يؤكد تصور د. مراد وهبة للمفارقة قائلاً: "وبعبارة أخرى فقد كان ابن رشد فى وضع دفاعى، يسعى فيه إلى إيجاد مكان للحقيقة الفلسفية فى بيئة معادية لها"^(٥). "وهكذا فإن أفكار ابن رشد حين نقلت إلى أوروبا، قد أثرت فى كتاب أوروبيين كانوا رواداً فى الدفاع عن فكرة فصل سلطتى الدين والدولة، وبالتالي فى التمهيد

للمبادئ الأساسية التي قامت عليها النهضة الأوروبية الحديثة" (١). ويثير السؤال نفسه الذى يثيره د. مراد وهبة: "لماذا لم تحدث هذه النقلة الحاسمة فى العالم العربى؟"، "لماذا لم تظهر هذه النهضة عندنا، مع أننا كنا نحمل أهم مقوماتها؟"، "لماذا أفلتت عقلانية ابن رشد من قبضتنا، بينما امتصتها أوروبا الغربية؟"، "ما السر فى التخلف الذى انتابنا فى ذات الوقت الذى بدأت فيه أوروبا قفزتها الكبرى؟". والإجابة هى الجمود الفكرى. والعجيب أن د. فؤاد زكريا ينفي "المفارقة" فى مستهل بحثه النقدى ويؤكددها فى ثاىا التحليل. فهو فى بداية البحث يقول إن هذه المفارقة ليست مفارقة على الإطلاق، على حين يؤكد بعد ذلك ويثير السؤال حول انتقال أوروبا إلى النهضة وتوقف العرب عن السير فى اتجاه العقلانية. فالمفارقة فى تصور د. فؤاد زكريا هى أن أفكار ابن رشد حين نقلت إلى أوروبا مهدت للنهضة الأوروبية الحديثة. وهو بالضبط تصور د. مراد وهبة فما السبب وراء نفيه المسبق للمفارقة وتأكيدده عليها فى أثناء عملية التحليل؟ لا أظن أن القضية تتصل بالتناقض فى بحث د. فؤاد زكريا بين المقدمات والنتائج. ففؤاد زكريا قد يتغير لكنه لا يتناقض فى تيار التصورات الفلسفية. لذلك فالقضية ليست التناقض بين نفي المفارقة الرشدية والتأكيد عليها إنما هى قضية تتصل بشيء عجيب، خفى، لا يدركه العقل إدراكاً حقيقياً.

وإذا كان ابن رشد قد مهد للتطوير فى أوروبا فإن ذلك لا يعنى أن الطريق كان مفروشا بالورد أو أنه لم يكن كذلك موضع اضطهاد بل استطاع أن يتجاوز المحنة على حين لم يستطع أن يخترقها إلى الآن فى العالم العربى.

وبالتالى فإذا كان محمود أمين العالم يؤكد على أن الفكر الرشدى (٧) قد اضطهد فى أوروبا كذلك واضطهد مشايعوه وإذا كان د. فؤاد زكريا يقول أيضا بأن "جميع الممهدين للتطوير، حتى فى الحضارة الأوروبية ذاتها، كانوا موضع اضطهاد، وظلوا كذلك حتى بعد مضى أكثر من أربعة قرون على عصر ابن رشد" (٨)، فإن د. مراد وهبة يؤكد كذلك بأن أشهر الرشديين كانت حياته سلسلة اضطرابات عنيفة (٩). ورغم هذا الاضطهاد الذى عانى منه الرشديون الأوروبيون انتصرت الفلسفة العقلانية الرشدية هناك، على حد تعبير أ. محمود أمين العالم.

والخلاصة أن هناك اتفاقاً على أن ابن رشد كان موضع اضطهاد في أمته وفي أوروبا على السواء. لكن الاضطهاد الذي مورس ضده في أوروبا لم يمنعه من الانتصار والتجاوز إلى النهضة والتطوير. هل كان الاضطهاد الأوروبي أخف من الاضطهاد العربي / الإسلامي؟ يقول د. مراد وهبة: "وأشهر الرشديين سيجردى برابان (١٢٣٥ - ١٢٨٢)، وكانت حياته سلسلة اضطرابات عنيفة أهمها ذلك الاضطراب الذي قام حين أنكر أسقف باريس القضايا الرشدية عام ١٢٧٧ فكف عن التعليم غير أن رئيس محكمة التفتيش أعلنه بالمثل أمامه وصدر ضده حُرمًا لمجرد أنه ارتأى أن فلسفة أرسطو كما شرحها ابن رشد تمثل حكم العقل الطبيعي"^(١٠). وهاجم القديس ألبرت الأكبر الرشدية وتفريقها بين اللاهوت والفلسفة. وهاجم كذلك القديس توما الإكويني الرشديين "في وحدة العقل ضد الرشديين" في عام ١٢٦٥. وفي مارس ١٢٧٧ حرم أسقف باريس تعليم ثلاث عشرة قضية رشدية. ما الفرق إذن بين التحريم المسيحي الوسيط وبين التحريم العربي / الإسلامي؟ عندنا في الحاليين "تحريم" و "تكفير"؟ يفسر محمود أمين العالم ذلك "بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي ازدهرت في أوروبا وانهارت في العالم العربي الإسلامي ولاتزال حتى اليوم تعاني من تخلفها السياسى والاقتصادي والاجتماعي والثقافي"^(١١). في هذا التحليل ما يؤكد "المفارقة" دون أن يفسرها.

ترتبط مفارقة ابن رشد - مفارقة التطوير الأوروبي والاضطهاد العربي / الإسلامي - بمفارقة ضمنية أخرى هي مفارقة "الحقيقة المزدوجة" التي يرى فيها د. مراد وهبة أخطر التصورات الفلسفية التي صاغها ابن رشد. قلنا إن المفارقة تقال على قضية تبدو متناقضة ومع ذلك يمكن أن تعبر عن حقيقة معينة.

والقول بالحقيقة المزدوجة هو قول بالتناقض بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية وإن عبّرًا معا عن حقيقة واحدة. وقد قاد هذا التناقض إلى ضرورة التأويل: "أى إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يُخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشيبيه، أو بسببه أو لاحقه أومقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف الكلام المجازي"^(١٢). وبالطبع لم يكن ابن رشد المفكر الوحيد الذي قال بالتأويل.

وهناك في تراثنا القديم وعلى مستوى تفسير النص الدينى القرآنى تلك
التفرقة بين "التفسير بالمأثور" و "التفسير بالرأى" أو التأويل. ويصل "التفسير
بالمأثور" إلى معنى النص الدينى القرآنى بتجميع الأدلة التاريخية واللغوية التى
تساعد على فهم النص فهماً "موضوعياً". أما "التفسير بالرأى" أو التأويل فقد تم
النظر إليه من زوايا أنه تفسير "غير موضوعى". لأن المؤول لا ينطلق من الحقائق
التاريخية واللغوية بل يبدأ من موقفه الراهن فى سبيل أن يجد في النص الدينى
القرآنى سنداً لهذا الموقف. وقد أطلق على أصحاب اتجاه التفسير بالمأثور أهل
السنة والسلف الصالح. وأطلق على أصحاب اتجاه التأويل الفلاسفة والمعتزلة
والشيعة والصوفية. وفى حين تم إجلال أهل السنة تم من ناحية أخرى تكفير
الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والصوفية. غير أنه لم تخل كتب التفسير بالمأثور من
بعض التأويل حتى عند المفسرين القدماء الذين عاصروا فى بواكير حياتهم نزول
النص كابن عباس مثلاً. ولم تتجاهل كتب التأويل الحقائق التاريخية واللغوية التى
تتصل بالنص الدينى القرآنى. والقضية الأساسية هى: كيف يمكن الوصول إلى
المعنى الموضوعى للنص الدينى القرآنى؟ وهل فى طاقة البشر الوصول إلى
"القصد" الإلهي فى كماله؟ لم يزعم أحد إمكان هذا. وغاية الأمر أن المؤولة كانوا
أكثر حرية فى الفهم على حين تمسك أهل السلف بإمكانية الفهم الموضوعى على
التغليب. وبالتالي فالمفارقة الحقيقية هى مفارقة الحرية والضرورة. ومفارقة ابن
رشد ليست إلا حلقة فى سلسلة الصراع العام من أجل الحرية. وإذا كان ابن رشد قد
غاب فإن ذلك يرجع إلى سيطرة أو إلى تفوق أهل السلف على أهل الاعتزال. هى
قضية سياسية فى المقام الأول. وهى قضية الاستبداد السياسى (١٣).

وفى الإجابة على سؤال د. مراد وهبة حول عروبة ابن رشد أم إسلامه راح
فتح الله خليف وحامد طاهر وحسن حنفي وأحمد عبد الحليم عطيه وغيرهم يؤكدون
ويعيدون التأكيد على إسلام ابن رشد.

وهم فى ذلك ينحون فى تقويم تراث ابن رشد منحى تكاملياً لا يقبض على
المفارقة من داخل التكامل نفسه. ولا شك أن الجميع يجل ابن رشد ويحترمه.

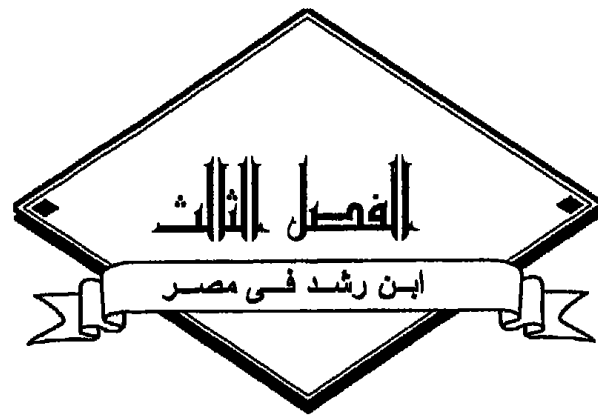
والقضية ليست صيانة المنقول الفلسفي اليوناني. وكذلك هي ليست قضية الفلاسفة المتأغرقين. بل النحو الذي ينحوه أصحاب الإسلام وحيد الجانب وهو منحى مسبوق. فليست هناك نظرة تكاملية أو تقويم للتراث يخلو من المفارقة.

فقد أعادت المدرسة الإسلامية الفلسفية الحديثة في مصر من مصطفى عبد الرازق إلى علي سامي النشار ومحمد عبد الهادي أبو ريدة، أعادت هذه المدرسة التأكيد على أن المذهب الرشدي ترف عقلي لم يؤثر قط في مجتمع المسلمين أدنى تأثير.

غير أن هناك مفارقة في مفارقة د. مراد وهبة. فتكاد أن تلتقي تصوراته حول ابن رشد والتفسير الأصولي، أليس القول باضطهاد ابن رشد في أمته وتمهيده للتتوير في أوروبا هو تنويع على اللحن الذي عزفه الأستاذ الإمام محمد عبده في "الرسالة" في عبارته "شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام"؟

الهوامش

- (١) حوار حول ابن رشد، المحرر: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٥، ص٨١.
- (٢) نُشر البحث في "مفارقة ابن رشد" مختصراً في أبحاث المؤتمر الدولي الأولى للفلسفة الإسلامية ١٩-٢٢ نوفمبر ١٩٧٩ في القاهرة ونشرته جامعة عين شمس في ١٩٨٢ ثم نُشر ثانية في كتاب ابن رشد اشراف وتصدير د. عاطف العراقي، القاهرة، ١٩٩٣ ونشر ثالثة في كتاب "مدخل إلى التنوير"، دار العالم الثالث، ١٩٩٤.
- (٣) د. مراد وهبة، مدخل إلى التنوير، دار العالم الثالث، ط١، ١٩٩٤، ص١٣١.
- (٤) المرجع السابق، ص١٣٢.
- (٥) حوار حول ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص١٢٢.
- (٦) المرجع السابق، ص١٢٣.
- (٧) المرجع السابق، ص٤٢.
- (٨) المرجع السابق، ص١١٩.
- (٩) د. مراد وهبة، مدخل إلى التنوير، مرجع سبق ذكره، ص١٣٣.
- (١٠) المرجع السابق.
- (١١) حوار حول ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص٤٢.
- (١٢) ابن رشد، فلسفة ابن رشد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٨، ص١٩-٢٠.
- (١٣) ابن رشد والتنوير، المحرران مراد وهبة ومنى أبو سنه، دار الثقافة الجديدة، ط١، ١٩٩٧، ص١١٩.



المدخل الإسلامى

لا شك أن المعاصرين أو الكتاب المحدثين والدارسين والباحثين في ابن رشد والرشدية قد أعادوا قراءة وتحليل فكر ابن رشد لإعادة النظر في الكثير من المسلمات والمقولات الشائعة عنه في محاولة للتعرف عليه من جديد. إلا أن القراءات الجديدة لم تخل قط من الخضوع إلى أيديولوجيات معينة جوهرها الإصرار على الالتزام في التعرف على وجه ابن رشد الحقيقي ومظهرها القراءة الإسلامية والعربية والتتويرية.

فالقراءات الأيديولوجية التي نعرض لها في هذا الفصل تؤكد لا من حيث منطوقها إنما من حيث المسكوت عنه في خطابها على أن عبارة "ابن رشد الحقيقي" أصبحت لا تعنى شيئاً في الخطاب الفلسفي المعاصر. ورغبة بعض الباحثين في الابتعاد عن التأثير الأيديولوجي هي رغبة تريد حجب التنوع بالواحدية.

وليست القراءات الأيديولوجية تسمى فهم ابن رشد إنما هي فهم أحادي الجانب أو وحيد الجانب يقدم نفسه كفهم شمولي. ويقتضى الإنصاف أن نحكم على فكر الفيلسوف كله لا أن نقتطع جانباً منه ونهمل الجوانب الأخرى إلا أن الحكم على فكر الفيلسوف هو بناء على افتراضات وأحكام مسبقة لا يظهرها الباحث بالضرورة وإن كانت الرؤية النقدية كفيلة بذلك.

وتبين القراءات الأيديولوجية وغيرها من القراءات أن ابن رشد له وجوه عديدة وليس وجهاً واحداً. وهذا يقتضى إعادة قراءة ابن رشد قراءة متأنية تأخذ في عين الاعتبار الأثقال والمسلمات والمقولات والأيديولوجيات القديمة والحديثة والتي شاعت عن ابن رشد، حتى نتضح لنا وجوه ابن رشد العديدة.

تقوم القراءة الإسلامية في جوهرها على أساس فقهى، أى أنها القراءة التي تريد أن تستنبط من الأدلة العقلية الأحكام العملية واجبة التنفيذ. وهي قراءة عقيدية لا فلسفية تماماً. وهي تعتبر نفسها تجديداً لعلم الكلام لا تجديداً للفلسفة بالمعنى الحصري للكلمة.

فالفلسفة بالمعنى الضيق كانت قد دخلت إلى اللغة العربية من خلال الترجمة في القرنين الثالث والرابع للهجرة على وجه التحديد. أما ما كان عند العرب قبل

ذلك التاريخ فهو الحكيم. وهذه الحكمة عبارة عن معان عملية بمثابة ثمرات لتجارب الحياة يصوغها أصحابها في صورة كلمات جامعة وأقوال بليغة.

وقد تعثر ميلاد الفيلسوف عندنا بعد وفاة ابن رشد بسبب غيبة نقد الذات المفكرة لنفسها. فإن الإنسان لا يصبح مفكراً إلا إذا راجع نفسه أولاً، فنقد الذات هو الطريق الذى يقود إلى صياغة الفكر، وعلى هذا فإن التفكير ليس مرآة تعكس الحقيقة أو تتأملها بل يعنى التفكير أو يقتضى انشطار الذات المفكرة إلى شطرين، شطر ينظر وشر آخر منظور، يخرج فيه الفكر من نفسه، بداخل نفسه.

وهكذا تكون الذات المفكرة فى بدايتها بسيطة ثم تتكسر إلى أن تعود إلى نفسها حيث تقيم إلى جوار نفسها وتعاود الرحلة من جديد. وهكذا إلى غير نهاية، إنه التأسيس الدورى للذات المفكرة لنفسها وب نفسها، وليست العودة أو الرجوع إلا تعبيراً عن طبيعة اللحظة الثالثة، الحاسمة بعد الانكسار.

وهذا يعنى أن المراجعة أو الرجوع لحظة متميزة فى مسار التفكير ولا يمثل لحظة الانكسار وحده. والتجديد أو المراجعة أو المعاودة أو الإعادة ليست سوى لحظة لاحقة تأتى بعد الانكسار. أما فكر الفكر، معرفة المعرفة، فهى المحصلة النهائية لفعل الفلسفة نفسها.

ومشكلة العقل فى إطاره العربى أو الإسلامى إنه يؤسس نفسه على غيره، على الموضوع، على الشيء لاعلى ذاته. إذ أنه لا يجوز - فى القراءة الإسلامية - للنقد الفلسفى أن يؤسس العقل على ذاته، ومتى كان ذلك محالاً ظل انكسار الذات فى ذاتها محالاً أيضاً.

وتتجسد القراءة الإسلامية فى أن مقتضيات تأسيس العقل النقدى فى الإطار الإسلامى هى الأصل المقصدى. والشريعة هى أصل تفلسف الذات المفكرة أما نموذج السببية اليونانية فيقود - فى المنظور الإسلامى - إلى التشكيك فى إطلاقية قدرة الإله المطلقة وافترض قوى إلهية أخرى تقاسمه تدبير نظام الكون. وبالتالي فما يدعو القراء الإسلامىون توفيقاً أو جمعاً ليس إلا وجهاً من وجوه التلفيق الذى يحافظ على الانفصال والاختلاف الأزلى بين الإسلام واليونان، بين الفلسفة

والشريعة، بين التراث والثورة. وليس هذا تليفاً وحسب بل هو أيضاً تأسيس للذات المفكرة على غيرها، أى تأسيس التعليل الفلسفى على التعليل الشرعى والتدليل الشرعى هو التدليل المتبوع. وأما التدليل الفلسفى فهو التدليل التابع، وبعبارة أخرى، يجمع التدليل الشرعى بين العقل والسمع على حين يظل التدليل الفلسفى تدليلاً بدعياً أى قائداً إلى الضلالة.

فى المنظور الإسلامى إذن يقوم النقد الفلسفى على غيره أى على الأصل المقصدى أو على الأصل العملى وأما الأصل المقصدى فهو الأساس اللامادى أو القيمة وأما الأصل العملى فهو التشريع. لذا ارتبطت القراءة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالقراءة الفقهية للفلسفة وغيرها من العلوم والمعارف الإنسانية.

ويحفظ فقه الفلسفة التأملية، الفوقاني، الوعظى، الشريعة على مقتضاها الإسلامى ويؤول الفلسفة على هذا الأساس وتأويل الفلسفة على مقتضى الشريعة الإسلامية لا يعنى على وجه الإطلاق التوفيق أو الجمع أو التوحيد بين الفلسفة والشريعة وإنما هو يدل على طريق التفريق وهو الطريق الذى يستلزم التفريق بين الفلسفة والشريعة بمعنى أنه يضع ما تختص به الشريعة من أصول فى مقابل ما تختص به الفلسفة منها. إنها القطيعة المعرفية بين التدليل والتعليل الفلسفيين وبين الإيمان والعمل الشرعيين، وهى فى الوقت نفسه القطيعة المعرفية بين الذات والموضوع. فالانكسار الذى اشتهرت به الفلسفة حتى صار يدخل فى حدها والذى يعنى تموضع الذات المفكرة بنفسها داخل نفسها بحيث تنشطر إلى ذات وموضوع تحت مراقبة الذات نفسها.

فالممارسة الفلسفية على وجه العموم تقضى بالاستدلال على انشطار الذات من داخل نفسها وليس من خارج نفسها. ويبقى القبول "للانكسار" الذى هو جوهر الفلسفة معلقاً بقبول هذا الاستدلال، وباستثناء الترجمة الصوفية لم تتموضع الذات المفكرة بداخل ذاتها. والمؤكد أن الافتكار والتفكر والتبصر والاستبصار والاعتبار إعمال للفكر والعقل. لكن إعمال الفكر على هذا النحو لا يقتضى تموضع الذات المفكرة من داخل ذاتها، وإنما يفصل فصلاً تاماً بين قدرة الإله المطلقة وبين الفعل الإنسانى التابع بحيث تفوق قدرة الإله المطلق الفعل الإنسانى التابع وأما

"الانكسار" الذي لا ينفي على وجه الإطلاق الأصول القومية للفلسفة فيقضى بالتماثل بين المماثلة والمغايرة من داخل الذات المفكرة حيث تماثل الذات المفكرة نفسها وتغايرها في آتات متباعدة متقاربة وأما مبدأ القراءة الإسلامية فيقوم في جوهره على المغايرة التامة بين الذات وبين الموضوع حيث تتأمل الذات - من الخارج - الموضوع، الشيء، إرادة الشارع الإلهي... وليس المرفوض عندنا "إرادة الشارع الإلهي" في ذاته وإنما المرفوض هو القطعية المعرفية التامة بين الذات وبين إطلاقية الإرادة الإلهية. وليس هذا الرفض تأثيراً "بالمنقول الفلسفي" وإنما هو رفض لتسمية الأشياء بغير مسمياتها ولا شك أن "الاجتهاد" عمل جليل وليس خطأ، بل الخطأ هو الخلط بين أنواع المعرفة وأجناسها المتباينة. والراسخون في العلوم والمعارف والفنون على اختلافها يعلمون خير علم أن "الانكسار" الذاتى أساس للتفلسف وجوهره. هذه خصوصية معرفية أو علمية أو فكرية وليست خصوصية عرقية أو قومية أو دينية ولا يعنى ذلك أن "الاجتهاد" وما ارتبط به من علوم ومعارف وفنون وآداب لم يسهم في الكشف عن الذات الإنسانية وإنما يعنى أن هناك اختلافاً في الدرجة بين "المنقول الفلسفي" وبين "المأصول" الإسلامى.

هناك إذن اختلاف في الدرجة لا في النوع. أما القراء الإسلاميون فيرون اختلافاً في النوع بين الفلسفة والثقافة الإسلامية، بين الثقافة الغربية والمجتمع المخصوص. لا شك أن الفلسفة تفردت في الإطار الإسلامى، ولا يرجع ذلك إلى الخصوصية الإسلامية بل يرجع إلى جوهر فعل الفلسفة الذى يظل يحمل اسم مبتكره. وليس الاجتهاد كذلك خصوصية إسلامية فقد اجتهد المسيحيون واليهود في تفسير النصوص الدينية والفلسفية.

ومقتضى الاجتهاد هو النظر فيما له صلة بالوجود الأعلى والمقاصد والعمل. أى أن مقتضى الاجتهاد هو استنباط أحكام إرادة الشارع الإلهي من آحاد الأدلة الواردة في الأصول الشرعية الثابتة ومعرفة الغرض بالأحكام ووجوه تنزيلها على أفعال الإنسان.

وهناك فارق جوهري بين الشارع الإسلامى وبين الموجود المطلق من ناحية، وبين الحكم الشرعى الإسلامى وبين الحكم الوجودى من ناحية أخرى.

فالشارع والحكم الشرعى مربوطان بنص موجود وجودا موضوعيا مستقلا عن الذات المفكرة على حين لا علاقة للموجود المطلق والحكم الوجودى بنص ثابت بل يتصل الموجود المطلق والحكم الوجودى بتموضع ذاتى فى الأساس.

وليس صحيحا أن المقولتين الإسلاميتين تصوران عمليان على حين أن المقولتين اليونانيتين تصوران نظريان. ففي التراث اليونانى تشريع وفى التراث الإسلامى مصدر إنسانى للمقصد الإلهى. لكن التشريع اليونانى متبذل أما المصدر الإنسانى الإسلامى فقد تخيله الشعراء والصوفية المسلمون. وتصوره من الفلاسفة ابن رشد.

إلا أن القراءة الإسلامية لا ترى هذا التداخل لأنها تنحو فى تقويم التراث منحى تكاملياً دون أن تأخذ فى عين الاعتبار التفاضل بداخل التكامل نفسه. لا ترى المفارقة بداخل التكامل الذى تؤثره.

وهى تقرأ ابن رشد، لكن فى ضوء الغزالى. ورغم أن ابن رشد قد وصل بين الحكمة والشرعية فهى تقول بأن تمزيق التراث قد تم عند أولئك الذين ردوا هذا التوفيق إلى المفارقة وامتنعوا بالتالى عن الدعوة إلى التوفيق بين الفلسفة والشرعية ومن ثم فالنحو الذى تنحوه القراءة الإسلامية فى تقويم التراث هو منحى مسبق. لأنه ليست هناك نظرة تكاملية تخلو من التفاضل، ليس هناك اتصال بدون انفصال.

هو منحى مألوف لأنه توسل بأدوات أصولية وغربية على السواء. فاستتباط الأحكام العملية من الأدلة العقلية أداة أصولية من أدوات الفقه، والعمل بالفلسفة نفسها عمل يونانى فى أصله.

فقد نشأت الفلسفة وتطورت ولاتزال تتطور بواسطة أعمال الترجمة عن التراث الغربى. على حين كانت العقلانية العملية والشرعية هى القاعدة التى انبنى عليها التراث الإسلامى، وقامت الحقيقة الإسلامية على أساس مبدأ اشتغال العمل الدينى على العمل السياسى.

وإذا كان البعض قد نقل دون نقد سابق لأدوات الغربية فإن القراءة الإسلامية لم تتحول كذلك من النقل إلى النقد. أما العقل الغربى نفسه فقد قام منذ

فجر النهضة الأوروبية الحديثة بنقد أدوات عمله الفكرى قبل النهضة الإسلامية الحديثة بزمن طويل والتي لم تنتقد حتى الآن نقدا جذريا الأسس الأصلية التى قام عليها العقل الإسلامى أو الفكر الإسلامى بل هى تعيد التأكيد من جديد أن النقل هو طريق الخلاص. فاستنباط أحكام شرعية من نص مسبق لا تساؤل أبدا حوله أو حول ما يأتى به.

وكيف ترفض القراءة الإسلامية الانكسار بالمعنى الغربى وهى تشتغل به دون إشارة أو إعادة وهى تستعين بالأدوات المنطقية وتستنبط هذه الأدوات من الخطاب الفلسفى نفسه لا من غيره، فليس من سبيل إلى النظر إلا بالانكسار الذات المفكرة فى نفسها. إلا أن مهمة القراءة الإسلامية هى وصل أسباب تفكير المتأخرين بأسباب تفكير المتقدمين من فلاسفة الإسلام دون نقد تفكير المتأخرين. وبالتالي فهى تعرض لخواص الفكر الغربى دون أن تنتقد أدواته، فضلا عن أنها تلغى الذات الحية الصانعة للخطاب، وهو إلغاء لا يصيب الذات فى ذاتها إنما يطال الذات من حيث كونها ذاتا أصلية وتأسيسية، ذلك أنه بالرغم من فقد الذات مكانها الأصلى تظل قادرة على تأسيس نفسها. وعلى حين تطالب القراءة الإسلامية المفكرين المتأخرين بنقد الأدوات الغربية قبل الاشتغال بها فإنها لا تمارس النقد نفسه على الأدوات الأصولية أو الغربية التى تستعملها وهى لا تريد أن تمارس مثل هذا النقد لأن نقد العقل هو نقد للعقل بواسطة العقل وإثبات للعقل بواسطة نقدية، فيكون نقد العقل متوقفا على العقل كما يكون العقل متوقفا على نقد العقل. فيدور الناقد والمنقود أحدهما على الآخر. بينما لا يستقيم العقل فى القراءة الإسلامية إلا بإقحام الشريعة. بعبارة أخرى، تتفرع قواعد العقل على أصول كلية وقيم عامة تتوجه بها، ولا يمكن لهذه الأصول - فى المنظور الإسلامى - أن يستمددا العقل من نفسه، وحيث إن العقل لا يؤسس نفسه فهو لا ينتقد أدواته ويطالب بها غيره.

وهكذا تؤسس القراءة الإسلامية العقل على غير مبادئ العقل، مما يحول دون نقد الأدوات الذاتية، العقلية، ونقد المبادئ الأساسية هو مجاوزة العقل إلى تأسيس العقل من دون نقد مسبق، ومجاوزة العقل هو حال الشيء الذى له انشغال بالعقل من حيث إرادة تكميلية بطور إدراكى يعلوه فيما لا يصل إليه العقل أو لا يقدر عليه.

وبالتالى يوجب تأسيس العقل للخروج عن العقل دون مخاصمته أو محايدته. إنه خروج إلى طور فى الإدراك يفوق طور العقل، فيكون وجوده أنفع للعقل من عدمه، بحيث يتعين أن نعتبره اعتباراً؛ فلنسأل إذن: كيف يمكن للعقل أن يخرج عن طوره خروجاً يعلو به، حتى يكون لنقده سند يرجع إليه وحد لا يتعداه؟

ولا شك أن هناك حداً يُقيد العقل. لكن هل يقيد العقل نفسه أم يُقَيّدُ غيره؟ وإذا كان القيد يعنى "الوصل بين ما تفرق" فإن الوصل والتفريق من صنع العقل، وأما الحديث عن قيد العقيدة الدينية فهو قيد يخرج عن وعلى مجموع العلاقات التى قد يكتشفها العقل، فقيد العقيدة الدينية ليس قيداً داخلاً فى حد العقل، وهو ليس علاقة تقيمها العقيدة الدينية، إنما العقيدة الدينية إدراك يفوق طور العقل ويعلو عليه ويجاوزه، وهذا التفوق والعلو والمجاوزه علاقات لا يكتشفها العقل وإنما تأتية من فوقه. وعلى هذا المبدأ ليس على العقل أن يخوض فى كل شيء. كما ليس عليه أن يختار طريقه.

إذن نحن أمام مفارقة عجيبة، من ناحية نطالب القراءة الإسلامية الغير بنقد الأدوات سلفاً، ثم تظهر أن ممارسة نقد العقل ضيق العقل، ما العمل؟ أيقوم العقل بنقد أدواته بنفسه حتى يؤسس لذاته أم يتأسس العقل أصلاً على العمل الأخلاقى أو على العقيدة الدينية؟

يؤسس العقل على ذاته دون أن يعقلن كل شيء سواء أكان هذا الشيء أسطورياً أو عبادة وثنية أو شريعة منزلة، وبالتالي نستطيع أن نطالب بالنقد والاشتغال بالاعتراض على الآليات الاستهلاكية وامتحان كفايتها الوصفية والتفسيرية واختبار التوافق بين المجالات والنطاقات المعرفية المختلفة، وعدم التسليم بمبدأ تأسيس العقل على ذاته هو جعل القراءة الإسلامية لغيرها قراءة تنفرد إلى التماسك المنطقى، بل إن نفي مبدأ تأسيس العقل على ذاته هو أساس النظرة الفقهية للفلسفة، والتأسيس الفقهى عبارة عن إقامة العقل على أسس مخصوصة ترفع بناءه فيكون التأسيس الفقهى هو إقامة العقل على أصول مستقلة يتفرع عليها غيرها ولا تتفرع هى على غيرها، وهو تأسيس يلزم المتفلسف أن يلجأ إلى حقائق أولية مستقلة عن تفكيره.

وإذا صح "مصطلح اللاهوتى - الميتافيزيقى" "العقل الإسلامى" فقد سلك "العقل الإسلامى" طريق تأسيس نفسه بالمغايرة، وبدا له تأسيس نفسه على غيره أبلغ من تأسيس نفسه على نفسه فى طريق المماثلة مما حال دون تحقيق العقل لنفسه ككيان مستقل بذاته. أما الفلسفة فى ذاتها - سواء أكانت يونانية أو غير يونانية - فهى تقتضى من حيث جوهرها وأسسها الأصلى أن تسلك طريق تأسيس العقل بالمماثلة، ولذلك فصل ابن رشد المقال وقرر ما بين الشريعة والحكمة من "الاتصال". أما النظر الفقهى فقد أخذ بطريق المغايرة.

وإذا كانت الفلسفة قد أخذت تشق طريق المغايرة فإن ذلك قد تم من داخل تماثل الذات المفكرة لنفسها، ذلك أن المماثلة هى أساس العمل فى الفلسفة، حتى أصبحت "أصلاً" تفرعت عليه أغلب التحديدات والتقريرات التى ارتبطت بالممارسة الفلسفية، وقد نفذ هذا الطريق نفوذا جعلها لا تعرف إلا به.

فالذات تشق طريق المغايرة، فإن ذلك قد تم من داخل تماثل الذات المفكرة لنفسها، ذلك أن المماثلة قد اتسع العمل بها فى الفلسفة حتى صارت أصلاً تفرعت عليه أغلب التحديدات والتقريرات التى اشتهرت بها الممارسة الفلسفية، بحيث يجوز القول بأن هذا الطريق نفذ فى الفلسفة نفوذا جعلها لا تعرف إلا به أو بأثاره. وقد لجأت المماثلة إلى المغايرة من داخلها لا من خارجها، وعلى سبيل المثال، فإن الـ "أنا" فى نظرية يوهان فيشت الفيلسوف الألمانى الحديث هى نفى للأنا من داخل الأنا، أى أن الأنا هى التى تنفى نفسها بنفسها.

وأما الأنا الإسلامية فهى بالنسبة لنفسها ظلت غيراً، ضدّاً وإذا كان فلاسفة الغرب قد ضموا المغايرة إلى تماثل الذات بداخل نفسها فإن الفقهاء قد آثروا طريق المغايرة وحدها، وعلى سبيل المثال يجعلون من تحصيل المعرفة أمراً لا تقوم به الذات المفكرة بمفردها وإنما تشترك فيه الجماعة، فالذات موصولة بالذوات وبما ينشأ بينها من علاقات التعامل والتفاعل والعمل بالمعانى المشتركة من منطلق الشعور ببالغ فائدتها وبضرورة اعتبار وجودها، فقد قام فى الثقافة الإسلامية الاختلاف والاتفاق الجماعيين فى أخص مظاهرها المعرفية مقام الصدق والكذب البرهانيين اليونانيين القدامى والشاهد على ذلك ما عرفته من ألوان التحاور وأشكال

التناظر بين مختلف الفئات والأفراد، وما تضمنته من مجالس مأثورة ومناظرات مشهورة جمعت بين متحاورين اختلفوا في اتجاهاتهم واختصاصاتهم، كأنما الحقيقة فيها لا تظهر إلا في الجماعة، ولا يكاد يظفر بها الواحد حتى يحتاج إلى الشهادة من غيره. والعجيب أن اعتماد الحوار في طلب الحقيقة يجعل للفقه متسقاً مع "أهل الجناية" من فلاسفة الغرب، ومع هذا يرفض الفقيه فكرهم، أو هو يصرح بذلك، لكن إذا كان "أهل الجناية" لهم تصور سياسي من وراء الجدل فإن "أصول الحوار" أيضاً أصولاً سياسية وإن أرادت تجديد علم الكلام. فاعتماد الحوار في طلب الحقيقة إنما هو اعتماد سياسي، وإذا كانت الحقيقة من نصيب جماعة محدودة يعيش أفرادها في اتصال بعضهم ببعض فهي حقيقية إلى جانب كونها فكرية فهي مقترنة أيضاً بالسياسي.

ذلك أن "الممارسة السياسية" تعارض العقل اليوناني بالفعل العملي. فالصفة التي غلبت في الممارسة الإسلامية على تصور أهلها للإله، هو أنه "الفاعل"، وليس أنه العاقل، حتى نسبت إليه الأفعال جميعها على طريق الحقيقة ونسبت إلى الخلق على طريق المجاز.

وحيث توسل الفكر الفلسفي في تحديد أخص الصفات الإلهية بمقولة نظرية مجردة، بل هي أم المقولات المجردة، وهي "العقل"، فقد توسل أهل الفكر الإسلامي في ذلك بمقولة عملية مسددة، بل هي أم المقولات وهي "الفعل" ومعروف أن العقل حقيقة مجردة لا تُعلم إلا بآثارها، بينما العمل حقيقة تُعلم بذاتها وبآثارها معاً، والعقل المجرد كذلك حقيقة ضيقة في المنظور الإسلامي.

وحاول د. فتح الله خليف ود. حامد طاهر ود. حسن حنفي ود. أحمد عبد الحليم عطية وغيرهم من الأساتذة والدكاترة والمفكرين أن يردوا مجال الذات المفكرة إلى مجال الأصل الديني الإسلامي وكان العقل — إن جاز هذا المصطلح اللاهوتي — الإسلامي لم يتحقق إلا بفضل الدين. فقد كتب د. فتح الله خليف يقول إن إنتاج ابن رشد الفكري قد "ظهر تحت ظل المدنية الإسلامية، تلك المدنية التي تقبلت هذا النوع من التفكير ونقلته إلى لغتها وشاركت فيه. إن الحضارة الإسلامية التي أحاطت بهذا الإنتاج، أي بإنتاج هذه الفلسفة كانت عاملاً كبيراً في تطور هذه الفلسفة"^(١) كذلك كتب د. حامد طاهر يقول إن ابن رشد هو من أهم فقهاء المسلمين^(٢). وقال

د.حسن حنفي "إن ابن رشد لا يشرح أرسطو بل يقرؤه. فأرسطو الموضوعي لا وجود له إلا من خلال القراءة، كل شرح قراءة تضع الوافد في إطار الموروث"^(٣). وأخيراً، قال د. عبد الحليم عطية: "إن مجرد إثارة السؤال حول عروبة أو إسلام ابن رشد هي محاولة تريد نزع الهوية الإسلامية"^(٤). هذا وإن يتعارض هذا القول أو الدفاع مع البحث الفريد الذي قدمه د. عبد الحليم عطية ضمن العدد الخاص "ابن رشد والذات العقلاني في الشرق والغرب" تحت عنوان "ملاحظات أولية حول وضعية المرأة عند ابن رشد". فهي وقفة نادرة في الدراسات المختلفة حول ابن رشد ودفاع عن مساواة طبيعة المرأة وطبيعة الرجل.

إلا أن القراءة الإسلامية لابن رشد تقول بالتكامل الديني على حين تتعارض من داخلها وبينها وبين عوامل أخرى حديثة كالدفاع عن مساواة طبيعة المرأة وطبيعة الرجل.

فقد أراد ابن رشد أن يصون التراث اليوناني الأرسطي وأن يجزئ عن غير وعى النظر إلى التراث الإسلامي. ونزع إلى "تخليص" تصانيف العلوم مما يظن أنه لا يدخل فيها من الأبواب أو لا يرقى إلى مرتبة أقوال أصحابها من الراسخين.

كذلك فصل ابن رشد بين المنطق وبين أصول الفقه من ناحية، وبين علم أصول الفقه وبين العلوم الإسلامية؛ من ناحية أخرى، وجرد علم أصول الفقه من علم الكلام والفروع الفقهية واللغوية والنحوية، وذلك بسبب "الحجة التربوية". فالعلوم لا تتعلم دفعة واحدة وإنما واحداً واحداً. ومن أراد أن يتعلم أشياء أكثر من واحد في وقت واحد لا يمكنه أن يتعلم ولا واحداً منها. ويرجع التجريد أيضاً إلى "حجة علمية". فالعلوم صناعات ومقتضى الصناعة أن تكون مستقلة الموضوع ومضبوطة المنهج، وسبب العزل الذي قام به ابن رشد هو أيضاً أن العلم عنده مستويان اثنان، مستوى عريض ومستوى ضيق، وأما المعنى العريض للعلم فهو يشمل كل المسائل القريبة والبعيدة التي تدخل فيه، وأما المعنى الضيق فهو لا يشمل إلا ما استوفى الشرطين المتكاملين اللذين هما الشرط الضروري: لا تحصيل علمي بدون تحصيل مخصوص للمسائل الداخلية فيه. والشرط الكافي هو متى حُصِّل هذا القدر عن المسائل صح ادعاء تحصيل العلم الذي يدخل فيه هذا القدر، ولا يستطيع

أحد أن ينفي ما يحمله التفريق الرشدي بين العلوم من فوائد في نظرية المعرفة وفي تصور التداخل المعرفي، وهو الأساس النظري لإمكان انفصال العقل، على العموم، انفصلاً كلياً عن العقيدة.

فموجب أجناس موضوعاتها لا يمكن أن تمد بعض العلوم بعضها لا من حيث عناصرها ولا من حيث خصائص هذه العناصر وعلاقاتها، ومن ثم لا يرفض ابن رشد تكامل العلوم وشمولها بل يفصل بينها فصلاً موضوعياً ويمثل بينها مماثلة شكلية هي مماثلة البراهين، فالبرهان هو الشكل الأتم لأشكال العلم المختلفة. والواقع أن فلاسفة المشرق والمغرب قد سلكوا قبل ابن رشد والغزالي مسالك أربعة:

١- طريق الرد

(أ) طريق رد الفلسفة (فرع) إلى الشريعة (أصل).

(ب) طريق رد الشريعة (فرع) إلى الفلسفة (أصل).

٢- طريق المقابلة

(أ) المطابقة بين الشريعة (أصل) والحكمة (أصل): أوصاف واحدة.

(ب) المعارضة بين الشريعة (أصل) والحكمة (أصل)، أوصاف متعارضة.

وإذا كان ابن رشد يرد الفلسفة إلى الشريعة فإنه في الوقت نفسه يجعل الحكمة أصلاً مستقلاً بذاته مداره "المجاز" والشريعة والحكمة أصلاً مستقلاً يتطابقان أحياناً وحينما يتعارضان تلجأ الحكمة إلى "التأويل" بالمجاز وهذا الفهم للتداخل / التخارج ترفضه القراءة الأصولية، فلا شك أن ابن رشد - كفيلسوف مسلم - يؤسس الحكمة على الأصل الشرعي، إلا أن الواحد عنده يزوج إلى أصليين اثنين يتجه الأصل الآخر - الحكمة - إلى التأويل بالمجاز.

والقضية ليست دمج أو فصل دوائر المعرفة المختلفة بعضها عن بعض إنما القضية الجوهرية هي مقياس الوحدة المعرفية، فالمقياس عند ابن رشد هو البرهان،

ولا يعنى ذلك التغريب اليونانى أو تجزئ اللغة العربية، صحيح أن ابن رشد كان خير من عمل. بما علم من كتب أرسطو، لكن هل يعنى ذلك أنه لم يتقيد بالقيم العملية لمجال التداول الأسمى الإسلامى والعربى؟ ألم يأخذ بالطريق العملى قط؟

قام ابن رشد بالمقتضى العملى للمحدد اللغوى لمجال التداول، استعمل اللغة العربية، ودخل فى تقويم عبارتها الفلسفية، وقام بالمقتضى نفسه للمحدد العقدى لهذا المجال، فقد ألف فى الفقه وأصول الفقه، وقام بالمقتضى العملى للمحدد المعرفى لمجال التداول، وكان "موسوعياً" فكيف يغيب عنه مبدأ التداخل المعرفى؟

تريد القراءة الإسلامية أن تكون الخصوصية المعرفية للثقافة الإسلامية العربية وفقاً على بعض المفكرين دون غيرهم من العلماء العرب والمسلمين. كيف تتداخل المعارف عند ابن رشد فى الشكل وحده والشكل نفسه يحمل محتويات ومضامين وتصورات وأحكاماً؟ كيف تتداخل للمعارف تداخلاً شكلياً محدوداً، مقصوراً، والآليات تؤسس مدار الخطاب الفلسفى وتثبت القضايا والمسائل؟

إن تداخل المعارف عند ابن رشد يخص الشكل المعرفى ويخص محتواها أيضاً، فقد صاغ ابن رشد "خطاباً" ويتمتع هذا الخطاب "ببنى" لكن إذا كانت هذه البنى "أصلية"، فهى لا بد أن لا تتبدل. وبالتالي فهى لا تتصل بالمحتوى. وما يسميه البعض "التداخل الخارجى" ليس تداخلاً، إنما القراءة الأصولية هى التى تقود إلى التخرج دون التداخل. وهذا ما هو مطلوب، أى أن الهدف هو إخراج ابن رشد من مجال الخصوصية المعرفية للثقافة الإسلامية العربية فى حال قوله باستقلال الحكمة الأصلية عن العقيدة وإدخاله حظيرة الإسلام فى حال قوله برد الفلسفية (الفرع) إلى الشريعة (الأصل)، والتداخل البنىوى كالتداخل الخارجى ليس تداخلاً، لأنه يفترض سلفاً أن طرفى المعادلة مستقلان الواحد عن الآخر.

وقد اجتهد فتح الله خليف وحامد طاهر وحسن حنفي وأحمد عبد الحليم عطية فى رد مجال الذات المفكرة إلى مجال الأصل الدينى والإسلامى، كذلك قالت زينب الخضيرى: "ولولا أن للإسلام خصوصية ما كان يسمح بأن تكون هناك فلسفة"^(٥). وهى بذلك ترد أيضاً الفلسفة (فرع) إلى الشريعة (أصل) ويؤكد

عبد المعطى بيومي: "بعض الفلاسفة لا يكتفى بالنتائج التى يتوصل إليها بعقله الحر بل يَمْضى خطوة أخرى وربما قدما فى مقارنة هذه النتائج التى حصل عليها بعقله مع عقائد الدين أو مقررات المجتمع فتكسب فلسفته هوية جديدة"^(٦). وفى إطار المعنى نفسه يتساءل فيصل بدير ما إذا كان ممكنا وضع "رأس المال" فى إطار "يكون متسقاً مع فلسفة الإسلام فى هذا الصدد"^(٧). ويرى "أن ابن رشد فيلسوف إسلامى فى المقام الأول وأن فلسفته إسلامية لا عربية"^(٨). أما حسن الشافعي فلا يرى إن هناك مشكلة لأن "الاعتراف بدور العقل هو الطابع العام للفكر الإسلامى"^(٩). كذلك يرى فيصل عوف أن عاطف العراقي ومراد وهبة قد أغفلا "الاتجاه الدينى عند ابن رشد، وكان من الواجب معالجة الاتجاه العقلى عند ابن رشد جنبا إلى جنب مع اتجاهه الدينى"^(١٠).

فأى عرض - من منظور فيصل عون - لفلسفة ابن رشد يسقط الجانب الدينى أو الميتافيزيقى "من أجل توظيفها لأهداف معينة خطأ تاريخى"^(١١).

وكان حامد طاهر قد أوضح إسلام ابن رشد الجوهري فى بحثه عن "قضية العلاقة بين الفلسفة والدين لدى ابن تومرت وابن رشد" ضمن كتاب د. عاطف العراقي التذكارى الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٣. فبفضل ابن رشد "بلغت الفلسفة الإسلامية أقصى تطور لها فى العهد القديم"^(١٢) على حد تعبير د. حامد طاهر.

ويعد ابن رشد "من أبرز فلاسفة المسلمين"^(١٣). وبتعريف ابن رشد للفلسفة بأنها النظر فى الموجودات من جهة دلالتها على الصانع تبلور تصور "الفلسفة الإسلامية" فى منظور د. حامد طاهر وأصبح للفلسفة الإسلامية إطارها الخاص. لكن من أين أتى د. حامد طاهر بأن الفلسفة الإغريقية على وجه العموم وبأن فلسفة أرسطو طاليس على وجه الخصوص فلسفة إحادية تخلو من فكرة الله؟ وما علاقة الفلسفة الاشتراكية بتعدد الآلهة عند الثنوية والديانات الشرقية القديمة؟ وإذا افترضنا جدلاً أن فلسفة ابن رشد "فلسفة" توحيدية" كيف نفسر تصور ابن رشد "للحقيقة المزدوجة"؟ وإذا كان ابن رشد يؤمن بالله فهو يؤمن كذلك بالعقل. وليست قضيته اثبات وجود خالق الكون بقدر ما هى تأويل النص من طريق المجاز فى حال

تعارض الشرع والفلسفة، وكيف تكون "الفلسفة الإسلامية" أسلوباً في البحث فقط دون تقديم أو بناء مذهب؟ هل تقتصر "الفلسفة الإسلامية" على شكل المعرفة؟ وحتى ولو كانت مقصورة على شكل المعرفة فشكل المعرفة يحمل محتوى معرفياً، ما هو إذن السر وراء قصر "الفلسفة الإسلامية" على كونها منهجاً في الاستدلال؟ فمجرد النظر في الموجودات من حيث كونها دالة على الصانع يدل على محتوى معين هو المحتوى الديني، فكيف نفصل بين شكل المعرفة القياسية وبين محتوى المعرفة الدينية؟ هل تظل الشريعة "إسلامية" الطابع بعد ما ننعته بأنها في المقام الأول "شريعة العقل"؟

قبل أن نغوص في هذه الأسئلة لابد من الإشارة إلى مجموعة المشكلات التي تثيرها قراءة د. زنيب محمود الخضيرى "لمشروع ابن رشد الإسلامى" فى الكتاب التذكارى نفسه الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى. فبحث د. زنيب محمود الخضيرى يثير المشكلات أكثر مما يجيب على سؤال ابن رشد، وهى المشكلات المختلفة عن تلك التى يثيرها كتابها "أثر ابن رشد فى فلسفة العصور الوسطى" (١٩٩٣). كيف يكون مشروع ابن رشد إسلامياً ومتعدداً فى وقت واحد؟ كيف لم يعن إرنست رينان بابن رشد فى كتابه عن "ابن رشد والرشدية" (١٨٦١)؟ كيف يفقد فيلسوف من عيار ابن رشد "كل قيمة" فى الغرب؟ قد يصبح لا يؤثر. لكن هل يعنى عدم التأثير - إذا صحت هذه الأطروحة - فقد كل قيمة؟ وهل يمكن الوقوف على "الرشدية" بعزلها عن "ابن رشد"؟ "ومن العجيب أن هذه الرؤية التى ترى ابن رشد فيلسوفا مسلما ابن مرحلة تاريخية وحضارية معينة وليس فيلسوفا معلقاً فى فضاء العقلانية الصارمة المقطوعة الصلة بالزمان والمكان، من العجيب أن هذه الرؤية هى التى تسود اليوم سواء بين الباحثين الغربيين أو العرب خاصة مع بروز الجانب السياسى للإسلام مع السبعينيات ووضوح عمق فاعليته" (١٤). وبحث د. زنيب محمود الخضيرى هو جزء من هذه الظاهرة وليس خرقاً لها، وبالتالى فتعجبها لا أساس له من الصحة، فهى تقول فى صدر البحث إن قضية الصلة التى تربط الفلسفة بالدين عند ابن رشد "قضية مرتبطة بشدة بالجانب السياسى للإسلام" (١٥).

وقد أصّلت د. زنيب محمود الخضيرى رؤية الإسلام السياسى لابن رشد بالإحالة إلى د. محمود قاسم حيث حمل على عاتقه تبرئة ابن رشد من "هجمات" المستشرقين، وتحيل كذلك إلى د. حسن حنفي، أما إحالتها إلى د. عاطف العراقي فغير منطقية، لأنه يميل إلى التأكيد على عروبة ابن رشد، فقد أسمى الكتاب التذكاري - الذى شاركت هى فيه - الفيلسوف ابن رشد باسم "المفكر العربى". وهو يعتبر نفسه أستاذاً للفلسفة العربية لا للفلسفة الإسلامية. أما قراءة د. زنيب محمود الخضيرى فهى مرتبطة بالتطور العام الذى طرأ على البحث الفلسفى مع تصاعد المد السياسى للإسلام. فقد بدل هذا المد الاهتمامات الفلسفية تبديلاً معيناً، وساد الاعتقاد فى الهوية الإسلامية الخالصة لفلسفة ابن رشد أن عقلانيته لم تكن هدفاً ذاتياً "إنما كانت أداة فحسب استخدمت بمهارة لصالح الفكر والمجتمع الإسلاميين اللذين كانا يمران بأزمة خائفة وإن لم تأت بثمارها المرجوة"^(١٦). ورأى د. زنيب الخضيرى فى بحثها عام ١٩٩٣ - وهو الرأى المخالف للرأى الذى تبينته فى "أثر ابن رشد فى فلسفة العصور الوسطى" (١٩٩٣) - إن موقف ابن رشد هو موقف الفيلسوف المسلم الذى عانى من أزمة حضارية التى اتخذت سمات خاصة فى بلاده. ورأى أن من واجبه أن يشارك فى حل الأزمة الحضارية الإسلامية.

وتعيد د. زنيب محمود الخضيرى التأكيد على ما سبق أن قال به د. حامد طاهر وهو أن ابن رشد لم يقتبس المذهب إنما اقتبس المنهج من اليونان خاصة أرسطو. "وحماسه للفلسفة فى شكلها الأرسطى لم يكن حماساً لنظرياتها ولحقايقها، وإنما هو حماس لمنهجها وقوامها العقل. والمنهج عام والنظريات خاصة متغيرة من فيلسوف لآخر ومن عصر لغيره. وأكبر دليل على هذا ذهابه إلى الحقيقة لا يكتشفها فيلسوف واحد إنما هى بناء تشارك فى إقامته وتعديله عقول الفلاسفة على مر العصور. وهذه الفكرة الأساسية فى فكر ابن رشد أى اعتبار الفلسفة أساساً منهجاً وليس مذهباً مكوناً من مجموعة من الحقائق، تلك الفكرة التى لا يصرح بها فى عبارات واضحة وإن كانت هى الأساس المباطن لكل مذهب - هى حجر الزاوية لكل مشروع الفلسفى، وهى التى تميزه عن الفلاسفة المسلمين السابقين عليه اعتبروا الفلسفة - أساساً - مذهباً وليس منهجاً. وعندما ذهب ابن رشد إلى أن

أرسطو قد جاء بالحق كله فقد فعل ذلك فى حقيقة الأمر لأنه نظر للعلم الأول على أنه، فى المقام الأول، صاحب المنطق الصارم والمنهج الذى لا يغيى واللذين يوصلان كل ملتزم بهما إلى نفس الحقائق التى توصل إليها أرسطو^(١٧). وهذه الفكرة الأساسية التى تأخذ بالمنهج دون المذهب هى الفكرة الأساسية فى الطريقة التقليدية للتفكير عند د. زينب محمود الخضيرى وغيرها من الباحثين المعاصرين فى حقل الفلسفة والعلوم الإنسانية، وهى الفكرة التى تفصل - أو ترى أنها تستطيع أن تفصل - بين المذهب والمنهج على حين أثبتت فلسفة العلوم المعاصرة - خصوصاً عند الفيلسوف بول فيير أبند أن منهجيات العلم قد فشلت فى إعطاء الخطوط القائدة التى تخدم العلماء وترشددهم فى نشاطاتهم. ويؤكد بول فيير أبند أنه من العبث أن نأمل فى اختزال العلم إلى بعض القواعد المنهجية البسيطة نتيجة تعقد تاريخ العلم. (١٧ب) وبالتالي ليس هناك سوى المذاهب والفرق والآراء وهذه خاصية الفكر الدينى (علم الكلام وعلم الفقه) والفكر العلمى على السواء. فقد انقسم المفكرون مثلما انقسم العلماء ولم يتفقوا قط فى الرأى، ومن ثم اقتبس ابن رشد جانباً أو جوانب متعددة من مذهب أرسطو، وليس المقصود بالمذهب دين أرسطو أو ملته إنما المقصود هو سؤال أرسطو كسؤال الأنطولوجيا، وسؤال الانطولوجيا هو سؤال: ما الموجود؟

إلا أن د. زينب الخضيرى تقرأ ابن رشد قراءة عقيدية أو عقيدية وتريد الخلاص من التعدد الذى هو جوهر الفكر والعلم معا وترجع الصراع بين العقيدة والفلسفة إلى الصراع الذاتى، الشخصى والخاص بطريقة كل واحد فى "التصديق" فى صحة هذه العقيدة أو تلك. إنها قراءة يحكمها الصراع العقائدى بين الإسلام والمسيحية، الحروب الصليبية: يضع "فصل المقال" و"الكشف عن مناهج الأدلة" حلولاً واضحة إسلامية الطابع لا يستطيع العقل الغربى المسيحى قبولها لأنها آنية من عند غير المسيحيين ال "GENTILES"^(١٨).

ولم يكن فى مقدور الفكر اليونانى - من منظور د. زينب الخضيرى - أن يخطو الخطوة الأصيلة نحو التفرقة بين العقيدة وتأويل العقيدة لأن الفكر اليونانى

فكر يخلو من "عقيدة سماوية" وهو المنظور الاستثنائي معكوساً: من العقيدة أساس الانحطاط (الاستثنائي) إلى العقيدة أساس الازدهار الجديد.

لم يقتبس ابن رشد منهج أرسطو لأن منهج أرسطو تركه صاحبه في حالة دقيقة. صحيح أنه نظر لمثال المعرفة المطلقة - الشكل الأول من البرهان - على أساس من الجواهر والمبادئ، إلا أن إدراك المبادئ ظل أمراً مشكوكاً فيه، أى أنه لم يؤسس البرهان على مبادئ كيف يرتبط العلم والبرهان. لكن كيف تكون مبادئ البرهان معلومة؟ أى ملكة هى عارفة بالمبادئ؟ "أترى القوة التى بها يعلم الشيء بالبرهان هى القوة بعينها التى بها تعلم مبادئ البرهان أم هى غيرها، وأترى مبادئ البرهان والأشياء التى تعلم بالبرهان كلاهما يعلمان بالبرهان أم أن أحدهما يعلم بالبرهان والآخر له قوة أخرى يعلم بها. ومبدأ هذا النظر أن نفحص أولاً هل هذه المعقولات الأولى التى هى لنا صور وملكات هى حاصلة لنا من أول وجودنا لكنها كأننا ناسون لها وغير ذاكرين أم هى حادثة فينا بعد ما لم تكن. لكن كونها حاصلة لنا من أول الأمر ونحن ناسون لها يلحقه أمر شنيع، وهو أن نكون مقتنعين بعلوم أشد تحصيلاً ووثق من علوم البرهان ونحن ناسون لها. لكن إذا وضعنا استفادتنا إياها إنما يكون بآخرة فكيف يصح هذا الوضع مع وضعنا أن كل ما نعلمه ونتعلمه إنما يكون بمعرفة متقدمة، فيلزم على هذا أن تكون مبادئ البرهان تبين ببرهان، وذلك مستحيل"^(١٩). ويقول إن هذه المبادئ إنما تحصل لنا عن طريق العقل الذى هو مبدأ المبادئ.

وبالتالى يفترض أرسطو "العقل" حتى يصبح العلم ممكناً، وهو افتراض ملكة عارفة من ملكات النفس البشرية، أى أنه افتراض ذاتى لا يؤسس العلم تأسيساً موضوعياً، ضرورياً، حتمياً، وبالتالي لا يقوم العلم على منهج إنما يقوم على افتراض عَرَضِي.

أما من جهة المذهب فهو ليس مذهباً إلهادياً بل هو مذهب أنطولوجى يدور حول سؤال: ما الموجود؟ كما يقول ابن رشد فى مستهل "فصل المقال" إنه النظر فى "الموجودات" وعلى سؤال: ما الموجود؟ يجيب أرسطو إجابات متعددة. كما أن ابن رشد ينظر فى "الموجودات" المتعددة لا فى الموجود الواحد. ومن بين إجابات

أرسطو على سؤال: ما الموجود القول بأن الـ ENS أو الـ ON يحملان معاني متعددة بمعنى أن الموجود ينظر فيه تبعا للمقولات أو صور الحمل. فقد يدل الموجود إما على "جوهر" وإما على "كم" وإما على "كيف" وإما على "إضافة" وإما على "أين" وإما على "متى" وإما على "موضوع" وإما على "أن يكون له" وإما على "يفعل" وإما على "ينفعل". لكن الدلالة الأولى والأساسية من بين كل هذه الدلالات على الموجود هي دلالة الـ "OUSIA" "الجوهرى". بعبارة أخرى، الوجود أو الموجود ملتبس عند أرسطو وإن كانت كل دلالات الموجود تنطبق على حد وحيد. فالجوهر هو الـ "PROS-EN LOGOHENON"، أى أول معانى الموجود.

وبدون جوهر لا يوجد شيء، ولا يوجد شيء بدون الجوهر، فالجوهر هو أساس الكم والكيف والإضافة وغيرها من المقولات. بدون الجوهر لا توجد "موجودات". ومن ثم فالجوهر هو شرط وجود المقولات الأخرى كلها، ويتحول السؤال إذن من السؤال عن الموجود إلى السؤال عن الجوهر. وينقسم السؤال عن الجوهر بدوره إلى قسمين، وأما القسم الأول من السؤال فهو السؤال عن تعدد الجواهر. فالعد يتضمن الجواهر الحسية إلى جانب الجواهر الأخرى التى يسميها البعض على غرار أفلاطون الصور EIDEA أو الموجودات الرياضية ويسميها البعض الآخر الأجزاء وعناصر الأشياء الحسية على غرار الذريين.

إلا أن السؤال الأساسى بالنسبة لأرسطو هو: هل توجد أم لا توجد جواهر خارج الأشياء المحسوسة؟ وهذا السؤال هو شرط تحليلات أرسطو حول اللاهوت. أين الإلحاد إذن الذى تسلل إلى فلسفة ابن رشد؟

بعد مساهمتها فى الكتاب التذكارى حول ابن رشد تحت إشراف د. عاطف العراقى فى عام ١٩٩٣، ساهمت د. زينب محمود الخضيرى فى العدد الخاص لمجلة البلاغة المقارنة (الف) العدد السادس عشر (١٩٩٦) ببحث عن ابن رشد بين التعددية وبين الوجدانية تعيد فيه التأكيد على أنه لا يمكن فهم مذهب ابن رشد إلا إذا وضعناه فى سياقه العقائدى. وهى تؤكد القناعة السابقة دون أن توضح "قناعة جديدة". بل يمثل بحث "ابن رشد بين التعددية والوجدانية" (١٩٩٦) تحذيراً لبحث "مشروع ابن رشد الإسلامى والغرب" (١٩٩٣). فهى تستخلص من تلخيص ابن رشد "المستقصى من علم الأصول" للغزالي أن ابن رشد "كان فى شبابه يميل

للغزالي^(٢٠). إلا أن "المستصفي" ألفه الغزالي بعد رحلته التي اعتزل فيها وتوصوف، أى أنه كتاب لا يمثل الغزالي المفكر المتصلب. ولا شك أن ابن رشد قد تحول فى حياته الفكرية. لكن هل نستخلص من ذلك أنه كانت لديه عدة مشاريع فكرية وليس مشروعاً واحداً يتطور مع الزمن؟ ليس عند ابن رشد مشروعان إنما عنده مشروع واحد يتعدد مع تعدد زاوية النظر، وليس القول بواحدية المشروع قولاً متصلاً إنما ينبع ذلك من "الوحدة الفكرية" و"التجانس الفكرى" لإضافة ابن رشد النظرية. فتعدد المشاريع يعنى تفتيت ابن رشد إلى مجموعة متضاربة من الآراء الذاتية المتناقضة فيما بينها، ويعنى مصطلح "المشروع" أن ابن رشد يجمع بين الآراء فى نسق واحد ونمط واحد، ولا يمثل التلخيص الذى قام به ابن رشد مشروعاً إنما يمثل أداة من أدوات التحليل الضرورية لكل باحث، أما الموضوعية فلها مقاييس أخرى لا تقتصر على المختصرات والجوامع والتلاخيص، ومن بين هذه المقاييس مقياس "التوحيد" بين المعارف والعلوم والفنون والآداب، وهو أهم المقاييس على وجه الإطلاق.

والواقع أن بحث د. زينب الخضيرى يبتغى القضاء على أطروحة "ابن رشد الأرسطى الخالص" ورد الفلسفة إلى الشريعة. ورغم رفضها للاتصال فهى بردها الفلسفة إلى الشريعة تقيم جسراً بين من قالت عنهما إنهما طرفان وحيدان فى حقيقة الأمر منفصلان تماماً، والواقع الطرف الأول عن الطرف الثانى. وتقول إن ابن رشد يفصل بينهما على حين هما متفقان فى حقيقة الأمر مع أن ابن رشد نفسه فصل وربط على السواء بين الفلسفة والشريعة، بعبارة أخرى، هى تفكر بطريقة الفصل، ثم تلحق الفصل بابن رشد لكى تفتقده من منظور حتمية الاتفاق.

إن مشروع ابن رشد مشروع واحد. وعلى عكس ما تصرح به د. زينب الخضيرى فى مقدمة بحثها فهى تؤكد فى أثناء التحليل أن مشروع ابن رشد واحد لم يتعدد سوى الجانب الأدائى فيه فقط. ومشروعه الفلسفى أساسه المنطقى والإبستمولوجى هو "نظرية البرهان"، وهو المشروع الذى ترفضه د. زينب الخضيرى لأنه يخرج على الدين إذ يقول ابن رشد بأن أهل البرهان هم ورثة الأنبياء، فهى تؤثر "علماء الدين". أما علماء البرهان فخارجون على الدين.

وهكذا يخرج ابن رشد على الدين، ويرفض التعددية الفكرية "مرة لأن التعددية تهدد العقيدة، ومرة لأنها تحدث بلبلة عند العامة، ومرة لأن الله يحرمها"^(٢١). وكيف يخرج على الدين أو على التعددية الفكرية وهو القائل بأن فعل الفلسفة هو النظر فى الموجودات من

حيث كونها دالة على "الصانع" وهو القائل أيضاً بأن هناك طرقاً شتى لمعرفة الله وليس البرهان هو الطريق الوحيد للقائد إلى الله؟

وإذا كان صحيحاً أن ابن رشد لم يكن في حقيقة الأمر يبغى الحقيقة إنما كان يبغى فرض رؤيته فإن د. زينب الخضيرى وإن استغرقت رحلتها الطويلة مع ابن رشد عقدين من الزمان فهي لم تكن في حقيقة الأمر تبغى ابن رشد الحقيقى إنما كانت ولا تزال تبغى فرض رؤية معينة لابن رشد هي الرؤية الأشعرية التقليدية لابن رشد: "ولنا أن نتساءل إذا كانت استدلالات الأشاعرة بهذا الوهن الذى يتحدث عنه ابن رشد، وكان العقل البسيط الفطرى الذى منحه الله للناس كافة قادراً على فرز الصحيح من المغلوط كما سبق أن ذكرنا فكيف تحققت لهم هذه السيطرة على عقول الناس؟" (٢٢).

لم يكن ابن رشد غزالياً لأن د. زينب الخضيرى نفسها تقول إن "ابن رشد لم يكف عن مهاجمة الغزالي في كافة أعماله" (٢٣). وكيف يكون غزالياً في فصل المقال عام ٥٧٤ هـ وهو القائل في فصل المقال - على نقيض الغزالي تماماً - إن "إذا كان الأمر هكذا، وكان كل ما يحتاج إليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدماء أتم فحص، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم، فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان كله صواباً قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه" (٢٤).

ولا شك أن ابن رشد لم يكن أول من هاجم الغزالي في الأندلس. لكن نقد ابن رشد له لم يكن نقداً لإحياء علوم الدين إنما كان نقداً لـ "تهافت الفلاسفة". وهذا لا يعنى أن إحياء علوم الدين لم يكن موضع نقد بل رد عليه أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى (ت سنة ٥٩٧) في "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء". وإذا كان ابن رشد لم يبتدع جديداً فإن رده في "تهافت التهافت" كان أهم رد على كتاب "تهافت الفلاسفة" للغزالي. وهى تؤكد ذلك بقولها: "أما ابن رشد فالخلاف بينه وبين الغزالي في رأيى كان أخطر خلاف بين متصارعين على السيادة الفكرية" (٢٥). ولم يكن الخلاف بين أرسطية خالصة رشدية وبين أرسطية ناقصة غزالية، إذ لم يكن ابن رشد أرسطياً خالصاً ولم يكن يرى في أرسطو ملكاً للفلسفة وسيداً لها بل رأى في مذهب أرسطو "أقل المذاهب شكوكاً". فكيف نقول بأن أرسطو عنده - كما نقول د. زينب الخضيرى - هو من امتلك ناصية الحق كله؟ ولا تجيب د. زينب الخضيرى عن هذا السؤال.

كذلك يقول د. محمود حمدي زقزوق في بحثه عن "مفهوم التنوير في فكر ابن رشد" "ضمن مؤتمر" ابن رشد . التنوير " (١٩٩٤) "إن ابن رشد كان يحكم على أساس من الشريعة الإسلامية وإن كتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" من أهم الكتب في الفقه الإسلامي. "فإن رشد الفيلسوف مع مطالبته بتحكيم العقل إلا أن ذلك لم يكن يعنى لديه بأى حال من الأحوال رفض التعاليم الدينية، ليس فقط نظريا بل على المستوى العملى والتطبيق الواقعى أيضا. ولم يترك ابن رشد الفقيه شاردة ولا واردة من النظم التى تحكم معاملات الناس فى المجتمع إلا وتناولها فى كتابه المشار إليه مؤصلا لها على أسس إسلامية"^(٢٦). وهكذا أصل ابن رشد العلاقات الاجتماعية على الأصول الشرعية لا على تشريع العقل وحده وتمسك بتطبيق حكم الشريعة الإسلامية فى قضائه. وكان د. محمود حمدي زقزوق قد أفصح عن هذه القراءة من قبل فى البحث الذى ضمه إلى الكتاب التذكارى تحت إشراف د. عاطف العراى حيث قال تحت عنوان "الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية لدى ابن رشد" بأن ابن رشد صاحب موقف إسلامى أصيل هو الموقف القائل بوحدة الحقيقة الإسلامية.

وهو الموقف نفسه الذى يقفه د. حسن حنفى فى بحثه "ابن رشد فقيهاً" (مجلة ألف، العدد ١٦، ١٩٩٦). وقبل أن نخوض فى تحليل البحث نشير أولا إلى كتاب "مقدمة فى علم الاستغراب" الذى تبين فيه د. حسن حنفى موقفه من الغرب عموما بالأستناد إلى الفينومينولوجيا الهوسرلية المعاصرة ثم نتناول تقويمه للتراث الإسلامى على وجه العموم وتراث ابن رشد على وجه الخصوص. فقد انتقل د. حسن حنفى من الفينومينولوجيا إلى الفلسفة الإسلامية، من المعاصرة إلى الأصالة.

كان "تهافت الفلاسفة" الذى ألفه الإمام الغزالى فى ختام القرن الحادى عشر نقطة النهاية للفكر الفلسفى العربى وقد ظلت هذه النقطة أكثر من سبعة قرون. ولم يفتح الباب إلا فى منتصف القرن الماضى على أيدي فريق من المتفلسفين "الهواة" أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد لطفى السيد وطه حسين وعباس محمود العقاد وشبلى شميل وإسماعيل مظهر وسلامة موسى. وكان يوسف كرم أول من احترف الفلسفة على نحو دقيق ومهد الطريق لعثمان أمين وزكى نجيب محمود وعبد الرحمن بدوى ويوسف مراد وزكريا إبراهيم ويحيى هويدى وفؤاد زكريا وحسن حنفى.

و "مقدمة فى علم الاستغراب" الذى ألفه الدكتور حسن حنفى حول لأول مرة "الواقع" إلى مقولة فلسفية وإلى هم فلسفى حقيقى.

فقد كانت النهضة العربية الحديثة الفكرية عموماً، والفلسفية خصوصاً قائمة على الفصل الحاد بين العام والملموس، بين الظاهر والباطن، بين المتغيرات والثوابت، مما علق الفلسفة فى الهواء، وعزلها فى النظرات التجريدية، وصرف الجوهر عن الواقع، والماهية عن الحركة.

أما التجريد فكان واسطة الاتصال عند يوسف كرم بين العقل والوجود، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعة وانطلق عثمان أمين بالجوانية على ذاته.

وانحصر زكى نجيب محمود فى حدود التحليل الرمزي للغة، وصبت وجودية عبد الرحمن بدوى فى التصوف، وتوهم يوسف مراد أن التكامل معزول عن التفاضل، وحوّل زكريا إبراهيم العقل إلى مناطق الروح لا إلى روح الواقع، وتصور يحيى هويدى الحياة دون اختلاف و"آله" فؤاد زكريا الصناعة والتكنولوجيا.

وأما مشروع الاستغراب فيقوم على قاعدة الموقف من الواقع والمفارقة هو تأجيل نظرية الواقع إلى حين يتحقق تماماً للموقف من التراث العربى والتراث الغربى، والحقيقة أنه لم يتم تأجيله.

لأنه يفترض - سلفاً - أن واقعا المباشر مكون من النص سواء أكان قديماً أو حديثاً.

وهكذا عقدت الفلسفة لأول مرة فى مصر معاهدة صلح ضمن "مقدمة فى علم الاستغراب" بينها وبين الواقع لكن سرعان ما صارح الواقع الفلسفة وسجن نفسه فى حدود "المباشرة".

إن الخط القائد لمشروع "حسن حنفى" هو مفهوم الواقع المباشر فى حين أن الواقع العلمى لا يمت بصلة إلى الواقع المباشر. والواقع العلمى لا يكون واقعاً علمياً إن لم ينتظم فى جملة من العلاقات وثيقة الصلة بنظريات ثابتة مما يعنى حاجة الواقع المباشر إلى توسط مقولة أو تصور برهان ما.

والواقع بالمعنى العلمى شديد التعقيد ينطلق منه العقل فى البداية ثم يصنع العقل والقوالب النظرية البسيطة ويعود مرة أخرى إلى الواقع الذى يتحول إلى كل غنى بالتحديدات والعلاقات الجيدة المركبة.

وعلى هذا فالواقع، أو الكل الحى، ينتقل إلى علاقات عامة مجردة، ثم يعود مركباً ضمن وحدة نظرية متنوعة، هو فى حركة مكوكية مستمرة بينه وبين التجريد الذى يعيد إنتاجه بواسطة الفكر.

وغياب التصور الدقيق لمفهوم الواقع نقطة ضعف رئيسية فى الجبهة الثانية المكونة لمشروع الاستغراب.

وهو أمر فى غاية الخطورة. لأن الواقع يمثل فى الاستغراب "أساس الإبداع" والتخلص من التراث الغربى، والجبهتان الأولى والثانية، وبالرغم من اختلافهما من حيث المصدر الثقافى، إلا أن كليهما نقل من العرب القدماء أو نقل من الغرب وكليهما تراث، تراث الأنا أو تراث الآخر. على أن غياب مفهوم علمى واضح على نحو تقريبي يجعل من الصعب اتخاذ موقف نقدى صريح منهما يساعد على إبراز الواقع ذاته وفرض متطلباته على قراءة التراثين معاً.

ويكتفى الاستغراب بـ "الموقف الإيجابى" من الواقع دون تنظير مسبق دقيق لطبيعة الإيجاب والسلب، وطبيعة الواقع واللاواقع، وجوهر العلاقة المعقدة بين الواقع وبين القلب النظرى، بين الملموس وبين المجرد، بين المشخص وبين العمل الفكرى.

ومن مفارقات المؤلف فى "مقدمة فى علم الاستغراب" أنه أراد من هذا البيان النظرى الثانى أن يتحول الغرب إلى "موضوع" للعلم لا إلى مصدر للعلم.

لكنه سرعان ما اعتمد "تفسير الظاهريات والحالة الراهنة للمنهج الظاهريائى وتطبيقه فى الظاهرة الدينية" ضمن تناول الجبهة الثانية "الموقف من التراث الغربى" مما أدى - من بين ما أدى إليه - إلى ظهور موضوع الوعى الأوروبى فى الفلسفة المعاصرة كموضوع بنيوى "مستقل عن التاريخ" (ص ٨٥). فلم يتم التمايز بين الذات الدارسة، وبين الموضوع المدروس، وتحول التراث الغربى إلى ذات وموضوع على السواء، بمنأى عن الواقع والتاريخ جميعاً.

وكيف يكون التراث الغربى "موضوعاً" لعلم دقيق، وهو يقنم نفسه بصراحة واضحة: "علم الاستغراب" كمحاولة لإعادة كتابة "أزمة العلوم الأوروبية لهوسرل من خارج الوعى الأوروبى وليس من داخله، من الأطراف وليس من المركز" (ص ٥١٤).

ويستند إلى آراء "هوسرل"، لأنه ظهر في النهاية يدفع الوعي الأوروبي بداية بالأنا أفكر ونهاية بالأنا موجود أى موضوع التفكير، وبه تكتمل المثالية الغربية بعد أن بدأت عند ديكارت وتطورت ببدايات جديدة عند كانط وهيغل.

وواقع الأمر أن المؤلف قد اتخذ من التراث الغربى الهوسرلى إطارا مرجعيا له ولم يتحول تماماً ذلك التراث إلى "موضوع" منفصل لعلم دقيق فضلا عن أنه يسلم فى موضع آخر بأن التراث الغربى أحد الروافد الرئيسية لوعينا القومى، وأحد مصادر المعرفة العلمية.

وبالتالى تبدو "مقدمة فى علم الاستغراب" محاولة "للتوبة" و"التطهر" من دنس الغرب والفكر الغربى الوافد، "فالعودة إلى المركز الحضارى تعطى قوة الى الرفض الحضارى".

والأساس الفعلى لمفارقة الاستغراب هو اتصال أنظمتنا السياسية بالآخر الغربى منذ بداية السبعينيات حتى الآن، فى علاقة تبعية كاملة فاخطلت الأوراق السياسية المحضة بالإنجازات الفكرية، وحجبت التبعية، الجدل الضرورى بين التيارات والثقافات.

وواقع الأمر أن "مقدمة فى علم الاستغراب" ليست مقدمة فى فلسفة العلم بل هى أقرب ما تكون إلى فلسفة الحضارة، وأشبه ما تكون بالموقف الحضارى الكلى الشامل الذى يرفع المقاييس الفردية، والاجتهادات الجزئية، إلى المستوى الأعم.

فالحضارة نوعان: الأول حضارة مركزية تدور علومها حول مركز واحد سواء أكانت دوائر (أصول الدين وعلوم الحكمة) أو محاور (أصول الفقه وعلوم التصوف) وتمثل هذا المركز، وتبدع من خلاله، أما الثانى حضارة طردية تنشأ بقوة طردية تبعدها عن المركز القديم بعد أن بدت عيوبه وتهاوت علومه، ولم تستطع الصمود أمام نقد العقل، ومحك التجربة، وهذه هى حضارة الآخر فى العصور الحديثة، وهكذا فالأوروبى حصيلة حضارة طردية فى حين أن الوعي الإسلامى من وضع حضارة مركزية.

وبالطبع ليست ثنائية المراكز والأطراف جديدة تماماً، فهى مسئلة من إسهامات عالم الاقتصاد المصرى المعروف "سمير أمين" الذى استوحاها بدوره من إضافات مفكرى أميركا اللاتينية والصين. كذلك هى ثنائية استقرت فى أدبيات العالم

الثالث لضبط العلاقة المعقدة بين الدول المتطورة والدول النامية، لإخراج الأطراف من دائرة المركز.

والثنائية فى حد ذاتها، إما مكانية أو هندسية، أو جغرافية وليست زمانية أو تاريخية، مما يناقض الموقف الفلسفى التاريخى الذى يقفه الدكتور حسن حنفى. وبعبارة أخرى تعنى الثنائية دراسة الحضارة، لا فى تتاليها الزمانى وإنما فى معيتها الزمانية أى فى ثباتها، والمفارقة أن التحول من النقل إلى الإبداع لا يتم إلا من خلال نظرية فى التطور الخالق، كما يقول "هنرى برجسون".

فالزمان لا المكان يدل على التوالى والتغير والحرية والإبداع، أما المكان فثابت وانفصالى وآلى، والغريب أن الاستغراب يقر بأن "الحدود الفاصلة" لا وجود لها فى التاريخ، فعصوره تتداخل تداخل الفصول الأربعة، لكنه سرعان ما يتصور أن النهضة الأوروبية الحديثة مثلاً قد أحدثت "قطيعة" فاصلة بين الماضى والحاضر. بدلاً من أن تحول "مقدمة فى علم الاستغراب" التراث الغربى من مصدر للعلم إلى موضوع للعلم، نقلت التراث العربى القديم من مركز الهوية الحضارية إلى مادة الأدوات الغربية.

"فالاستغراب" يريد إعادة بناء القديم على قاعدة الحاضر، لأن الغرب قد أخرج دراسات عديدة عن الدين أكثر جذرية، وهى التى يمكن فى نظر "علم الاستغراب" أن تؤخذ كنموذج لدراسة التراث القديم، كالتفد التاريخى للكتب المقدسة؛ وتاريخ الأديان المقارن، واعتبار الدين علماً إنسانياً يتطور فى التاريخ.

ولعل استحضار هذه النماذج الغربية خطوة جذرية نحو تحقيق الإصلاح الدينى الذى بدأ عندنا منذ أكثر من مائة عام، ولم يثمر حتى الآن النهضة المنشودة، ولذلك فالنهضة الأوروبية الحديثة ما زالت حية بالنسبة "لعلم الاستغراب" يمكنها أن تعطيه نماذج لما تكون عليه الحضارة من نهاية فترة وبداية أخرى.

يقول الدكتور "حسن حنفى": فنحن نعيش مشاكل عصر النهضة الأوروبية التى خرج منها المذهب الإنسانى. وليست مصادفة أن يبدأ عصر النهضة فى نظر الاستغراب من ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود".

فنحن فى دراستنا عن "ديكارت" نهاجم الشك الجذرى حسب تعبير الدكتور حسن حنفى، ونروج للشك المنسوب، وننتهم الأول بأنه شك هدام، وندافع عن الثانى

بأنه شك بناء، كما يفعل اللاهوتيون الغربيون، مع أن الشك الهدام عند "مونتاني" و"شارون"، قد يكون أنفع لنا من الشك عند "ديكارت" حتى يتم القضاء على الموروث القديم، قد يكون الشك المطلق أفيد لنا في مرحلتنا العقائدية الراهنة، (ص: ٢٥٣).

وهكذا ما زال التراث الغربى حتى "مقدمة فى علم الاستغراب" أحد الروافد الحاسمة فى إعادة بناء التراث القديم أو إعادة تدميره، ولم تحدث بالفعل أية قطعية بينها وبين التراث الغربى، بل أذهب إلى حد القول بأنه يبدو أن الحضارة المركزية العربية الإسلامية القديمة لا يتم تجاوزها إلا بأدوات الحضارة الغربية المسماة بالحضارة الطردية الناشئة تحت أثر الطرد المستمر من المركز ورفضاً له.

اختلف المفكرون منذ زمن بعيد حول بدء تاريخ الفلسفة، وتعارضوا فيما بينهم حول النقطة التى ابتدأت عندها الفلسفة وانتهت. وقال "أرسطو" إن الفلسفة لم تبدأ إلا فى القرن السادس قبل الميلاد على يد "طاليس الملطى" وانتهت على يديه، وقال "ذيو جانس اللائرسى" إن أول فلسفة قامت عن عقل الشرقيين والمصريين وانتهت كذلك على أيديهم، وسار الدكتور حسن حنفى ضمن "مقدمة فى علم الاستغراب" على خطى هذا الأخير، إذ يرى أن هناك مصدرين غير معلن عنهما للوعى الأوروبى، هما: المصدر الشرقى القديم، ويضم حضارات الصين والهند وفارس وحضارات ما بين النهرين (بابل وآشور وأكاد) والشام (بلاد كنعان) ويشمل المصدر الإفريقى كله كما يضم المصدر الإسلامى.

أما المصدر الثانى فيحتوى على الديانات الوثنية التى عاشت فيها أوروبا قبل انتشار المسيحية، ابتداء من القرن الثانى الميلادى والأساطير والعادات والأعراف. والأهم فى أمر المصادر غير المعلن عنها هو بالطبع الجانب الشرقى الذى ظل بالفعل مخفياً.

وبعد انتهاء الفلسفة على يد "هوسرل" حسبما يرى علم الاستغراب، يعود أو سيعود الشرق مرة أخرى إلى النقطة المتقدمة فى الإبداع الفلسفى.

والواقع أن الفلسفة لم تبدأ فى الشرق أو لن تنتهى فى الشرق، لأن الفلسفة بلا بداية ولا نهاية فاصلتين، وما نتصوره بداية أو نهاية حاسمة هو من حيث الجوهر تعبير عن طفرة نوعية جديدة أثمرتها التراكمات الكمية الهائلة السابقة عليها، لا تموت الفلسفة فى عصر ما، ولا تنشأ من عدم فى عصر آخر، بل الموت والنشأة

يعبران جميعاً عن تحول جذري أو عن ظهور طور نوعي جديد إلى الوجود، إذ إنه إذا تبدلت الفلسفة جملة، فكأنما يتبدل خلقها من أصلها، ووضعنا الراهن في حاجة ماسة إلى إقامة الحوار بين استمرارية الفلسفة وتراكمها من ناحية، وتبدلها من ناحية أخرى، ويتسع ليشمل التراكم الكمي والتحول النوعي.

أما البدايات الفاصلة، والنهايات الحاسمة، فهي مصطلحات لم تعد تصلح لفتح الطريق أمام الإبداع والتخلص من الآخر.

إن مشروع الاستغراب للدكتور حسن حنفي يدعو حيناً إلى تقديم الفلسفة الغربية اليسارية فقط (ص ٢٦٥ و ص ٣٣٦) على ضوء "رسالة في اللاهوت والسياسة" لـ"إسبينوزا" و "تربية الجنس البشري" للسينج و "تعالى الأنا" لسارتر، لتكوين تيار ديني مستتير (ص ٣٠٩) أو لصياغة موقف سلفي جديد من التراث الغربى ويدعو حيناً آخر إلى إثبات الشيء ثم نفيه بعد ذلك أى أن المشروع يشتمل فى جوهره على تناقض فى الموقف، "فلماذا لا نعتمد منطق" إما.. أو "بدلاً من منطق الإلغاء؟" (ص ٩١) هكذا يقترح مُنظرُ الاستغراب.

وبدورنا، فمن حقنا أن ندهش للخلط الواضح بين منطق "إما.. أو" الذى هو أقرب إلى صلب الاستغراب، وبين منطق التناقض، وبين منطق الإلغاء.

فالاستغراب لا يقف من التراث الفلسفى الغربى موقفاً تناقضياً، أو ضابطاً للتناقض، كما لا يقف موقف اللاغى له، وإنما هو يقف موقف "الحائر".

وثنائية "إما - أو" ليست غريبة على التراث الغربى المعاصر فهى عنوان لكتاب ضخيم "لزيرون كيركجورد".

إن المستغرب كالعاشق الشاب فى أوبرا "موتسارت"، "دون جوفانى"، يجرب عدة إمكانيات، لكنه لا يلزم نفسه بمسئولية تحقيق واحدة منها، بجد واهتمام إنه يجرب أفكاراً شتى، لكنه لا يلزم بأى وعد، ويجرب تجارب فكرية، لكن لا يتورط فى موقف حاسم.

ويتحول الاستغراب إلى سلسلة غير متصلة الحلقات من الانتقالات من فكرة إلى التى تليها، وهكذا فإن الاستغراب يعوزه الوحدة والاتصال.

نحن فى الاستغراب ندور فى فضاء اللامكان، ويخلق فى مملكة الانسحاب من حقيقة الاختيار، بينما نحن فى حاجة ماسة إزاء التراث الغربى إلى اتخاذ موقف

وإلى بلورة منطق للعلاقات يتسع ليشمل العلاقات الأحادية والثنائية إلى ما لا نهاية. صياغة هذه العلاقات ضمن وحدة عضوية متحركة متعددة الجوانب والتوازنات، يكون مدارها التفاعل المتبادل لا التفاضل بين "أنا" قائمة بذاتها و "آخر" قائم بنفسه.

وقد قدم على حرب قراءة لمشروع الاستغراب عند د. حسن حنفي في كتابه "نقد النص" على درجة عالية من الصواب والصحة. فهو يقول إن "ما يقوله المثقف العضوى هو أنه يتماهى مع هموم الناس وأمانهم وأشواقهم. ولكن ما لا يقوله هو أنه يريد لهم أن يتماهوا مع همومه وأحلامه ومشاريعه، هذا هو معنى قوله، أي ما يحجبه القول ويسكت عنه، والقول يحجب ذاته ومعناه. هكذا يحمل المثقف الداعية الناس على معناه وإرادته مدعياً أو متوهماً بأن رؤيته هي رؤية أمته، وأن همومه هي هموم شعبه، وأن قضيته هي قضية مجتمعه بل قضية البشر أجمعين. وتلك هي النرجسية التي يتصف بها الكتاب والمثقفون والدعاة"^(٢٧). ود. حسن حنفي واحد من المثقفين الدعاة. فالداعية هو "الشخص التصوري". فالتصورات الفلسفية في حاجة إلى أشخاص تصوريين يساهمون في تعريفها. وكان الصديق هو الشخص التصوري الذي دل ولا يزال يدل على الأصل اليوناني لمفردة "فلسفة".

ما معنى "الداعية" حينما يصبح شخصاً تصورياً، شرطاً من شروط ممارسة الفكر؟ هل "الداعية" هو الرسول؟ ألا يعيد "الداعية" إلى الفكر صلة حيوية مع السياسة كنا قد تصورنا أننا طردناها من الفكر الخالص؟ أم أن المقصود هو شخص غير "الداعية"؟ فإذا كان الفيلسوف "داعية" ألا يعني ذلك أنه يبطن امتلاكه للحقيقة المطلقة ولا يسعى إليها؟

يجيب علي حرب أن حسن حنفي يوهم القارئ بأنه "ناطق تتكلم باسمه أو عبره شخص الدعاء على اختلافهم، من النبي إلى الفيلسوف، ومن الفقيه إلى المنظر الحديث، ومن الإصلاحى فى عصر النهضة إلى الأصولى المعاصر، ومن المثقف الديمقراطى داعية العلمانية إلى المثقف الثورى الداعى إلى قلب الأوضاع وتغييرها. هكذا نجده يتقمص أكثر من شخصية أو دور؛ فهو مرة الباعث والمجدد، ومرة أخرى المؤسس والمعلم؛ ومرة ثالثة الحارس والمدافع، ومرة رابعة المناضل والمحرر"^(٢٨).

ويمثل الباعث والمجدد والمؤسس والمعلم والحارس والمدافع والمناضل والمحرر حدوداً متعالية. وبالرغم من صفتها المتعالية فهي لا تفقد وجودها الكثيف

أو الحىّ فى الشخص التصورى نفسه أو فى الشخصيات التصويرية كافة. وحينما يعيد حسن حنفى الاعتبار إلى معنى الباعث والمجدد والمؤسس والمعلم والحارس والمدافع والمناضل والمحرر فى الفلسفة العربية المعاصرة وحينما يعيد السؤال الداخلى عن شروط تحقق الفكر تحققاً عملياً، أليست هذه الشخصيات التصويرية شخصيات خاصة لا بد من وضعها فى عين الاعتبار عند النظر فى وجوه الفلسفة المختلفة؟ أم أن شخص الفيلسوف "الهادم" الذى يؤثره على حرب هو الشخص التصورى الوحيد الجدير بالاحترام؟ إن قائمة الشخصيات التصويرية لا تتغلق أبداً.

فحسن حنفى أيضاً "سجان" يدير معسكراً لاعتقال العقل و "ابن" يميل إلى قتل "الأب" الغربى وغيرهما من "الشخصيات التصويرية".

وينطوي تصور حسن حنفى للفلسفة - كما يقول على حرب - على وهم مركب يصدر عن نرجسية فلسفية أصبحت فيه الذات موضع نقد. "فلسفة الذات والوعى والحضور هى اختزال الكائن إلى مجرد صورة، أى مسخ له بتحويله إلى كليات مجردة. والأهم من ذلك أن النقد يبين لنا أن الذات العارفة القابضة على الأمر أو على الشيء أو على الآخر تحجب الإكراهات التى تشترط عملها. إذ الذات ليست مطلقة السيادة حرة التصرف، بل هى مشروطة ومفعول بها. وبعبارة أصرح، لا وجود لذات مستقلة منعزلة سابقة فى تكوينها على الموضوع، وإنما الذات هى جملة شروطها، أى مجموعة العلاقات والنسب والإضافات التى تقوم بينها وبين الموضوعات. ومعنى ذلك أن ثنائية الذات والموضوع التى يبنى عليها حسن حنفى علمه الجديد، هى ثنائية خادعة قد تمت زحزحتها الآن تحت مطرقة النقد"^(٢٩).

ويضيف على حرب من جانب آخر أن حسن حنفى يرتب مراحل التاريخ ترتيباً يعتمد الرقم سبعة بطريقة سحرية لا بطريقة مقنعة. كما أنه يرتب التاريخ ترتيباً يقبض على قوانين التاريخ والتنبؤ بالمستقبل على حين أن المستقبل - كما يقول على حرب بحق تام - ينبئنا دوماً أن التنبؤات والتكهنات التى تحاول أن تصف أو ترصد أو تضبط قلماً "تصح" وغالباً ما تأتى النتيجة عكس ما نتوقع بالتمام وأخيراً، يرتب حسن حنفى التاريخ على نحو يفصل معه عن الهوية. "إذن نحن ننتمى إلى هوية لا تاريخ لها هى مجرد تجسيد أو تمثيل لماهية قائمة بذاتها وتسبق كل تكوين أو تطور أو تشكيل. ولا شك أن هذه قراءة أفلاطونية ما ورائية للذات العربية تجعل منها ذاتاً تخرج من التاريخ وتتعالى عليه"^(٣٠). ومن هنا ينظر حسن حنفى - كما يقول على حرب - إلى الذات العربية بعين غريبة من حيث أنه

ينفي عنها "الصفة التاريخية". ومن هنا أيضا يعيد إنتاج الرؤية الاستشراقية التي ينتقدها حسن حنفي نفسه. ورغم أن ذلك يقيم نوعاً من الحاجز المعرفي بين الأنا العربية وبين الآخر الغربي، مما يحول دون خروج الداخل ودخول الخارج. "فهو بدلا من أن يقرأ هويتنا الحضارية قراءة فاعلة متجددة في ضوء علاقتها ببقية الهويات، نراه ينظر إليها نظرة أحادية المعنى وحيدة الجانب، مع أن الحضارة، أية حضارة، هي أغنى من أن يستغرقها مفهوم واحد، وأبعد من أن تنحصر في بعد واحد وهذا شأن الحضارة العربية. إنها كل مركب متعدد الجوانب والأبعاد يصعب حده أو حصره"^(٣١). فالذات مبنية على التعارض والآخر يقبع فيها لا خارجها.

غير أن خطاب حسن حنفي يعيد إنتاج القطيعة المعرفية الأصولية بين الذات العربية / الإسلامية وبين الآخر الغربي على نحو يجعل الذات موصدة الأبواب والنوافذ.

والقول بأن حسن حنفي أصولي إسلامي ليس تجاوزا للواقع أو للحقيقة بل هو نفسه يقول عن نفسه "أنا جزء من الأصولية الإسلامية في تفاعلها مع الثورة الناصرية"^(٣٢). وهو يكمل سيد قطب الأول صاحب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" (١٩٤٩) و "السلام العالمي والإسلام" (١٩٥١) و "معركة الإسلام والرأسمالية" (١٩٥١). وهي الكتابات الإسلامية الإصلاحية التي يحاول من خلالها سيد قطب أن يعالج مسألة موقف الإسلام من الحضارة "العالمية" معالجة ليبرالية، تقدمية، اجتماعية، ديمقراطية أقرب إلى الحركة الفابية بإنجلترا التي كان ينتمي إليها أيضا في ذلك سلامة موسى، وإن كان من منظور خاص. فقد كتب سيد قطب إلى جوار سلامة موسى في "مجلة الشؤون الاجتماعية" التي كانت تصدرها وزارة الشؤون الاجتماعية شهريا ابتداء من يناير ١٩٤٠.

فقد أراد إذن اتمام عمل سيد قطب الأول وتطوير الإصلاح الديني منذ الأفغانى والكواكبي وإقبال والمودودي بعد أن خبا على يد محمد عبده ورشيد رضا وارتفاعه من جديد على يد حسن البنا. وذلك "بعد فشل مناهج التحديث العلمانية منذ فجر نهضتنا الحديثة"^(٣٣).

ولم يكن تحول سيد قطب من اليسار إلى اليمين تحولا فردياً في التاريخ الثقافي والسياسي المصري المعاصر فقد ازدهرت هذه التحولات في السبعينيات من

هذا القرن على يد خالد محمد خالد ومحمد عمارة وعادل حسين وأنور عبد الملك ومصطفى محمود وغيرهم من كبار المثقفين.

وفي عام ١٩٨١ أصدر د. حسن حنفي "اليسار الإسلامي" وفي ١٩٨٨ كان قد نشر تحت عنوان "من العقيدة إلى الثورة" (خمسة مجلدات) التطوير النظري لبيانه "التراث والتجديد" (١٩٨٠).

وليس "التجديد" مشروعاً جديداً ابتكره حسن حنفي بل هو قديم قدم "الإسلام" نفسه.

فقد "أخرج أبو داود في سننه والحسن بن سفيان في مسنده، والبخاري والطبراني في الأوسط، وابن عدي في مقدمة الكامل، والحاكم في المستدرک وصححه، وأبو نعيم، والبيهقي في المدخل عن طريق أبن وهب، عن سعيد بن أبي أيوب، عن شراحيل بن يزيد المعافري، عن أبي علقمة عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها. اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح"^(٣٤). إذن أقر النبي (ص) بالمبدأ. فجدد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي والشافعي وابن سريج وأبو سهل الصعلوتي وأبو الحسن الأشعري والباقلاني وغيرهم من مجددى الإسلام.

وفي كتابي "التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة لجلال الدين السيوطي" و "بغية المقتدين، ومنحة المجددين على تحفة المهتدين، للمراغي الجرجاوى" تحديد لفكرة التجديد للدين إلى حد أن نظمت كما نظمت "متون العلوم". فنظم السيوطي، بالإضافة إلى "التنبئة"، كتاب "تحفة المهتدين في بيان أسماء المجددين".

وكان السيوطي قد مات في أوائل القرن العاشر الهجرى "بعد ما بين" المجتهدين إلى عصره، ولكن الفكرة في تجديد الدين، وبعث مجدد على رأس كل مائة ظلت موجودة متناقلة"^(٣٥). فجاء كثيرون من بعده ليكملوا هذا البيان الذى بدأ مبكراً منذ حوالى القرن الثالث الهجرى.

والقدماء يعنون بذلك التجديد "إحياء السنة، وإماتة البدعة، أو إحياء ما اندرس، وما يشبه هذا التعبير"^(٣٦) والتطور بمعناه الاجتماعى الحديث. وقد ترى القدماء "ينزعون حيناً منزعاً عملياً، حين يحتفظون بأهمية التجديد فى الفقه، قانون الحياة العملية عندهم، فنراهم يرجحون اعتبار مجدد وعده، على اعتبار مجدد آخر وعده بأن المفضل فقيه يذود عن الفروع والمفضول متكلم يذود عن أصول العقائد، ونجد من مثال ذلك، ما فعله السبكي، فى طبقات الشافعية، عند مجدد المائة الثالثة،

وإثارة أن يكون مجدد هذه المائة، هو ابن سريج الفقيه الشافعي، لا أبو الحسن الأشعري المتكلم^(٣٧).

"إن بعضهم قد يفضل مجدد مائة على غيره لماله من دفاع عن أصول العقائد، لا عن الفروع الفقهية، كتفضيل ابن عساكر: أن يكون مجدد المائة الثالثة نفسها هو: أبو الحسن الأشعري "لا ابن سريج" لقيام الأشعري بنصرة السنة، والرد على المعتزلة، وسائر صنوف المبتدعة، والمضللة، فأما ابن سريج فكان فقيها مضطربا بعلم أصول الفقه وفروعه"^(٣٨). وهناك إذن اختلاف واضح بين المنزع العملي في التجديد الفقهي وبين المنزع النظري في تجديد العقائد.

إلا أن التجديد "يبلغ من الأهمية إلى حد أن يرفعوه، في بعضهم، إلى مرتبة النبوة، وتسمع مثل هذا التعبير، من بعض العلماء الأكابر، الجامعين بين علم الباطن والظاهر - على رأيهم - إذ يقول: لو كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم نبي لكان الغزالي، وأنه يحصل ثبوت معجزاته ببعض مصنفاته وهم يقولون، كما يقول السيوطي في آخر كتابه التبتة: في هذه الأمة، في كل مائة سنة، يموت الحكماء والعلماء، ثم يبعث الله على عدد الأنبياء حكماء فيردون الخلق إلى الله، وهم بمثابة أنبياء الزمان. واعتبار المجددين أنبياء حينا، وبمثابة الأنبياء حينا تؤيد جلال مهمتهم"^(٣٩).

وقد ربط الأقدمون التجديد بالاجتهاد وضرورته، وكثرة المجتهدين حتى يبلغوا عدد التواتر وعدم خلو العصر من مجتهد.

ولعل فكرة التجديد هذه، التي أشاد بها القدماء تلك الإشادة، وأفردوا لها المؤلفات قد راحت في العصر الحديث في المشرق، في الجزيرة العربية (المحاولة الوهابية) وفي الهند وفي مصر على يد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده.

وفي بحثه "ابن رشد فقيها" وتبعاً لقانون القراءة الإسلامية المبنية على الفقه وتغليب علم الفقه على سائر العلوم والمعارف بما في ذلك الفلسفة يقرأ د. حسن حنفي ابن رشد قراءة فقهية لا تقتصر على "نهاية المجتهد وبداية المقتصد" لابن رشد بل ترى الفقه روحاً لمجموع أعمال وأفكار ابن رشد الفقهية الخالصة وغير الفقهية. وهو "تأويل يقوم على رصد اجتهادات القاضي لمعرفة الصواب في الحكم بين المتخاصمين، ومقارنة أدلة كل فريق. وقد تجلّى ذلك في مناهج الأدلة في المقارنة بين أدلة الأشاعرة وأدلة المعتزلة كي يعرف أى الفريقين أحق بالبرهان، وفي تهافت التهافت. للمقارنة بين أدلة الغزالي وأدلة الفلاسفة في محاولتهم فهم العقائد فهما فلسفياً خالصاً. كما تجلّت روح الفقيه الفيلسوف، ابن رشد فقيها، في



فصل المقال الذى يعرض فيه ابن رشد الصلة بين الحكمة والشريعة أى بين الفلسفة والدين فى صيغة فتوى^(٤٠). وبطبيعة الحال تكون للموروث فى قراءة ابن رشد الأولوية المطلقة على الوافد، الأولوية المطلقة على اختلاف وجهات النظر.

كذلك من خصائص القراءة الإسلامية - كما سبق أن أسلفنا - أن تقرأ ابن رشد فى ضوء الغزالى. فيؤكد عبد المجيد الصغير فى بحثه "إشكالية استمرار الدرس الفلسفى الرشدى حول أثر الغزالى فى المدرسة الرشدية بالمغرب" إن أبا الحجاج يوسف بن طملوس (توفى ٦٢٠ هـ) قد ألف كتاباً فى صناعة المنطق فيه استمرار للدرس الفلسفى الرشدى "بعد أن اصطبغ بصبغة غزالية واضحة!"^(٤١). وفى بحثه عن "الانكسار المراوغ للعقلانية: من ابن رشد إلى ابن خلدون" يؤكد د. علي مبروك أن الغزالى قد بدا "أكثر تسامحاً من ابن رشد"^(٤٢). وهو يميل إلى الاعتقاد فى أن آمال ابن رشد لم تؤت البتة وأن خطابه لم ينتج قط. وبالتالي فهو يدخل على خطاب ابن رشد من زاوية السؤال حول ابن رشد أو الحفر عند قبره من منطلق الاختلاف بين سياقين مختلفين للتفكير. ويرفض أن يكون التسلط قد أعاق إنتاج نصوص رشدية لاحقة على رحيل ابن رشد لأن العقلانية الأوروبية ارتبطت بالصراع مع التسلط ولم تتفصل عنه وبالتالي فليس التسلط هو الذى أعاق استمرار الرشدية فى مجال التداول الإسلامى. كذلك يضيف د. علي مبروك أن العقلانية الأوروبية الحديثة قد قطعت أصلاً مع ابن رشد من حيث أنه كان جزءاً لم يتجزأ من الفلسفة المدرسية الوسيطة. ولم يؤد حضور الرشدية فى الفلسفة المدرسية إلى حضورها فى العقلانية الأوروبية الحديثة.

ولا شك أن علم الفيزياء الأوروبى - على سبيل المثال لا الحصر - فى القرن السابع عشر الميلادى قد نشأ على معارضة فيزياء العصور الوسطى التى كانت تتخذ من أرسطو مصدر الإلهام الأساسى. ومنذ بكون تغيير معنى الاستقراء العلمى تغيراً تاماً عما كان عليه عند أرسطو. ومثال السببية خير مثال على ذلك. فالعلماء المحدثون يعتبرون أن القانون السببى ما هو إلا مقولة ثانوية تأتي فى المرتبة الثانية بعد القانون. وكان العلم الحديث الوليد يتصارع بين أطروحتين لتفسيره: الأطروحة العقلانية والأطروحة التجريبية، ولم تنشأ الفلسفة الحديثة الجديدة فقط على التجربة والامتحان والمشاهدة كما يذهب فرح أنطون فى كتابه "ابن رشد وفلسفته". بل كان هنالك صراع بين أطروحتين اثنتين، وأما الأطروحة التجريبية فقد واكبت تطور العلم الإمبريقي، وأما الأطروحة العقلانية فقد ارتبطت بتطوير أدوات الإجراء الرياضى. وهو التطوير الذى لم يكن ممكناً بدون تجديد الميتافيزيقا من جانب آخر. وهكذا فقد أصبح العالم المحسوس أو التجربة عالماً

ممتداً فى الصور والأشكال والحركات، ولم يصبح تجريبياً خالصاً، بل أصبح الامتداد قابلاً لأن يوضع فى قالب رياضى بينما ظلت التجربة غير موجودة من زوايا البناء العلمى بل أصبحت معدومة اصلاً فى ذلك البناء.

وغالبا ما نخلط بين مشكلتين، وأما المشكلة الأولى فهى المشكلة التاريخية التى تخص تكوين أو نشأة العلم. هل نشأ العلم الحديث الأوروبى من التجربة والامتحان والملاحظة أم على أساس علم الرياضيات والهندسة على وجه الخصوص؟ وأما المشكلة الثانية فهى مشكلة قيمة العلم. هل الأهم هو نمط التفسير أم الارتباط بواقع الطبيعة؟ ما التفسير فى منظور جاليليو وفى علمه الفلكى الكونبريكى؟ ما موقع الهندسة؟ ما وضعها وما دورها؟ وفى منهج جاليليو ما الأهم: الرياضيات أم التجربة والامتحان والملاحظة؟

وقد تمت الإجابة على هذه الأسئلة فى الإستمولوجيات المعاصرة. والتفسير الذى يقدمه فرح أنطون هو التفسير التجريبى الذى صاغه من قبل جون ستوارت ميل. أما أنا فأميل إلى الإستمولوجيات العقلانية المعاصرة فى تفسير نشأة وتطور العلم الأوروبى الحديث.

وإذا كان صحيحا كما يقول د. على مبروك أن العقلانية الحديثة الأوروبية قد تجاوزت وحطمت الأرسطية التجريبية فإن هذا لا يعنى على الإطلاق أنها حطمت فى الوقت نفسه التراث الرشدى. فالسؤال هنا لا يخص قيمة العلم إنما يخص الصلة التى تربط العلم بالميتافيزيقا، أى النتائج التى استخلصها ابن رشد من العلم إلى الميتافيزيقا وعلى وجه التحديد التأويل العقلى للنصوص الدينية.

وأكرر أن الفلسفة الحديثة الأوروبية قد أعادت النظر فى النموذج الأرسطى فى العلم. إلا أن الميتافيزيقا الأرسطية امتزجت بالمسيحية العقلية فى العصر الحديث عند العديد من الفلاسفة.

لا بد إذن من التفريق بين مشاكل العلم الذاتية (ما المقاييس التى نقيس بها نظرية معينة؟ هل المقياس هو الخبرة أم أن هناك معيارا آخر؟ ماذا يعنى التصحيح الإمبريقى للنظريات؟ هل تحررنا النظرية العلمية من التجربة أم تقدم لنا عنه صورة معينة؟) وبين مشاكل الصلة التى تربط العلم بالميتافيزيقا. وعلى هذا فقد أعادت الفلسفة الأوروبية الحديثة النظر فى النموذج الأرسطى فى العلم. لكن الميتافيزيقا الأرسطية قد استمرت إلى اليوم على نحو من الأنحاء، والصلة التى تربط العلم بالميتافيزيقا هى الصلة التى تربط مجموع عناصر الفكر والإشكال العربى المعاصر.

وما يرفضه د. علي مبروك في بحثه ليس البرهان أو العلم إنما هو على وجه الدقة الانتقال من العلم إلى الميتافيزيقا، أى أنه - رغم إعلانه المسبق عن ضرورة التأويل - يغلب النص على قارئ النص ويضع تأويل ابن رشد في إطار التثبيت الأشعري لسلطة النص، وهو ما يتسق مع قراءته في ضوء الغزالي تماما. يثبت د. علي مبروك سلطة النص كأصل لا سبيل إلا إلى احتذائه وتكراره، ويرفض تجاوزه أو تحويله إلى بناء العالم، فابن رشد عند د. علي مبروك أشعري يعلى من شأن النص ويخفض قيمة العقل. وهكذا انكسرت العقلانية في ديار الإسلام حسبما يعبر د. علي مبروك على نحو كاد يكون تاما، وهو كاد يكون تاما لأن ابن رشد استعمل بعض أساليب المراوغة والسلطة القائمة.

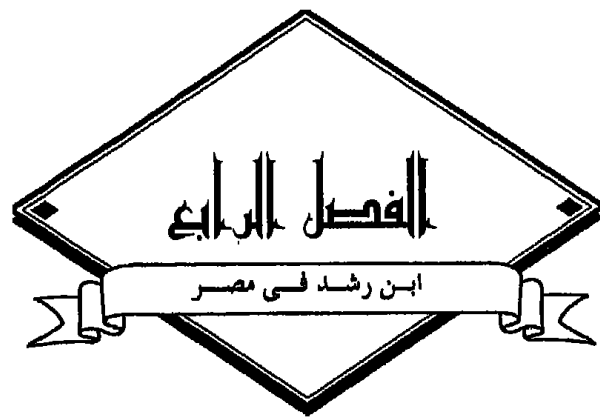
وعلى عكس ما يُصرح به القائمون على عدد مجلة ألف (١٦، ١٩٩٦) من أن الغرض من العدد الخاص "بابن رشد والتراث العقلاني في الشرق والغرب" ليس توظيف ابن رشد لوجهة نظر محددة فإن الاتجاه العام - أقول الاتجاه العام وليس كل الدراسات - للعدد هو أدلجة ابن رشد إسلاميا أو غزاليا أو أشعريا.

ودراسة د. زينب محمود الخضيرى ود. عبد المجيد الصغير ود. علي مبروك ود. حسن حنفي خير دليل وتمثيل على ما أذهب إليه.

هوامش :

- (١) حوار حول ابن رشد، المحرر: مراد وهبة، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ١٩٩٥، ص ٣٠-٣١.
- (٢) المرجع السابق، ص ٣٦
- (٣) المرجع السابق، ص ١١٠
- (٤) المرجع السابق، ص ١٥٤
- (٥) المرجع السابق، ص ١٦٠
- (٦) المرجع السابق، ص ١٦٤.
- (٧) المرجع السابق، ص ١٧٠ انظر أيضاً: د. فيصل بدير عون، الفلسفة الإسلامية في المشرق، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨٢
- (٨) المرجع السابق، ص ١٧١
- (٩) المرجع السابق، ص ١٨٠
- (١٠) المرجع السابق، ص ٢٠٠
- (١١) المرجع السابق
- (١٢) الفيلسوف ابن رشد مفكراً عربياً ورائداً للاتجاه العقلي، إشراف وتصدير د. عاطف العراقي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٣، ص ١٢٠
- (١٣) المرجع السابق، ص ١٣٠
- (١٤) المرجع السابق، ص ١٤٩
- (١٥) المرجع السابق، ص ١٤٥
- (١٦) المرجع السابق، ص ١٥٠
- (١٧) المرجع السابق، ص ١٥١
- (١٧ب) حوار حول ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦
- (١٨) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧
- (١٩) ابن رشد، تلخيص كتاب البرهان، تحقيق د. محمود قاسم ود. تشارلس بترورث ود. أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص ١٨٠.
- (٢٠) ألف، مجلة البلاغة المقارنة، القاهرة، العدد ١٦، ١٩٩٦، ص ٣٦

- (٢١) المرجع السابق، ص ٤٢
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٤٢-٤٣
- (٢٣) المرجع السابق، ص ٤٣
- (٢٤) ابن رشد، فلسفة ابن رشد، ١- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٧٨، ص ١٦
- (٢٥) ألف، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣
- (٢٦) ابن رشد والتتوير، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٧
- (٢٧) على حرب، النص والحقيقة I، نقد النص، المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٣، ص ٣٩-٤٠
- (٢٨) المرجع السابق، ص ٤٠-٤١
- (٢٩) المرجع السابق، ص ٤٥
- (٣٠) المرجع السابق، ص ٥١
- (٣١) المرجع السابق، ص ٥٢
- (٣٢) د. حسن حنفي، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، ٦، الأصولية الإسلامية، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٢٠٨
- (٣٣) المرجع السابق، ص ٢٠٩
- (٣٤) أمين الخولي، الأعمال الكاملة، ٧، المجددون في الإسلام، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٦٧
- (٣٥) المرجع السابق، ص ٥
- (٣٦) المرجع السابق، ص ١٢
- (٣٧) المرجع السابق، ص ١٢-١٣
- (٣٨) المرجع السابق
- (٣٩) المرجع السابق، ص ١٤
- (٤٠) ألف، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦
- (٤١) المرجع السابق، ص ٧٧
- المرجع السابق، ص ١٠٩، هامش ٣٤ انظر أيضا كتاب د. على مبروك، النبوة، من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ، محاولة في إعادة بناء العقائد، ١٩٩٧.



التناول العربي

نعنى بالقراءة العربية لابن رشد القراءة التى تتحكم فى الكتاب التذكارى الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى ونشره المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٣. وهى القراءة التى سبق أن قدمها قبل عقد التسعينيات فى "النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد" (ط١، ١٩٦٨) وفى "المنهج النقدى فى فلسفة ابن رشد" (ط٢، ١٩٨٤). وكان د. عاطف العراقى قد اشترك قبل ذلك فى إعداد كتيب عن ابن رشد بمناسبة مؤتمر ابن رشد فى الجزائر (١٩٧٨م) مع "أستاذة" د. زكى نجيب محمود، على حد تعبيره، وهكذا وقبل أن نخوض فى تفاصيل هذه القراءة الرشدية لابد أن نتوقف عند د. زكى نجيب محمود الذى يبدو - وفقاً لعبارة د. عاطف العراقى - أحد مؤسسى هذه القراءة بالذات وأحد صائغى المعادلة "الوسطية" العربية المعاصرة.

يبدل المرء حين يتفلسف جهداً نفسياً وعقلياً كبيراً فى سبيل أن يتوصل إلى فهم معين للزمن الذى يعيش فيه وللعصر الذى يحياه مهما تجرد عن السياق التاريخى لتفكيره وهو لا يستطيع أن يبنى قوالبه إلا ضمن الإطار المعرفى لعصره والسياق الاجتماعى الذى يحده من كل جانب، ومهما تكن توجهاته فعليه أن يجيب بوضوح تقريبي عن جملة من الأسئلة التى يطرحها عليه عصره وتعبّر عنها صيحات احتجاجه.

لذلك لا أظن ممكناً أن ننظر إلى إضافات زكى نجيب محمود بغير أن نسلم فى مقدمة الحديث أننا فيما نقول نستند عن عمد أو عن لاوعى إلى آخر ما توصل إليه عصرنا من تشكلات فى الواقع والفكر معاً. ويتميز عصرنا - فيما أظن - بشعور كاسح بزوال اليوتوبيا. وأقصد بما أسميه "اليوتوبيا" مدينة الأحلام التى رسمتها عقول قادة عبر التاريخ لتجاوز الحياة كما تجرى من حولنا، فيصور كبار المفكرين للناس ما يتمنونه للإنسانية. وكانت نقطة البدء فى مسيرة اليوتوبيا جمهورية أفلاطون أو سياسة أفلاطون التى رسم فيها ذلك الفيلسوف اليونانى العظيم صورة للدولة "المثلى" كما رآها. ثم تسلسلت المؤلفات الطوباوية التى اختارتها العقول القوية القديرة لحل متناقضات الحياة التى ثقلت رعاها على صدر الشعوب. فجاء بعد أفلاطون، توماس مور فى يوتوبيا وميكافيللى فى الأمير وفرنسيس بيكون فى أطلنطس الجديدة ووليم مورس فى جنة أرضية وصموئيل بتلر فى بلد لا وجود له و هـ . ج. ولز فى يوتوبيا حديثة والفارابى فى آراء أهل المدينة الفاضلة وماركس فيما قال عن المجتمع غير الطبقي.

أظن إذن أن عصرنا يتميز بشعور كاسح بزوال اليوتوبيا سواء أكانت "مدينة جديدة" أو "جزيرة جديدة" أو "أرض جديدة" أو "مجتمع جديد"، وحسبنا أن نلاحظ بأن الحالمين في عصرنا قد أراحوا فكرة الممكن من طريقهم.

لكن عصرنا بنى على نقائض ثلثي في جوف واحد ليحد بعضها من سطوة بعضها الآخر، فتمحى المعالم ويتعذر وصف عصرنا بسمة معينة تميزه بصورة قاطعة لا تجد إلى جوارها النقيض الذى ينفىها، فانظر تجد مقابل زوال اليوتوبيا مولد نظريات علمية وفكرية وفلسفية عديدة قوامها نقد الحقيقة الأبدية وتحطيم الفكر النهائى فضلا عن صعود المقولات الجزئية مكان المقولات الكلية ونشأة المصطلحات المؤقتة التى كانت ولا زالت تصدم المزاج الطبيعى للنفس البشرية الذى يتمثل فى الميل نحو الوحدة والشمول والعموم فى النظر إلى العالم. بل وأصبح الفكر يتعمق لا بالتجريد الأبدى وإنما بالسياق أو بالشرط المحلى لصياغته.

إذن هناك تياران متعارضان فى عصرنا. أما محور التيار الأول فهو زوال اليوتوبيا، أى زوال الممكن أو الحلم. وأما التيار الثانى فهو الصياغات الفكرية الجديدة لمفهوم الممكن والاحتمال وغيره من مصطلحات تعيد النظر تماماً فى مختلف النظريات الحتمية. لذلك لم يتمزق عصرنا تمزيقاً نهائياً، وإنما جاءت محوريته الكبرى لتحل محل فكرة الحتمية التى كانت لها السيادة ثم استهلكت واستنفدت أغراضها وظهرت للناس حاجات جديدة استحدثتها التجارب التاريخية الأخيرة. فالفكرة المحورية التى تدور حولها اهتمامات عصرنا هذا وهمومه إنما هى فكرة الممكن أو الإمكان.

ومما لا شك فيه أن فكر زكى نجيب محمود دار حول تحطيم المطلقات. ولم يكن نقده للميتافيزيقا سواء أكان هذا النقد حاداً (خرافة الميتافيزيقا) أو توفيقياً (موقف من الميتافيزيقا) فى معزل تام عن وضع الحداثة الغربية نفسها موضع سؤال. ويكاد يكون عنوان الفكر بعد الميتافيزيقى (١٩٩٣) ليورجى هابير ماس العنوان الأعم لفكر زكى نجيب محمود وتساؤل الحداثة الغربية عن نفسها على السواء. ومهما يكن بينهما من اختلاف فكلاهما يبحث عن تأسيس فلسفى لمشروعية التنوير الأوروبى وعن البرهان الجديد على صحة أو زيف العقلانية.

ومن هنا لم يتطرق زكى نجيب محمود إلى مجموعة من الأسئلة التى تؤرق العقل العربى منذ زمن وهى: ماذا يعنى أن الواقع العربى الإسلامى المتداخل

والمتصارع مع العالم يستطيع أن يفرز فلسفات مختلفة تمام الاختلاف عن التراث الغربى الحديث والحداثة الغربية المعاصرة؟ ماذا يعنى أن يكون نحت المفاهيم الفلسفية فى هذا الواقع يخضع إلى آليات خاصة؟ وما طبيعة هذه الآليات وحدودها؟ وباختصار لم يتطرق زكى نجيب محمود إلى مشكلة امتلاك الزمن العربى المعاصر لفلسفة تعبر عنه وعن غيره من الأزمنة ولم يتساءل عن شروطها الخارجية والداخلية فضلاً عن ضبط الفروض التاريخية والمعرفية. وسلم بأن الفلسفة تتحدث بلغة دون سواها من اللغات الحية والميتة، وإن صاغ - فيما أظن - أجمل لغة فلسفية عربية فى القرن العشرين وتقمص دور أبى حيان التوحيدي فى تجديد الفكر العربى ^(١) إلا أنه لم يواصل الصراع مع الفقه السنى ولم ينقد ميتافيزيقا الأنظمة العربية الراهنة واللاحقة التى تعتبر الحقيقة من وحيها والفضيلة من إخراجها.

وأقصد أن نقد زكى نجيب محمود لم يكتمل لعدة أسباب، صحيح أن الفلسفة تتميز بطاقة توليد المفاهيم والمصطلحات التى يوظفها الفيلسوف لصالح التفكير أولخدمة تدمير المفاهيم والمصطلحات السابقة والسائدة، وبالتالي فالتفكير أو التدمير ليست خاصية من خصائص فلسفة الوضعية المنطقية التى ناصرها زكى نجيب محمود وإنما ساهم فى ترسيخها هايدجر وديريدا، وأضحت سمة من سمات العقل النقدى منذ بداية ما ندعوه بأزمة الوعى الأوروبى (بول هازار) التى جعلت التفكير صفة من الصفات الضرورية لفعل التفكير الفلسفى نفسه بغض النظر عن التيار الذى يلتزم به الفيلسوف.

وفى سياق التدمير الشامل للفلسفة فى معناها المؤلف وليس التدمير الشامل للدين دعا الكثيرون وليس زكى نجيب محمود وحده إلى إحلال العلوم محل الفلسفة. ورغما عن أن ميشيل فوكو ليس وضعياً كما هو معروف فقد دعا على سبيل المثال إلى وضع "العلوم الإنسانية" مكان الفلسفة. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن تحرر العلوم سواء أكانت إنسانية أو طبيعية عن الفلسفة، لا يعنى أن العلوم جميعاً قد أصبحت خالية تماماً من الفلسفة.

وما أود أن أشير إليه هنا هو أن نقد زكى نجيب محمود للميتافيزيقا لم يكن نقداً للدين كما تصور البعض وإنما كان نقداً للفلسفة أو لنمط من أنماط الفلسفة الشائعة والسائدة ألا وهو الميتافيزيقا. غير أنه نشر كتاباً سنة ١٩٥٣، أسماه إذ ذاك خرافة الميتافيزيقا وغضب الكثيرون "على ظن منهم أنه مادام الكتاب ينفى أن يكون

فيلسوف الميتافيزيقا محققاً في جعل بنائه الفكري مطابقاً بالضرورة لدنيا الواقع، فكان الكتاب المذكور ينفي أيضاً أن تكون العقيدة الدينية في إله موجود محقة فيما ذهبت إليه" (مكرر) كما يقول زكي نجيب محمود. ومن هنا راح يفرق بين الفلسفة وبين الدين ويقارن بينهما.

يقول :

"إن الفيلسوف إذ يبني بناء الميتافيزيقي، فإنما يقيمه على مبدأ من عنده وأن أى فيلسوف آخر من حقه كذلك أن يقيم بناء آخر على مبدأ من عنده، وبذلك تتعدد البناءات الفلسفية بتعدد أصحابها. وأما في حالة الدين فالأمر مختلف أشد ما يكون الاختلاف، لأن البناء الديني قائم على وحى منزل. وليس من حق أحد آخر أن يبني ديناً على شيء آخر من عنده هو، اللهم إلا إذا كان خارجاً عن هذا الدين، وعندئذ لا يحسب له حساب، فبينما تتعدد البناءات الفلسفية بتعدد الفلاسفة. يظل البناء الديني واحداً لوحداية الموحى به والموصى إليه"^(٣).

والمغالطة الأصلية هنا التاريخية والمعرفية التي وقع فيها زكي نجيب محمود هي منهجية المقارنة نفسها التي تتعارض مع جانب آخر من جوانب تفكيره وهو فرضية أن "لكل مجال" من مجالات القول "معياره الخاص"^(٤). المغالطة إذن هي افتراض التشابه الأصلي بين مختلف مجالات القول . وهي المغالطة التي أسست مشكلة التوفيق بين الفلسفة وبين الدين على مدى التاريخ الفلسفي العربي منذ مزاج ابن طفيل في حى بن يقطان وليست المشكلة في تصوري أن ندمج الفلسفة في الدين أو أن على العكس من ذلك أن نفصل الفلسفة عن الدين وإنما المشكلة الحقيقية هي أن نقيم معياراً خاصاً تستند إليه الفلسفة في مقاربتها للدين.

ومن جانب آخر يقوم نقد زكي نجيب محمود على مغالطة منطقية قوامها أن تكون الميتافيزيقا متهمة بأنها ميتافيزيقا. وأقصد نقده للميتافيزيقا باعتبارها مجالا يفوق الحس. يقع زكي نجيب محمود وغيره من الفلاسفة في المصادرة على المطلوب والتي هي عبارة عن أخذ المطلوب مقدمة لبيان نفسه، وذلك مع تبديل اللفظ بما يرادفه، كما لو كان المطلوب: كل الميتافيزيقا فارغة، فقلت كل الميتافيزيقا غير حسية وكل ما هو غير حسى فارغ، فإنه، وإن أنتج: كل الميتافيزيقا فارغة، فليس عين المطلوب عين الميتافيزيقا، أى مجرد تعريف اللفظة أو استبدالها بلفظة مرادفة، فما جدوى أن نقول إن الميتافيزيقا مجال ما بعد الطبيعة يفوق التجربة

الحسية سوى تفصيل اللفظة نفسها والميتافيزيقا كلام فارغ لا يكذب ولا يصدق لأنه كلام لا يشتقه المرء من التجربة. يقول زكي نجيب محمود إن كل عبارة ميتافيزيقية غير محسوسة إنما هي غير ذات معنى لأنها "مشتتة على كلمة أو كلمات لم يتفق الناس على أن يكون لها مدلول بين الأشياء المحسوسة"^(٥).

تلك ناحية أساسية من ضعف نقد زكي نجيب محمود للميتافيزيقا، والناحية الأخرى أن هذا النقد لم يتكامل مع بقية عناصر النقد في المفهوم الفلسفي، وقد اقتصر النقد عنده على نقد الوهم الميتافيزيقي، ولم يتجاوز به إلى نقد الوحي ونقد الاتجار بالدين ونقد البنية الفوقية المثالية ونقد الوهم الأخلاقي ونقد الشفافية بالإضافة لنقد الوهم الطبيعي ونقد الوهم الخاص. بل عزل منهجه الفكري تماماً عن مجال الدين فصار مصدر الدين وحيّاً يوحى إلى نبي أو رسول وإن سلم بأن "في الدين إما أن يصدق المتلقى ما يقال له وإما أن يرتاب، أعنى أنه إما أن يؤمن بالرسالة وإما ألا يؤمن بها"^(٦). ففي نهاية التحليل تبقى المنظومة الدينية "ركيزة إيجابية - بل أهم الركائز الإيجابية جميعاً - فتضاف إلى ما عند الناس من علوم وفنون وآداب وأعراف وتقاليد وغير ذلك من مقومات المجتمع"^(٧).

وهكذا لم يكن زكي نجيب محمود في كل ما قاله عن الدين عالماً ناظراً نظرة نقدية فلسفية. وهو في هذا يفكر بطريقة فلاسفة الوضعية المنطقية نفسها الذين لم يكونوا ملاحدة وكانوا فضلاً عن ذلك "مثاليين" في العديد من القضايا الفلسفية الخاصة بفلسفة العلوم. إذ لم يكن جميع أعضاء جماعة دائرة فيينا من الملتزمين بالتأويل الواحد لخط الفلسفة الوضعية. والتناقض بين الوضعية وبين المثالية وورد عند زكي نجيب محمود نفسه في فلسفته السياسية والاجتماعية.

وليس المقصود من النظرة النقدية الفلسفية الشاملة أن نضفي المطلق وإنما تعنى إقامة مقارنة نسبية ترسم حدود المطلق في نسق أشمل وأعم يؤسس العقل النقدي العربي من جديد. وتأسيس العقل النقدي العربي لا يعنى تأريخ مساراته المختلفة والطويلة بل وربما المهمة كما حاول طيب تزيني في الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى وعابد الجابري في بنية العقل العربي وتكوينه ومحمد أركون في تاريخية الفكر العربي الإسلامي.

وما نحن في حاجة ماسة إليه ليس التأريخ وإنما تأسيس العقل النقدي العربي. وفي التسعينيات، راح زكي نجيب محمود يقترب من عملية التأسيس هذه

ضمن تجديد الفكر العربى، لكنه لم يتجاوز حدود الدمج بين الشروق من الغرب وبين الشروق من الشرق فى كيان واحد موحد، فمن التراث العربى الإسلامى ما لابد أن يبقى ليضمن للعربى استمرارية تاريخية فى حياته الثقافية، وهى استمرارية ضرورية لتظل للعربى هويته فى جوهرها. ومن علوم الغرب الطبيعية والمناهج الجديدة ما يمكن أن نتقدم به نحن، فى مصر والوطن العربى. أقول إذن إن زكى نجيب محمود لم يتجاوز حدود الموقف "الوسطى" الذى هو النقيض المستقيم لروح العقل النقدى، وهو يكتب يقول:

"على الجانبين جماعتان تقفان إحداهما من الأخرى على طرفى نقيض: إحداهما تغترف من تاريخها، والأخرى تغترف من أوعية الغرباء، والأولى ترى طريق النهوض فى استرجاع الماضى، والثانية تطرح ماضيها وراء ظهرها مشدودة البصر نحو مستقبل جديد يولد، الأولون يحسبون على "اليمن" الذى يؤثر استنابات ثقافته وحضارته من تربته، والآخرون يحسبون على "اليسار" الذى يقبل شجرة الثقافة والحضارة مأخوذة من خارج حدوده لتُشتمل فى أرضه، والحق أن صاحبنا - كما يقول د. زكى نجيب محمود - وهو يقلب النظر فى هذه المواقف لم يستطع أن يرى أملاً فى أى من الجناحين، فالميمنة كما رآها، قمينة بأن تغفلت منها قوة العصر، والمميرة - كما رآها أيضاً - قد تستتبع أن يفقد المواطن قوة تاريخه، وأما موطن الرجاء فيما تصور، فهو ذلك الوسط الذى تجمعت فيه جماعة الكتاب الكبار جميعاً" (٨).

ومن أبعاد الفرق بين روح العقل النقدى وبين روح الموقف الوسطى الذى يقفه زكى نجيب محمود أن النقد الفكرى عنده إنما هو نقد لغوى لإبطال المقولات النظرية نفسها. ومن المؤكد أن زكى نجيب محمود كان على يقين منذ أواخر الأربعينيات بأن الحياة الفكرية العربية بحاجة إلى مراجعة تتناولها من الأساس، إلا أن دعوته للانتقال من عصر فكرى عربى قديم إلى عصر آخر لم تصل بين النقد إلا اللغوى وبين نقد التصورات الكلية العقلية؛ وصارت الثورة الفكرية فى نظره ثوره من أجل "التدقيق" اللغوى و"التوضيح" اللغوى. فمن اللغة تبدأ ثورة التجديد الفكرى، وهو إذ يقول: "لست أتصور لأمة من الأمم ثورة فكرية كاسحة للرواسب، إلا أن تكون بدايتها نظرة عميقة عريضة تراجع بها اللغة وطرائق استخدامها، لأن

اللغة هي الفكر، ومحال أن يتغير هذا بغير تلك^(٩). لذلك حين نهض العرب من ظلام الجاهلية ظهر الكتاب الكريم وحين أرادت أوروبا أن تنهض من ظلام العصور الوسطى رفعت لواء " اللغة الواضحة"^(١٠). إذن البحث في فلسفة اللغة إنما هو بحث حاسم ليكون البحث عن صيغة فكرية عربية جديدة ركنا ركيناً لأي تفكير عربي جديد، تطوير الفكر العربي مرهون بتطوير اللغة العربية، والثورة الفكرية العربية مستحيلة بغير معاودة النظر في اللغة العربية السائدة. لكن هل يمكن أن يرتج ببيان الفكر الفلسفي العربي لمجرد تجديد معاني اللغة وتراكيبها؟ أظن أن عباس محمود العقاد كان على حق مبين حينما رأى في زكي نجيب محمود أديباً للفلسفة، ذلك أن تجديد الفكر العربي عنده إنما في جوهره تجديد أدبي يعيد ترتيب أو يعيد تنظيم أو يعيد بناء الصورة أو الشكل الفكري. وهو حين ينقد مفارقة اللغة العربية لهذا العالم فإنما يقصد اللغة العربية لهذا العالم فإنما يقصد اللغة الأدبية لا اللغة الفكرية. إذ يقول وإذا أراد العربي " تقويم قطعة أدبية فذلك إنما يكون بالنظر في ألفاظها وتركيب تلك الألفاظ قبل أن يكون بالبحث عن المضمون وما يستثير فيه من أضواء وظلال"^(١١).

ومن الضروري حقاً أن ننقل بلغتنا العربية من مرتبة الجمال وجرس الألفاظ الفاتنة إلى حصيلة فكرية عربية جديدة نسهم بها في عالمنا الصخّاب بمذاهبه ودعاواه. من الضروري أن نتحول من اللفظ الجميل إلى اللفظ الدال، من جرس اللفظ إلى مدلوله. إلا أن التحول اللغوي شرط ضروري للتحول الفكري لكنه لا يرقى إلى أن يكون مدار التحول الفكري العربي المعاصر في عمومته. أما هذا المدار ففي ظني أنه يتجاوز الحدود الضيقة لسلامة الشكل إلى المضامين الفكرية نفسها بكل ما تحويه من مقولات ومصطلحات ومفاهيم راسخة لا بد من إعادة النظر فيها جملة وتفصيلاً، شكلاً ومضموناً، هذا وإلا فسوف يبقى الشعر إلى فترة مقبلة طويلة الفضيلة العربية التاريخية الوحيدة وسوف تبقى في دنيا الفكر مختلفين.

ولا يعني كل ما أسلفناه من نقد أن زكي نجيب محمود ليس فيلسوفاً وإنما جاءت إضافاته الجديدة في ميدان الفلسفة العربية المعاصرة محدودة منذ عقد الخمسينيات على وجه التقريب بحدود مازالت تعرقل مسيرة العقل النقدي وتتحدر

"بنقد الفكر" إلى حضيض المحاق. كان زكى نجيب الثقافية محمود واعياً تمام الوعى بأن "نقد الفكر لم يعرف قط طريقه إلى حياتنا الثقافية" (١٢). عرفت حياتنا نقداً اسمه النقد النقد الأدبى لكنها لم تعرف "نقد الفكر" إلى الآن وذلك لسبب جوهري وهو أن الفكر العربى بنى معظمه على مقدمة أو مقدمات يحيط بها شيء من التقديس أو من التوقير بحيث لم يتيسر للمفكر العربى أن يشكك فيها بحرية أو يرفضها بحرية. وقد لازم زكى نجيب محمود هذا الأمر، أى حتمية المرجعية الدينية منذ زمن بعيد وليس كما يصرح فى فترة متأخرة (١٣).

كان قد أتيح لزكى نجيب محمود منذ أول موضوع خطه قلمه سنة ١٩٢٧ (أو ١٩٢٨) وهو لا يزال طالباً فرصة مكنته من الارتباط المبكر "بالمقدمات الدينية" للفكر. كان أول موضوع خطه قلمه "محاولة لتحليل شخصية الخليفة أبى بكر الصديق، بقصد الوصول إلى ذلك الجوهر فى شخصيته" (١٤).

وما حدث له أو ما أراد لنفسه هو التعديل المستمر على تعاقب المراحل فى موقفه من الدين والتراث. ولم يكن تجديد الفكر العربى (١٩٧١) إلا علامة على تحول جديد فى الموقف من الدين والتراث. على أنه لم يتحول قط إلى تطبيق التحليل المنطقى على النصوص الدينية، ولو فعل لوجد الكثير من الأفكار الجديدة. إذ يقول جاك بيرك:

هذا العمل [أى التحليل المنطقى للقرآن] لم يقم به أحد حتى الآن بالإضافة لمقاربات أخرى يشير إليه بحثى إن جاز التعبير من جميع الجوانب. ولماذا ندهش؟ فالعرض القرآنى المرتبط بمفهومى البيان والتفصيل والذين يتضمنان "التعبيرية" و "التمفصل" أقول إن العرض القرآنى يجاوز حقاً العلوم التى عادة ما تطبق عليه، أى أن الدراسة المعجمية والنحوية، بل والخطابية، لا تكفى. فحتى عالم كالزمخشري التزم أغلب الوقت بحاشية المفردات وأبعد ما وصل إليه هو مجموعات المفردات. وما أندر هؤلاء الذين يهتمون من المفسرين المعاصرين بتعليل ترابط الآيات فيما بينها (ت.ب. عاشور) أو بتعليل آثارها الأسلوبية حينما تنتظمها جداول (سيد قطب). وفى الحالتين، يبقى التقويم؛ وإن قاما على فهم عظيم

للغة، على شيء من الذاتية، وفيما يختص بالاستشراق ورغما عن بعض المقاربات السميوطيقية^(١٥) فالاستشراق لم يحدد البور المركزية — فيما نعلم — لا من ناحية التصنيف ولا من ناحية النظام.

وسوف نظل إذن محصورين في حدود التقريب حول مواضيع هي في نظرنا مواضيع جوهرية ما لم يأت التحليل المنطقي الحديث الذي من وظيفته على سبيل المثال أن يقيم تحويلات إلى لغة كلغة بيانو المنطقية لتكمل على وجه الدقة الملاحظة الكيفية^(١٦).

والمقصود من التحليل المنطقي الحديث ما طرأ على علم المنطق من تحديث منذ نحو القرن من الزمن على وجه التقريب. إلا أن المؤلفين العرب المعاصرين غالباً ما يفتخرون إلى التمرس بأساليب المنطق الرياضي حتى يستطيعوا أن يستخلصوا النظريات الجديدة في مجال تطبيقه على مختلف نطاقات القول سواء أكان قولاً دينياً أو أخلاقياً أو ميتافيزيقياً أو مثالياً أو قومياً أو علمياً. زد على ذلك أن منطق أرسطو هو صاحب السيادة في الفلسفة العربية منذ أمد بعيد وأن بعض الفقهاء المسلمين أنكروا منفعة المنطق وحرّموا الاشتغال به^(١٧).

وكيف يطبق زكي نجيب محمود فلسفته المنطقية في مختلف علوم الدين وهو يستعير موقف الغزالي السلبي من المنطق. إذ لم يفت الغزالي أن يحذر من آفات قد تنجم من الرياضة والمنطق، " فقد تعجبنا الدقة العقلية التي نراها في الرياضة والمنطق، واليقين الذي ينتهيان إليه، فنتوهم أن هذا نموذج لجميع أقوال الفلاسفة مهما اختلفت موضوعاتها، وعندئذ نظن اليقين بما ليس من اليقين، بل قد يأخذنا الإعجاب بدقة الفلاسفة كما تتبدى في علومهم الرياضية والمنطقية، ثم يبلغنا عن بعضهم الكفر فنكفر معهم، إيماناً منا بأنهم أصحاب حق يقينى ودقة معصومة من الخطأ، ^(١٨) فوقف زكي نجيب محمود الموقف الشائع السائد القائل بأن المنطق خطر على سلامة العقيدة عند المؤمن. أو أقل إنه هذا الموقف ولم يصرح به تمام التصريح. وعلى أي حال فللسهروردي فتوى أفتى بها سائلاً سألته عن رأى الدين في الاشتغال بالمنطق تحصيلاً وتعليماً، فأجاب السهروردي قائلاً: " وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر. " وأما السيوطي فيحرم الاشتغال بالمنطق، قائلاً

عن نفسه: " كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئاً فى علم المنطق، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى، وسمعت أن ابن الصلاح السهروردى أفتى بتحريمه، فتركته لذلك". كما تصدى ابن تيمية للمنطق ورأى فيه خطراً على تقاليد الإسلام وشن عليه هجوماً عنيفاً، فى بعض مؤلفاته، ولا سيما فى كتابه الشهير "الرد على المنطقيين".

والأمر المهم فى سياق حديثى هذا عن طبيعة العلاقة بين فلسفة المنطق وبين الدين عند زكى نجيب محمود هو أن نلاحظ كيف أنه حين أخذ المنطق الرياضى الحديث من التراث الأوروبى المعاصر، لم يخطر بباله أن يطبقه على مختلف معطيات التراث الدينى القديم والحديث والمعاصر، إيماناً منه بأن لا شأن للرياضة والمنطق بالدين. فمن المعروف أن علوم الرياضة تنظر إلى الكم وينظر المنطق فى طرق الأدلة، مما لا يمس العقائد الدينية فى مضمونها، ودقة الرياضة والمنطق غير ملزمة فى نطاق العقائد الدينية. وكان مشكلة علاقة الإنسان بالله مشكلة كادت " تستقر فى نفوسنا على حلول نستقر عليها فى حياتنا السلوكية" (١٩) وأصبحت بلا أى بعد نظرى - منطقى - رياضى فى الوقت نفسه الذى ساد فيه علماء وفقهاء جعلوا دراسة الكتاب الكريم دراسة لفظية تعيد الرواية حفظاً، كما قال التوحيدى فى علماء عصره (٢٠).

وهكذا جعل زكى نجيب محمود الدين موكولاً إلى الإيمان والعلم موكولاً إلى العقل ودون أن يحاول لحظة أن يمد قوانين الفلسفة المنطقية التى ناصرها لتدخل فى شئون الدين، ولم يستطع على هذا أن يضيف إلى العقيدة الإسلامية أبعاداً فلسفية. بل امتزجت عنده العقلانية بموقف سلفى معتدل. فهو يقول:

" لو فركز على الجانب العقلانى من جهة، وعلى الجانب السلفى المعتدل من جهة أخرى، لاستطعنا بأولهما أن نواجه عصرنا وهو عصر العلوم القائمة على عقل صرف متكئين فى الوقت نفسه على أصول الشريعة الإسلامية والدراسات اللغوية والنحوية والفقهية التى هى قوام السلفى. على أن تكون هى السلفية التى تجعل للعقل نصيبه من التأوى كلما اقتضت الحاجة إلى تأويل، أقول إننا لو استطعنا الدمج بين هذين المحورين، لكان لنا بذلك أسس رفع الماضى فى أسس العلاقات

الإنسانية - علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله ومسايرة للعصر في علومه واتجاهاته الفكرية، لاسيما فيما يتصل بالاقتصاد والسياسة^(٢١).

وأغلب الظن أن سلفية زكي نجيب محمود إنما هي شكل محتواه الفلسفة المنطقية وما نطق به لسانه من اعتدال سلفي لا ينبئ - كما تصور البعض - عن اعتقاد الرجل في السلفية، لا لأنه مفكر مناقق وإنما لأن التراث العربي والإسلامي عنده لا يجاوز حدود الشكل الأمر الذي يجعل الفكر العربي القديم زينة تزددان بها مقولاته الحديثة ولعله قد ذهب في تمييزه بين الشكل التراثي وبين المحتوى الحديث إلى الحد الذي جعلنا نقول إنه في الظاهر من أنصار المعتزلة وفيما بطن وضعى منطقي. وهو يتظاهر في تجديد الفكر العربي بمناصرة مذهب المعتزلة ولا يعتقده على وجه اليقين، وإذا كشف اعتزاله، ظهر له ولنا مذهبه الغربي الأصلي المنطقي. فلو تمنطق في العقيدة لتزندق، كما يقولون. وليس زكي نجيب محمود سلفيا لسبب أساسي وهو أنه يرى أن " هذا التراث كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته، لأنه يدور أساساً على محور العلاقة بين الإنسان والله، على حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان"^(٢٢).

ومن ثم يرفض زكي نجيب محمود سلطان إشكالية الإنسان والله الماضية على إشكالية الإنسان والإنسان الحاضرة لأنه سلطان يصنع فكراً ميتاً لا فكراً حياً جديداً .

وأنى لأسلم كما يسلم الكثيرون غيري أن زكي نجيب محمود واحد من أعلام التجديد الفكري العربي منذ الطهطاوي إلى يومنا هذا، حاول بطريقته الخاصة أن يوفق بين التراث والعصر كما سبق أن حاول محمد عبده المحاولة نفسها وكما سبق أن حاول الكثيرون غيرهما من أمثال عباس محمود العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض الذين ينتمون جميعاً إلى جوهر الروح العربية الثنائي منذ تأسيس الإمام الشافعي للأيدولوجية الوسطية.

وبالرغم من أن العروبة تميل إلى طابع خاص من طبائع العالم الإسلامي القديم وبالرغم من أن العالم الإسلامي القديم كان يجمع بين أديان مختلفة في إطار شرعي إسلامي وتحت شعار لغوي وثقافي واحد هو اللغة العربية إلا أن الحقيقة

العربية أو الحادث العربى أو الواقع العربى إنما هو واقع لغوى لا يمكن اختزاله إلى مجال التداول العقدى. فقد عبر سوريون وإيرانيون وأندلسيون فى اللغة العربية، واستعمل مسلمون - مقتنعون أو غير مقتنعين - ويهود ومسيحيون بل ومفكرون أمثال الرازى - الذى لا ينتمى لأى من هذه الأديان - اللغة العربية. وتدل الأرضية اللغوية المشتركة على الخضوع المشترك لمنطق تعبير واحد، كما تدل على دخول مجال تداول ثقافى مشترك.

يقول د. عاطف العراقى بأنه يقرأ ابن رشد فى المقتضى العملى للمحدد اللغوى لمجال التداول، أى أنه فيلسوف عربى استعمل اللغة العربية ودخل فى تقويم عبارتها الفلسفية، لكنه سرعان ما يردده إلى المقتضى نفسه للمحدد العقدى لهذا المجال، أى أنه سرعان ما يردده إلى المحدد الإسلامى دون أن يقيس بالمحدد الثقافى العام لمجال التداول.

فهو يقول إن "الفلسفة العربية" تحتل مكانة بارزة فى تاريخ الفكر الفلسفى وإن "المؤلفين العرب" و "الفلاسفة العرب" و "الفلاسفة من العرب" أدوا دوراً بارزاً فى تكوين المذاهب الفلسفية ثم يضيف إنه يقدم "الفكر الإسلامى فى صورة دقيقة محددة تتناسب وحقيقة الدور الذى أداه فى مجال التراث الإنسانى".^(٢٣) وبالتالي فهو لا يفصل بين المحدد اللغوى وبين المحدد العقدى ولا يستعمل المحدد الثقافى الأعمق لمجال التداول، فالنزعة العربية نزعة تخص طريقة الوجود لا طريقة الاعتقاد. بعبارة أخرى، النزعة العربية رمز يثير عالمى الجغرافيا والتاريخ أكثر ما يحرك عالم اللاهوت أو العقائد. ولا تغطى النزعة العربية مجموع الإسلام، ويظل انتشار العروبة أدنى بكثير من انتشار الاعتقاد الإسلامى الذى جاوز منذ بداياته حدود اللغة العربية، ولكن ما هو سبب الخلط بين العروبة والإسلام؟ وإذا كان ثمة ضرورة لربط "الفكر الإسلامى" بالفكر العربى "فما طبيعة هذا الربط الضرورى؟ يقول د. عاطف العراقى إن ابن رشد. وقف موقفاً من "فلاسفة الإسلام". فلماذا يقول من جهة أخرى إن دراسته "تتعلق بالفلسفة الرشدية بأسرها سواء منها ما ظهر فى العالم العربى أو فى تطورها عند الرشديين اللاتينيين".^(٢٤) أم هل علينا أن نكتفى بالاعتقاد فى أن "الوصول إلى الحق وسط هذه التفسيرات من أصعب الصعاب" وفى

"الوصول إلى التفسير الذى يعد أقرب ما يكون إلى الصحة"، أى الاعتقاد فى العجز عن الوصول إلى رأى يقينى؟ كيف نرد ابن رشد إلى المحدد العقدى/ العقائدى لمجال التداول وهناك "جانب أو أكثر من جانب لا يتفق مع الدين فى جوهره مثال ذلك نظرياته فى خلود النفس، والمعجزة، وقدم العالم"^(٢٥)؟ وكيف يكون الحديث عن صلة ابن رشد بالمحدد العقدى بعيداً عن نطاق وموضوع دراسة د. عاطف العراقي وهو يريد تقديم "الفكر الإسلامى" فى صورة دقيقة؟ وكيف يقول إنه يقدم "الفكر الإسلامى" دون أن يحل مشكلة التوفيق بين الإسلام والفلسفة؟ وإذا كنا قد أصبحنا — كما يقول د. عاطف العراقي — ننظر إلى الفلسفة من خلال قوالب محددة ما القالب غير العقدى الذى يجب أن نبحث على أساسه فى الفلسفة العربية؟ ما القالب الثقافى الذى قد يحل محل القالب الدينى الخالص؟.

واقع الأمر أن د. عاطف العراقي يرد المحدد اللغوى والثقافى إلى المحدد العقدى لأنه يحاول أن يؤكد على أساس جديد للنظر "لقضية الفلسفة فى الإسلام". ما جدوى الحديث إذن عن "آخر فلاسفة العرب"؟ ورغم أنه يقول إن قضية "قدم العالم" تخرج عن نطاق بحثه فإنه يدرسها فى صلب الكتاب نفسه عن "الزرعة العقلية فى فلسفة ابن رشد". فمادام هو يؤسس لقضية الفلسفة فى الإسلام لابد أن يتناول قضية "قدم العالم" التى لا تتفق مع الإسلام فى جوهره.

إنه يريد "للفلسفة العربية التقدم" وهو ينادى فى الوقت نفسه بإعادة تأسيس الفلسفة الإسلامية. وكيف نعيد تأسيس الفلسفة الإسلامية وابن رشد ذهب إلى حد نفى القول بوجود كليات مفارقة؟ كيف نعيد تأسيس الفلسفة فى الإسلام وتصور ابن رشد للكون كله، سماؤه وأرضه وحدة واحدة يتصل كل أجزائها بالأخرى اتصالاً ضرورياً محكماً؟ ألا يتعارض قول ابن رشد بوحدة الكون كله مع آيات القرآن التى تقول بتصور متعال للحق والحقيقة: "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" (سورة الصف، الآية ٩) حيث تدعو الآية إلى شكل متعال للحقيقة أو إلى شكل يعلو على الكون وقوانينه؟

وعلى الرغم من أن د. عاطف العراقي يقيم ابن رشد على قمة عصر "الفلسفة العربية" فإنه يقول بالفلسفة الإسلامية ويحيل القارئ إلى مقدمة د. أحمد

فؤاد الأهواني لكتاب "النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد" التى يصف فيها د. الأهواني "النزعة العقلية" بأنها محاولة لتطبيق فلسفة المذاهب على تاريخ "الفلسفة الإسلامية". فى هذا الإطار يرجع د. عاطف العراقى اتجاه ابن رشد إلى ركيزتين أساسيتين إحداهما "العقيدة الدينية". فالفرق بين عالم الكلام والفيلسوف فى الدرجة لا فى النوع، أى فى المنهج لا فى المذهب. يدافع عالم الكلام عن الدين بالجدل ويدافع الفيلسوف عن الدين بالمنطق. والاختلاف بين الفيلسوف وبين عالم الكلام بخصوص الدين اختلاف فى المنهج لا فى الدفاع عن الدين. يجد د. عاطف العراقى فرقاً جوهرياً بين الاثنين، لكن هذا الفرق الجوهري ليس فرقاً فى الدفاع أو عدم الدفاع عن الدين إنما هو فرق فى الشكل المعرفى المستخدم فى الاستدلال، وقد نقد ابن رشد المتكلمين فى المنهج لا فى الرؤية نفسها، والواقع أن الخلاف بين ابن رشد وبين المتكلمين لم يكن فى المنهج وحده بل كان خلافاً فى جوهر الرؤية. فعلى حين كان علم الكلام بقصد نصره آراء قد اعتقد ما فيها بأنها صحاح فإن الفيلسوف بما هو فيلسوف إنما قصده طلب الحق. وعلى حين يقول الدين بوجود كائنات مفارقة يقول ابن رشد "إن الكلى لا بد أن يستند إلى الجزئى والمعقول لا بد أن يستند إلى المحسوس" (٢٥) حسب تعبير د. عاطف العراقى الذى يضيف إن "ابن رشد يرى أن قول الفلاسفة (إن الكليات موجودة فى الأذهان لا فى الأعيان)، يراد به أنها ليست موجودة بالفعل فى الأذهان لا فى الأعيان، ولا يقصد منه الذهاب إلى أنها ليست موجودة أصلاً فى الأعيان بل إنها موجودة بالقوة غير موجودة بالفعل" (٢٧). فالكليات غير موجودة خارج النفس وإنما تستخلصها النفس من الجزئيات. والكائن الموجود خارج النفس إنما هو "الموجود الشخصى" وحسب.

والخلاف بين علم الكلام والدين من ناحية وابن رشد من ناحية أخرى يبين من خلال مشكلة "قدم العالم". فعلى حين يقول ابن رشد بقدم العالم وبقدم المادة الأولى يقول المتكلمون بالحدوث، أى بحدوث العالم عن العدم. فكيف ينسجم القول بقدم العالم والتدليل على وجود الله؟ هل إثارة هذا السؤال يضعنا سلفاً فى صف الغزالى وضد ابن رشد؟ أم أن القضية هى قضية أن يكون الفيلسوف منطقياً مع نفسه وتصوراته؟ يتعلق النزاع بأصل من أصول الدين لا بنص من نصوص

الإسلام. فالنص عبارة قابلة للتأويل. أما الأصل فهو المبدأ الذى لا سبيل إلى التخلّى عنه إطلاقاً كالقول فى حدوث العالم، فإن هذا أصل من أصول الإسلام، لا سبيل إلى التخلّى عنها بحال، فهل خالف ابن رشد القول بحدوث العالم؟ يؤكد د. عاطف العراقي أن ابن رشد قد خالف القول بحدوث العالم.

فهو يقول: "وبهذا يتبين المنزع العقلى الذى سلكه ابن رشد فى تصويره لمشكلة الأبدية إذ أنه يقيمها على نفس الأساس الذى أقام عليه مشكلة الأزلية - وهو يتساءل دائماً عن السبب وعن المرجح، وعن الداعى لفعل شىء من الأشياء دون شىء آخر حتى يمكنه تصور العالم كله تصوراً يستطيع به تفسيره، طالما أن هذا التساؤل عن السبب والمرجح مطلب من أهم المطالب العقلية"^(٢٨).

وفى مقدورنا أن نقارن بين عقلانية ابن رشد هذه وعقلانية ليبنتز من مبدأ السبب الكافى وحده دون غيره من المبادئ والأصول. وبالطبع هناك تداخل بين المبادئ والأصول إلا أن هناك دوماً طريقاً أفضل من غيره من الطرق والأساليب المنهجية، وهذا الطريق هو طريق مبدأ السبب الكافى، فهو المبدأ الذى يحكم فلسفة ليبنتز كلها.

والمبدأ اسم ظرف من البدء، وجمعه مبادئ، ويطلق على السبب مادياً كان أو صورياً أو غائياً. ومبدأ الشىء أوله ومادته التى يتكون منها، فالنواة مبدأ النخل، والحروف مبادئ الكلام، ولكل علم مبادئ ومسائل، والمبادئ هى الحدود والمقدمات التى منها تؤلف قياساته، وهى التى تتوقف عليها مسائل العلم، ولا تحتاج إلى البرهان، وللمبدأ عند الفلاسفة معان كثيرة، والمبدأ عند ليبنتز هو مبدأ السبب، والسبب هو الحبل وما يتوصل به إلى المقصود والجمع أسباب، وأسباب السماء مراقيها أو نواحيها أو أبوابها.

والفرق بين السبب والشرط أن السبب هو ما يكون الشىء محتاجاً إليه إما فى ماهيته أو فى وجوده على حين أن الشرط هو ما يتوقف عليه وجود الشىء كالوضوء للصلاة.

والسبب مرادف للعلة، إلا أن هناك فرقاً بينهما من وجهين: أحدهما أن السبب ما يحصل الشيء عنده لا به، والعلة ما يحصل به. والثاني أن المعلول ينشأ عن علته بلا واسطة بينهما ولا شرط على حين أن السبب يقضى إلى الشيء بواسطة أو بوسائط.

وللسبب فى اصطلاح ليبنتز مبدآن كبيران للاستدلال العقلى: مبدأ عدم التناقض ومبدأ السبب الكافى. ويوجب مبدأ السبب الكافى أن يكون لكل شيء سبب يتوقف وجوده عليه، أو هو ما يتوصل به بصورة قبلية إلى تعليل وجود الشيء، أو عدمه، أو إلى تفسير كونه على هذه الحالة أو غيرها.

ويبدأ ليبنتز فلسفته بتقرير تفاؤل غنوصى. ويقول فى (الإلهيات) الفقرة ٦٥ من الخطاب التمهيدى إنه من المحال أن يخدعنا العقل. وفى الفقرة ٢٦٥ من (الإلهيات) أيضاً يقول إن الله فى الوقت نفسه الذى يعطينا فيه العقل قد أعطانا مادة حل كل الصعوبات. بعبارة أخرى، لا يوجد شيء لا يقبل التعجيل، وكل شيء يقبل مبدئياً أن يدخل فى مجال العقل، ويفترض هذا التفاؤل أن العقل العارف يتمتع بالطبيعة نفسها التى يتمتع بها سبب الوجود الذى يجعل الأشياء موجودة.

والعقل نفسه واللوجوس نفسه يُعرف ويوجد. وفى الخطاب التمهيدى (للإلهيات) يقول ليبنتز إن ضوء العقل عطية من عند الله تماماً كما أن الوحي نزول من عند الله أيضاً. هناك إذن انسجام بين الإيمان والعقل، فمن واجب العقل وقواه الخاصة أن يقدم السبب فيما يعلمه الإيمان، وبالتالي لا يمكن أن يتعارض الوحي مع العقل. يقول ليبنتز فى الفقرة ٦١ إن هذا الجزء من العقل الذى نمتلكه عطية من عند الله ويقوم على الضوء الطبيعى الذى بقى لنا وسط الفساد ويطابق هذا الجزء الكل ولا يختلف عن الذى فى الله إلا من حيث كونه قطرة فى المحيط أو من حيث كون العقل الإنسانى متناهياً فى اللامتناهى. وحتى إذا لم يكن العقل الذى فىنا لا متناهياً كما هو الحال فى الله فإنه يتمتع بالطبيعة نفسها، هناك إذن تواصل دنيوى بالعقل فقط اختلاف فى الدرجة بين العقل الإلهى وبين العقل الإنسانى. يقول ليبنتز فى (الملاحظات) الفقرة ٦ إنه يرى أن هناك شيئاً معيناً أكثر فىنا لأن الضوء الذى فىنا خيط من خيوط الله. وإذا كانت الصلة التى تربط المتناهى

باللامتناهى تعنى أننا نستطيع أن نتقدم فى تعقل العالم فإننا نفهم على نحو أفضل معنى الخلق. وهذا الإدراك المتنامى والتدرجى للطيبة الإلهية يقود إلى تنامى الحب. وهذا الدخول أو هذا التعايش مع الله يعطى النظام المقبل للفضل الإلهى. يقول ليبنتز فى (المبادئ) الفقرة ١٤ إن النفس العاقلة أو العقل "صورة من الألوهية. إن العقل لا يقتصر على إدراك أعمال الله، بل إنه لقادر على إبداع شئ شبيه بهاء، وإن يكن ذلك فى نطاق أصغر". فيحاكى العقل، فى مجاله وفى عالمه الصغير، ما يقوم به الله فى العالم الكبير. ويقول ليبنتز كذلك فى (المبادئ) الفقرة ١٦ : "إننا نتأكد عن طريق هذا العقل نفسه من أن الأشياء قد حلقت على نحو يفوق كل أمائنا"، إذن فنحن نبرر الله. إذ يقول ليبنتز فى (الملاحظات) الفقرة ٢٦ بأننا نحاكى الله بالعقل ونقوم سعادتنا على اتباع عقلنا، ومن ثم نفهم الأفضل. وبالتالي نجعل الأشياء أفضل فى محيطنا. وذلك تبعاً لمبدأ ليبنتز عن الاقتصاد. ونساهم فى تغيير العالم. إننا آلهة صغيرة فى عالمنا. فى الخطاب التمهيدى (للإلهيات) الفقرة ٤ يقول ليبنتز بأن فضل الله وعدله وحكمته لا تختلف عن حكمتنا وعدلنا وفضلنا إلا من حيث كونه فضل الله لا يتناهى أبداً، وبين النفس العاقلة أو الروح والله لا يوجد فارق إلا فى الدرجة.

فقد أراد الله الأفضل وخلقته. وإذا كان ما يميز كل وحدة عنصرية (مونادا) الرغبة والإدراك بوصفنا نبحث عن تنمية عقلنا فإننا نقرب من الله.

وبدون الله لا يوجد سبب فى الوجود، مما يقود إلى تصور السبب الذاتى عند ديكارت وإسبينوزا، غير أن ذلك لا يفسر ضرورة الوجود ولذلك لا بد من إرادة وقصد وغائية، أى أنه لا بد من مبدأ الأفضل، والأحسن، لا بد من أن تكون الأشياء مخلوقة من قبل الله فى حكمته، أى عقلياً، أما من الخاصية الوجودية فيقول ليبنتز فى (الإلهيات) الفقرة ٧ بأن الله سبب الأشياء الأول، وهو فى الوقت نفسه السبب الأخير. الله يجاوز العالم. وذلك على عكس الله عند إسبينوزا الذى يحاith العالم. فإن عالم ليبنتز ليس ضرورياً بل هو مختار بسبب معين. إنه السبب الكافى لوجود الأشياء. وهو السبب الذى يدفع الإرادة. يقول ليبنتز فى (المذهب) الفقرة ٣٧: "يتحتم أن يوجد السبب الكافى أو السبب الأخير خارج سلسلة أو مجموع سلاسل

الأشياء العرضية (الحادثة) كل على حدة، مهما بلغت هذه السلسلة حدا لا نهاية له" وفي (المذهب) الفقرة ٣٨ يقول أيضا إنه ينبغي أن "تجد العلة الأخيرة للأشياء في جوهر ضروري، يحتوى على تفاصيل التغيرات على نحو سام أشبه بأن يكون مصدرا لها: وهذا الجوهر هو الذى ندعوه الله".

"وهذا السبب الكافى لوجود العالم لا يمكن العثور عليه داخل سلسلة الأشياء الحادثة" (المبادئ) الفقرة ٨. وهذا السبب الأول والأخير هو الله لأنه يحدد نفسه بمقياس العقل.

قلنا إن القراءة العربية لابن رشد هي القراءة التى تقود الكتاب التذكارى عن ابن رشد المفكر العربى، الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى عام ١٩٩٣. وقلنا إن هذه القراءة سرعان ما تتحرف إلى رد ابن رشد إلى المقتضى العملى للمحدد العقدى لمجال التداول العربى، أى أنها سرعان ما تترده إلى المحدد الإسلامى دون أن تلتزم تماماً بالمقياس اللغوى الثقافى لمجال التداول نفسه.

فأول بحث فى الكتاب التذكارى الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى للدكتور إبراهيم مذكور "ابن رشد: المشائى الأول بين فلاسفة الإسلام" ينطلق من تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ومن جد المسلمين فى جمع كتب أرسطو فى أصولها اليونانية أو ترجماتها السريانية ومن حركة الترجمة فى الإسلام التى عمرت نحو قرنين.

ويتردد البحث بين المحدد العقدى وبين المحدد الثقافى فى التحليل، فابن رشد واحد من أعلام المدرسة الفلسفية الإسلامية حيناً وواحد من المشائين العرب حيناً آخر. ويضطرب البحث دوماً بين المشائين المسلمين وبين العالم العربى، وبين الفيلسوف العربى والتعاليم الإسلامية.

وتخيم ثنائية المحدد العقدى والمحدد الثقافى نفسها على بحث د. محمود فهمى زيدان "نظرية ابن رشد فى النفس والعقل" حيث يحاول د. زيدان التوفيق بين الفلسفة وعقائد الإسلام. فيقول إن ابن رشد قد وجد التعريف الأرسطى للنفس معارضاً للعقيدة الدينية فى خلود النفس. "ذلك لأن النفس عند أرسطو ملتزمة

بالجسم التحام الصورة بالمادة، ولما كان الجسم مآله إلى فناء. فكذاك حال النفس^(٢٩). ويقوم التوفيق بين أرسطو وعقائد الإسلام على تفسير ابن رشد النفس الناطقة صورة للبدن وتفسيره العقل مفارقاً للبدن، أى أن التوفيق يقوم على تجزئ قوى النفس وعلى اعتبار أن جانباً من النفس يفنى مع فناء الجسم. وبالتالي يستخلص د. زيدان أن ابن رشد " لم ينجح فى محاولته الدفاع عن عقيدة الإسلام فى خلود النفس" وبالتالي فهو لم ينجح فى التوفيق بين فلسفة أرسطو وعقائد الإسلام، ومن ثم كيف تستقيم القراءة العربية الإسلامية لابن رشد.

ويؤكد بحث د. عبد الفتاح أحمد فؤاد عن "الفلسفة الرشدية مدخل إلى الثقافة الإسلامية" على الخلط نفسه بين المقياس العقدي والمقياس اللغوي. ويؤكد ثانياً على إخفاق القراءة العربية / الإسلامية لابن رشد حيث يقول إن "الفلسفة التى هى نتاج العقل لا تتعارض البتة مع الدين الذى هو ثمرة النقل"^(٣٠). كذلك يقول الأستاذ سعيد زايد فى بحثه عن "ابن رشد وكتاب تهافت التهافت" بالفكرة نفسها: يبين ابن رشد "أن الفلسفة لا تتناقض الدين بل تدعمه"^(٣١). ونفى التناقض بين الفلسفة والدين عند د. عبد الفتاح أحمد فؤاد والأستاذ سعيد زايد يتناقض مع نص ابن رشد للصريح فى كتابه: "فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" يقول ابن رشد إن كان ظاهر الشريعة موافقاً للبرهان الفلسفى فلا قول هنالك " وإن كان مخالفاً طلب هنالك تأويله"^(٣٢)، أى طلب هنالك تأويل ظاهر الشرع ليتوافق مع البرهان الفلسفى، ومن ثم يفترض ابن رشد إمكانية التناقض بين الفلسفة والشريعة. ثم يحل هذا التناقض بتصور التأويل الذى هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية.

وزعم أن الأستاذ سعيد زايد يؤكد أن الفلسفة لا تتناقض فإنه سرعان ما يتناقض ويقر بعد هذه العبارة بسطور ما سبق أن اقتبسناه من نصوص ابن رشد نفسه وهو أنه إذا ظهر فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف ما يخالف فى ظاهره حقائق الفلسفة، فما هو إلا ظاهر يقبل التأويل"^(٣٣). على أنه سرعان ما يجعل استعمال التأويل سبباً فى تفرقة المسلمين. كذلك يجمع ابن رشد - فى منظور الأستاذ سعيد زايد - بين القول بقدّم الله وقدّم العالم معاً. والواقع أنه إذا كان العالم

قديمًا فإن الله لا يصبح علة لإيجاده وإذا كان الله قديمًا فإن العالم لا يصبح قديمًا بل يصبح محدثًا. والواقع أيضاً أن الأستاذ سعيد زايد يقول إن العالم عند ابن الوليد قديم. وبالتالي كيف تتماسك القراءة العربية الإسلامية لابن رشد؟

تجيب د. زينب عفيفي شاكراً في بحثها "مشكلة الحرية في فلسفة ابن رشد" بأن القول بالخلق الإنساني يناقض إجماع المسلمين. ويجاور هذا القول قول آخر، توفيقى، يرفع ظاهرياً، هذا التناقض:

" وجد ابن رشد أن الحل الأمثل لتلك المشكلة يكمن في الجمع بين نظريتي الجبر والاختيار" (٣٤). وتكرر د. زينب عفيفي شاكراً القول التوفيقى قائلة هذه المرة إن " للقدرة الإلهية والحرية الإنسانية تحكمهما علاقة جدلية واضحة." (٣٥) دون تحديد أو تفصيل هذه العلاقة الجدلية، فهي حيناً علاقة جدلية وحيناً آخر علاقة وسطية: "حاول ابن رشد إذن أن يخرج بحل وسط يصور فيه مشكلة الحرية الإنسانية تصويراً يتلاءم مع استقلال الذات الإنسانية، وحرية الإرادة من جهة ومع مبادئ الشريعة من جهة أخرى." (٣٦). وهكذا يقدم لنا ابن رشد — من منظور د. زينب عفيفي شاكراً — حلاً توفيقياً بين العقل والنقل، بين الحرية والعناية الإلهية، بين الآيات وبعضها.

أما د. نبيلة زكري زكى ففى بحثها "ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الإلهية" فتثير للسؤال نفسه: هل أراد ابن رشد للتوفيق بين الشريعة والحكمة؟ ليس هذا للتوفيق منهجاً أعمق أثراً؟ وإجابتها نفسها بين النفى والإثبات فمن ناحية تؤكد أن ابن رشد كان يميل أكثر إلى العقل منه إلى الجانب الدينى. ومن ناحية أخرى كان يريد القيام بمحاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين، فهل حقاً كان عقلانياً أم كان دينياً؟

يظل ابن رشد فى بحث " ابن رشد والمؤثرات اليونانية فى فلسفته الإلهية" يحاول التقريب بين الحكمة والشريعة. ويتم التقريب دوماً على حساب الحكمة حيث إنه عندما لا ترقى بعض أفكار أرسطو أو لا تتفق وعقيدته يتركها. لكن كيف يستقيم اتباع ابن رشد المنهج العقلى فى شروحه على أرسطو واتباعه منهجاً آخر فى إحالات أخرى؟ هل منهج ابن رشد واحد أم متعدد؟ وكيف يستقيم تغليب الشرح

على الحكمة ونشأة التيار العقلى فى الغرب وبالتحديد عند الرشدیین اللاتینیین وارتقاء العقل أعلى مرتبة من مرتبة الإیمان فى ضوء تطوير وإعادة تطوير أعمال ابن رشد؟

یتجلى التحلیل التوفیقی لابن رشد فى مقاربة د. نبیلة ذکرى زکى لمشکلة قدم العالم. فهى من ناحية تؤكد أن ابن رشد قال بقدّم العالم، ومن ناحية أخرى تؤكد أنه قال بوجود الصانع مع أن التناقض بین القولین واضح، فقدّم العالم یعنى قدم المادّة، أى أن مادّة العالم أزلیة وبالتالى لا تغنى. ومن ثمّ فمادّة العالم والله أزلیان معاً، وسواء أکان القدم بالصورة أو المادّة أو الزمان أو الرتبة والذات فإن القول بأزلیة المادّة یعنى تألیه المادّة أو التّصویر المادى للإله فى الحالة الأولى فیصبح ابن رشد مادياً یمضى من المعانى، وفى الحالة الثانیة یصبح ابن رشد حلولياً، وفى الحالّین ینفصل عن العقیدة الثابتة فى الإسلام. وابتعاده هذا عن جانب من جوانب العقیدة یمین كذلك من تحلیل د. نبیلة ذکرى زکى لتصوره لأزلیة الزمان. فعرضها لتصوره للزمان الأزلى يؤكد أن الحركة أزلیة بالضرورة: "والمادّة لا یكون لها مادّة تسبقها ولا یمکن أن یمرّ ذلك إلى غیر نهاية بل لا بدّ من القول بوجود مادّة أولى قديمة وموجودة منذ الأزل وهذه المادّة لا تتكون لأنها لو كانت تتكون لکان ذلك من فساد ما قبلها لأن الفساد هو (كون) لغيره ولذلك یجوز أن یمرّ عدم الشیء هو الذى یتحول وجوداً بل المتحول هو شیء له شیئیة تحتسب وجوداً لأنّ عدم لا یتصف بالتّكون".^(٣٧) یخلق الله العالم، لكنه یخلقه من المادّة القديمة، وبالتالى فالمادّة أقدم من وجود الله أو هى أقدم خلق الله للعالم، کیف إذن حاول ابن رشد التوفیق بین مفهوم الله عند أرسطو ومفهوم الله الذى یتفق والعقیدة الإسلامیة؟

على الرغم من إیمان ابن رشد بالمعاد وخلود النفس، یقدم تصوراً للمعاد وخلود النفس ینأى بها عن الصورة المعروفة عن العقیدة الإسلامیة حیث إنه جعل - وفقاً لمنظور د. نبیلة ذکرى زکى - عودة النفس تتم بالنوع وليس بالعدد. وهناك فرق کبیر بین العودة النوعیة للنفس وبین العودة العددیة فالعودة النوعیة للنفس تعنى أن النفس جوهر أما العودة العددیة للنفس فتعنى أن النفس تمرض، أى أنها زائلة لا تبقى وتقبل الفساد. " فالنفس باعتبارها صورة فهى تنقسم بالعرض وليس

بالذات بمعنى أنها تنقسم بانقسام الأجسام وسواء كانت الأجسام موجودة أو منعدمة فلا بد أن تكون النفس واحدة لأن الصورة لا تتجزأ كالهيلولي^(٣٨). إذن النفس في جانب منها - للصوري - زائلة ومن جانب آخر تظل خالدة وبهذا المعنى تتجزأ النفس رغم كونها جوهرًا واحدًا، فهي جوهر واحد يقبل القسمة إلى صورة ومادة، إلى عرض وجوهر معًا والأدق أن نقول إن ابن رشد يؤمن بالخلود ويؤمن بالزوال بالقدر نفسه. فالنفس تقال بالعرض وبالذات، بالصورة وبالمادة، وبانقسام الأجسام ووحدتها، بالوجود والعدم. فهي زائلة من جانب وخالدة من جانب آخر. أما د. نبيلة زكري زكي فتعتبر أن ابن رشد يؤمن بالخلود دون زوال النفس؟ وذلك باعتبار أن النفس جوهر يخص أفراد النوع أي لجميع الأبدان وليس يخص كل بدن على حدة. واعتقاد ابن رشد في خلود النفس الكلية جعله يرفض فكرة الحشر الجسماني لأنه في حالة العودة بالبدن يصبح مذهبه مقر العودة بالعدد لا بالنوع^(٣٩).

وفي بحثه "ابن رشد بين حضارتين" يؤكد د. سعيد مراد على الطابع التوفيقى للاقتراب من ابن رشد، فهو حيناً عربى، وحيناً آخر معلم دون توضيح الفارق بين المحدد اللغوى والمحدد العقدى والمحدد الثقافى، ورغم تقديمه منهجية برتراند راسل على تناول عباس محمود العقاد فالدكتور سعيد ينطلق فى العمق من تحليل العقاد. ويستخلص خلاصة يخلط فيها بين المحدد العقدى وبين المحدد الثقافى. ويغلب المحدد العقدى على سائر المحددات والمقاييس والمعايير الأخرى حيث يقول إن ابن رشد "فيلسوف نشأ وسط بيئة تعتقد بأن القرآن وقد نزل بلسان عربى وهو مصدر كل المعارف بل هو منطلق البحث الأسمى عقلياً كان أم شرعياً".^(٤٠) وهو للقياس الذى يرضى العامة والفقهاء على السواء.

وفي بحثها عن "موقف ابن رشد من مشكلة الخير والشر" تؤكد د. مرفت عزت بالى على الفكرة نفسها قائلة إن ابن رشد "كان حريصاً على الرجوع إلى كتاب الله، وسنة رسوله"^(٤١).

الهوامش

- (١) د. زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، دار الشروق ١٩٩٣، ص ٩٩.
- (١مكرر) د. زكى نجيب محمود، قيم من التراث، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ١٢٠.
- (٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (٣) المصدر نفسه، ص ١١٨.
- (٤) د. زكى نجيب محمود، قشور ولباب دار الشروق، ١٩٨١، ص ١٦٩.
- (٥) المصدر نفسه، ص ١٦٢.
- (٦) د. زكى نجيب محمود. قيم من التراث، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ١٢٢.
- (٧) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- (٨) د. زكى نجيب محمود، حصاد السنين، دار الشروق، ١٩٩١، ص ١١٦.
- (٩) د. زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٢٠٥.
- (١٠) د. د. زكى نجيب محمود، حصاد السنين، دار الشروق، ١٩٩١، ص ١٦٥.
- (١١) د. زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٢٤٦.
- (١٢) د. زكى نجيب محمود، حصاد السنين، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٣٠٩.
- (١٣) د. زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٥.
- (١٤) د. زكى نجيب محمود، حصاد السنين، دار الشروق، ١٩٩١، ص ٤١٣.
- (١٥) انظر على وجه الخصوص ما صدر فى ألمانيا بكارلسروهينى، عام ١٩٨٨ تحت عنوان "علم النحو الوظيفى للعربية فى القرآن"، للمؤلف بهمانى نجار.
- (١٦) جاك بيرك، ترجمة معانى القرآن، باريس، سندباد، ١٩٩١، ص ٧٢٧ - ٧٢٨.
- (١٧) راجع: ابن الصلاح. فتاوى، ص ٤٢.
- (١٨) د. زكى نجيب محمود، تجديد الفكر العربى دار الشروق، ١٩٩٣، ص ١٦٨.



- (١٩) المصدر نفسه، ص ٩٦.
- (٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٠.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ١٤٤.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.
- (٢٣) د. عاطف العراقي، النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد، القاهرة، دار المعارف، ط ٥، ١٩٩٣، ص ١٩.
- (٢٤) المرجع السابق، ص ٢١.
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٢٢، "هامش".
- (٢٦) المرجع السابق، ص ١٠٨.
- (٢٧) المرجع السابق.
- (٢٨) المرجع السابق، ص ١٨٩.
- (٢٩) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٤١.
- (٣٠) المرجع السابق، ص ١١١.
- (٣١) المرجع السابق، ص ١٩٠.
- (٣٢) ابن رشد، فصل المقال، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.
- (٣٣) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، ص ١٩٠.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ٢٤٦.
- (٣٥) المرجع السابق. وهي تحيل هنا إلى "مناهج الأدلة" لابن رشد وإلى كتاب خليل شرف الدين عن ابن رشد وإلى كتاب "المعتزلة ومشكلة الحرية" لمحمد عمارة و"الفيلسوف المفترى عليه" لمحمود قاسم ومشروع رؤية جديدة للطبيب تزني و"القرآن والفلسفة" لمحمد يوسف موسى.
- (٣٦) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

٣٧) المرجع السابق، ص ٢٧٤.

٣٨) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٣٩) المرجع السابق، ص ٢٩٢.

٤٠) المرجع السابق، ص ٣٣٣.

٤١) المرجع السابق، ص ٣٦٢.



استباق ابن رشد للتقوير

لم يخصص الكتاب التذكاري الذي أشرف عليه د. عاطف العراقي دراسة واحدة عن علاقة التنوير الحديث بابن رشد، وذلك رغم قول د. عاطف العراقي بضرورة ابن رشد في مواجهة الظالمين.

أما اللجنة التنفيذية للجمعية الفلسفية الأفروآسيوية في اجتماعها في عام ١٩٩٣ في موسكو وفي أثناء المؤتمر العالمي للفلسفة فقد قررت تنظيم مؤتمرها الدولي الخامس في عام ١٩٩٤ في القاهرة تحت عنوان " ابن رشد والتنوير " (٥-٨ ديسمبر ١٩٩٤). وانهقد المؤتمر في التاريخ المحدد له وأصدرت دار نشر الثقافة الجديدة أعمال المؤتمر في عام ١٩٩٧ (ط١).

وأما العدد السادس عشر (١٩٩٦) من مجلة ألف المخصص لدراسة ابن رشد والتراث العقلاني في الشرق والغرب فإنه خلا تماماً في قسمه العربي من البحث في التنوير. وفي القسم الإنجليزي أقام تشارلز بترورث طبعة معرفية بين ابن رشد والتنوير، وتشارلز بترورث أستاذ السياسة بجامعة ميريلاند وهو مؤلف ومحقق و مترجم كتاب تعليق ابن رشد لكتاب في الشعر لأرسطو (بالإنجليزية) وهو أيضاً محقق لعدد من الكتابات الأخرى عن ابن رشد والرازي، كما قام بعدة ترجمات لأعمال الفارابي والرازي وابن رشد.

وتقيم ألبا رسلان تشيكيبيجيتشن القطيعة المعرفية نفسها في عدد ألف سالف الذكر ضمن بحثه " ابن رشد، كانط والعقلانية المتعالية: تركيب نقدي". فميز أستاذ الفلسفة بالمركز الدولي لدراسة الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية بماليزيا بين نمطين في التفكير، نمط التفكير الإسلامي من ناحية، ونمط التفكير الغربي من ناحية أخرى، وبالتالي فهو يفرق تقريباً حاسماً بين كانط وابن رشد.

لا يقيم عمانوئيل كانط - أحد أبرز فلاسفة عصر التنوير الألمان - الدين على العقل إنما هو يريد أن يثير السؤال: كيف أسس الأنبياء الأديان؟ وهو لا يثير السؤال حول دين واحد إنما يثيره حول الأديان جميعاً، فهناك أديان عدة، ولا يستتبط كانط الدين من العقل المحض بل يمثل استتباط الدين من العقل حداً أعلى فقط لأن الأرجح لنا أنه لم يتم استتباط الدين من العقل في أية لحظة من لحظات التاريخ الفلسفي.

يضع كانط إذن الدين في اعتباره، ويفرق بين العقل الخالص وبين العقل وحده، فالعقل الخالص يدرك الصور والمثل العليا، أما العقل فقط فيقابل العقل الوضعي (الغيبى) القائم على الوحي ولا علاقة للعقل وحده (العقل فقط) بالدين في ذاته، والمشكلة الحقيقية التى يثيرها كانط هى مشكلة تعيين " الحدود".

وتفقد الأخلاق Moralishe عند كانط إلى الدين وتتسع لتصبح هى فكرة المشرع الأخلاقى العظيم والقدير والخارج عن قوى الإنسان، أما الدين فيقوم على معرفة الواجبات والأوامر الإلهية، وهو الإيمان الذى يقوم فى أخلاقية الإنسان.

فهل الواجبات الأخلاقية صادقة بذاتها أم هى أوامر من عند الله؟ هل هى صادقة صدقاً إلهياً أم هى صادقة صدقاً إنسانياً خيراً؟ هل تتبع من خارج الإنسان أم من داخله؟

يجيب كانط إنها أوامر صادرة من الكائن الأعلى، لكن المرء لا يستطيع فى الوقت نفسه أن يستند إلى الخير الأسمى، والإنسان ليس فى حاجة إلى فكرة موجود واسمى متميز عن الإنسان لكى يعرف واجبه الأخلاقى، عليه أن يسلك وكأن الإله قد تخلق عنه، والإنسان ليس فى حاجة إلى دافع غير قانونه الخاص به ومن ثم لا تحتاج الأخلاق إلى الدين بل هى العقل العملى الخالص على وجه العموم.

كذلك يفرق عمانوئيل كانط بين الدين الوضعي Des Blossen Lvltus وبين الدين العقلى. وأما الدين الوضعى، الموحى به، فإنه يقوم على عقيدة أبلغت إلينا، وهو يقوم على الأحداث والوقائع، كذلك هو إيمان تاريخى، لذلك فهو لا يصح الا عند قوم بأعينهم، ولذلك أيضاً فهو لا ينفرد بكونه ديناً. ومثل هذا الإيمان ليس حياً ولا موجبا للنجاة، ومن ثم فهو ليس ضرورياً بل هو فى ذاته احتمال، وليس فى الدين طقوس ولوائح وشعائر فى المقام الأول بل الجوهر فى الدين هو الأخلاق وضوابط السلوك.

وتتناقض المطالبة بالإيمان " بكنيسة بعينها. لأن الكلية غير المشروطة، الضرورية، لاتحدث إلا فى الاعتقاد الفكرى Reflektierende الذى هو ليس وحياً تاريخياً أو إيماناً عقائدياً (عقدياً) بل يعطى العقل نفسه أساساً كافياً أو علة كافية لكى يعتقد ما يريد أن يعتقد فيه. وفى هذه الحال لا تكون المعتقدات ممارسة للطقوس والشعائر وحدها، إلا

أن الإيمان الدينى بطالب بقيمة كلية، ويعتبر الطقوس من جوهر الدين وبالتالي يضع الخبرة محل العقل، والإمكان محل الواجب فى ذاته.

وقد يتفق الدين الوضعى، الموحى به، مع الدين العقلى حين يستعمل علماء الكلام الدينى عقولهم فى أمور الدين، وما يقوله كائناً هنا هو بالضبط ما سبق أن قاله ابن رشد حيث قال إنه إذا كان الشرع مخالفاً للنظر البرهانى طلب هنالك تأويله حتى يوافق الشرع النظر العقلى، غير أن علماء الكلام لا يستعملون عقولهم فى أمور الدين بل يستعملون القياس الجدلى الذى ينطلق من مقدمات افتراضية.

ولم يكن كائناً ملحداً إذ ظلت المسيحية عنده النموذج الأمثل للدين العقلى (الطبيعى).

أما تشارلز بترورث فيحيل إلى ما يقوله جان جاك روسو فى كتابه " فى العقد الاجتماعى" أو "مبادئ الحق السياسى" إن " هذا العقل العلى الذى يرتفع دون إدراك السوق هو ذلكم الذى يضع المشرع قراراته على لسان الخالدين ليجذب بالسلطة الإلهية أولئك الذين يقصر الحذر الإنسانى عن زعزعتهم (الفصل السابع فى المشرع)". وهى عبارة تعيد صياغة مماثلة لمكيافيللى فى حديث تيت ليف: " جاء فيها: " صحيح أنه لم يوجد قط، وعند أى شعب من الشعوب مشرع فائق النبوغ لم يلتجئ إلى الله، وإلا فلما كانت قوانينه لتقبل، إذ غالباً ما تعرف الحكيم الخير دون أن يملك الحجج الساطعة لإقناع الآخرين" وفى العقد الاجتماعى أيضاً يقول جان جاك روسو " إن الشعب يريد الخير دوماً من تلقاء نفسه، لكنه لا يتبينه من تلقاء نفسه دوماً. والإرادة العامة، دوماً قديمة لكن الحكم الذى يقودها ليس دوماً بالحكم النير، لذلك يجب تبصيرها بالأشياء كما هى وأحياناً كما يجب أن تبدو لها، وهديتها إلى الصراط السوى الذى تبحث عنه، ووقايتها من غواية الأهواء الخاصة وتقريب الأمكنة والأزمة إلى عينها، ودفعها إلى موازنة الفوائد الآتية والمحسوسة الجذابة بعواقب الغد البعيد الخفية. إن الخاصة يرون الخير لكنهم ينصرفون عنه، أما العامة فيرون الخير لكنهم لا يتبينونه، فهم جميعاً فى حاجة إلى الإرشاد، ينبغى إرغام أولئك على أن يجعلوا إرادتهم مطابقة للعقل، كما ينبغى تمكين هذا من معرفة ما يريد". الفصل السادس فى القانون". وقد ترجم تشارلز بترورث بنفسه من الفرنسية إلى الإنجليزية معظم نصوص جان جاك روسو. أما كاتب هذه السطور فيستعين بترجمة

عمار الجلاصى وعلى الأحنف (دار المعرفة للنشر، تونس، ١٩٨٠) مع تعديلها فى بعض المواضع.

ويستخلص تشارلز بترورث أن روسو فعل ما سبق أن فعله ابن رشد وأن روسو يتفق مع ابن رشد فى القول بأن الدين ضرورة لآبد من الحفاظ والإبقاء عليها دوماً وهى المقارنة المثيرة حقاً. فروسو لم ينشغل بالدين إلا فى ذلك التصور عن المشرع الملهم الذى يحيل إليه تشارلز بترورث، وصحيح أن روسو يحمل فى جنباته روحاً دينية إلا أنه لم ينشغل بالدين مثلما انشغل سابقوه من كبار المفكرين السياسيين جميعاً من مكيافيللى إلى مونتسكيو. وكان الدين عند روسو رابطة معنوية واجتماعية قوية يترابط فيها الخارج والداخل، البعيد والقريب، السطحى والعميق، على نحو يقوى " الرابطة الوطنية" وقد أضاف روسو فى وقت متقدم، فى العام ١٧٦١، فصلاً آخر إلى كتابه فى "العقد الاجتماعى" (أو إلى مبادئ الحق السياسى) لم يكن وارداً فى خط سير الكتاب الأول. وكان عنوان الفصل: فى الدين المدنى، وقد كتب مسودة الفصل فى الدين المدنى على الوجه الآخر من الأوراق التى كتب عليها روسو الفصل الثامن فى المشرع (الكتاب الثانى) الذى استقى منه تشارلز بترورث تصور روسو لضرورة الدين، وكما أكد ابن رشد على ضرورة الدين أكد روسو على ضرورته بالكيفية نفسها.

إلا أن تشارلز بترورث ما لبث أن لاحظ أن روسو لا يمثل بالقدر المعقول روح عصر التنوير وحده ويشير إلى أن دوليكس وديدرو ودالمبير يمثلون من جهتهم التنوير فى كليته وجهة النظر التى تقول بضرورة نقد الدين. ومن هذا المنظور لآبد من إعادة التصورين الرشديين اللذين ارتبط الأول منهما بالعصر الوسيط المتأخر ونظرية الحقيقة المزدوجة وارتبط الثانى منهما بالصفحات الأخيرة من كتاب ابن رشد " تهافت التهافت" حيث كتب ابن رشد يقول - تبعاً لتفسير تشارلز بترورث بأن الأنبياء مخادعون.

إلا أن تشارلز بترورث يقول إن ابن رشد يختلف عن مفكرى عصر التنوير أمثال فولتير ودالمبير وديدرو وغيرهم من المفكرين الأحرار. ويؤكد أنه لا يوجد فى كتب ابن رشد المتخصصة أو الموجهة إلى الجمهور ما يجعل الباحث اليوم يعتبره واحداً ممن مهدوا إلى تيار التنوير الأوروبى الحديث.

ويستند تشارلز بترورث - دون أن يصرح تمام التصريح - إلى ما سماه الفيلسوف دلتى والمؤرخ ماكس فيبر وعالم النفس ياسبرز بالفهم Understanding وهو الفهم الذاتى الذى يقابل التفسير الموضوعى وبدل أن يفسر تشارلز بترورث الصلة بين الفلسفية والشرعية تفسيراً موضوعياً يحيل إلى التصديق، وذلك كما يقول ابن رشد، إن طباع الناس متفاصلة فى التصديق. فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلوية، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية.

والصدق هو روح الحقيقة والوجه الذاتى للحق والتعرف على هذا الحق هو ممارسة التصديق من هذه الطرق الثلاثة. فكل إنسان يعرف الله ومخلوقاته من الطريق الذى اقتضته جبلته وخلقته وطبيعته من التصديق.

وهكذا يتنافى الفهم الذاتى (التصديق) لثنائية الحقيقة الدينية والفلسفية عند تشارلز بترورث مع التفسير الموضوعى للثنائية نفسها، فليس هناك حقيقة دينية وأخرى فلسفية إنما هناك تفاوت إنسانى فى التصديق.

وإذا كان تشارلز بترورث يلقد الحقيقة فخطابه نفسه واحد من الخطابات الحقيقية. لذلك فإن نقده للشكل المتعالى للحقيقة لا ينفى كل حقيقة، وهو يستبدل حقيقة متعالية بأخرى.

وكلمة "العلو" تعنى الحركة. ثم أصبحت تعنى النهاية التى تتجه إليها الحركة. والعلو هو الصعود إلى شىء أعلى، وبهذا المعنى يعلو العقل، غير أن الكلمة قد أصبحت تعنى ما يهدف إليه العقل بعلوه.

وتقابل كلمة "متعال" كلمة "كامن". وعلى الرغم من ذلك فليس هناك تعارض ضرورى بين الكمون والعلو، فمثلاً الله فى المسيحية متعال. إلا أننا نحيا فيه ونتحرك فيه، ووضع البعض كلمة "الكل فى الله للفرقة بين العلو الكافى فى المسيحية وبين كمون وحدة الوحدة الوجودية.

وتشير كلمة "علو" إلى نهاية فكرنا التى ربما تعذر الوصول إليها، كما تشير إلى تفكيرنا فى هذه الغاية وسعيها للوصول إليها، فقيمتها تتلخص إذن فى كونها تبعث فىنا الإحساس لما لا نستطيع أن نحصل عليه كاملاً وبما ينبغى أن نسعى إلى تحقيقه .

وتتحصّر المشكلة فى كيفية تعبير العقل فى وقت واحد عن وضع هذه الغاية والسعى إلى بلوغها، هل يستقلّ الشيء - الذى يتجاوزنا - عن عقولنا أم أنه من خصائص العقل أن يبرز أسمى نقطة فيه؟

هناك الحقيقة. لكن هناك أيضاً الاعتقاد فيها، إنها مشكلة الصدق التى لا بد من الإشارة إليها حيث تعيد ثنائية الصدق والكذب ثنائية الغاية المثلى والسعى إلى بلوغها. الإنسان الصادق هو من يطابق كلامه الحقيقة بحسب اعتقاده، ومعنى ذلك أن الصدق الخبر شرطين: أحدهما مطابقته للحقيقة، والآخر مطابقته لاعتقاد المؤمن. فإذا كان الكلام مطابقاً للحقيقة، ولم يكن مطابقاً لاعتقاد المؤمن، أو كان مطابقاً لاعتقاد المؤمن، ولم يكن مطابقاً للحقيقة، لم يكن تام الصدق فالصدق التام إذن هو المطابقة للحقيقة والاعتقاد معاً، فإن انعدم واحد من هذين الشرطين لم يكن الصدق تاماً.

والصدق ليس تاماً عند الوثنيين والمشرّكين والكفار والمنافقين. فالمنافقون يظهرون وكأنهم مؤمنون، لكنهم ليسوا كذلك فى الحقيقة، تتحرك سلوكياتهم المراوغة بين جميع الـ لا يقينيات. ويزدوج عندهم الفعل والكلام، وفى النهاية فهم يقفون إلى جانب الباطل، لأنهم لا يفعلون ما يقولونه أو يقولون ما لا يفعلون، أما الكفار فقد بلغهم الحق، لكنهم يرفضونه ويخفونه، بل هم يغطونه، الكافر لا يناقش إنما يعتقد فى الباطل رغماً عن الحق.

فالصراع بين الحق والباطل يحتل الحيز الأكبر فى النص الدينى، وهو صراع فى الموقف والحجة كما فى سبيل الحياة والحقيقة نفسها. ومن وقف إلى جانب الباطل أنواع: الإحيائيون، أبو جهل، أبو طالب، أهل الباطن، المنافقون والكفار الذين يرفضون لكنهم لا يؤمنون، هم ملحدون لكنهم ليسوا غير مؤمنين ولأنهم غير راضين عن مناقضة النبى (صلى الله عليه وسلم) يكذبونه، بل يقولون أكثر من ذلك: " يقولون عن الله الكذب".

إلا أن المشكلة تقع على تبليغ الرسالة لا على شيء آخر. بعبارة أخرى المشكلة هى مدى حقيقة البلاغ، أما الحق فهو الله نفسه، إذن نقد الحقيقة ليس تدميراً ميثافيزيقياً للمطلق أما هو نقد لعملية الاتصال أو التحوار أو تلقى الرسول للرسالة.



وإذا كان ابن رشد ناقداً للحقيقة فخطابه نفسه واحد من خطابات الحقيقة وإلا ما كتب أو تفلسف أو بحث أصلاً عن الحق وأحبه أو عشقه. لذلك أقول إن نقد الحقيقة ليس نفيًا للحق بل المقصود بنقد الحقيقة تعرية آليات الخطاب.

ويوضح ناقد الحقيقة ألا عيب الحقيقة التي يمارسها خطاب الحقيقة، ويبين أن الكلمات ليست بريئة في تمثيلها العالم والمعنى وأن المنطوقات لا تتوافق مع المفهومات وأن الأسماء لا تعكس المسميات. إنه يبين أن للخطاب - نشاطاته السرية وإجراءاته الخفية فالحقيقة تخفى ما تشير إليه وتتكلم عنه. ذلك أن ما تضرره الحقيقة وتسكت عنه هو أنها متعالية، مطلقة، نهائية، ثابتة، أحادية، إرهابية. ومن ثم أصبحنا لا نبحث عن الحقيقة بل نبحث عن الحجاب الذي ترتديه الحقيقة وتعنيه. في هذا البحث لا تتعال الحقيقة على شروطها ولا تكتفى بذاتها، ولم تعد جوهرًا قائمًا بمعزل عن خطاب الحقيقة، ولم تعد نهائية وأصبحت قراءة وإعادة قراءة وسلسلة من التأويلات والتفسيرات والشروحات المتلاحقة للعالم والأشياء والكلمات، وأصبحت لا تصدق فقط من الناحية العقلية أو المنطقية أو النظرية أو الدلالية بل أصبحت تصدق أيضاً من ناحية اختلافها، كبتها، سياستها، هيمنتها، ضلالها، تلاعبها.

ولا شك أن الخطاب الفلسفي الرشدي هو خطاب البرهان القاطع والترتيب والإحكام، والوضوح والتمييز والتطابق، لكنه في الوقت نفسه عند ابن عربي كما سيبين في الفصل السابع خطاب تعمل على تشكيله لعبة قوى وسلطات، ويتحكم في إنتاجه خليط من الرغبات والاستراتيجيات، ويبنى على منظومة من الاعتقادات والأوهام، إنه نسيج من الاستعارات والإيضاحات، ومحصلة ترسبات وتراكمات، ونظام من المراجع والإحالات، وشبكة من الأعراض والدلالات، وهو كذلك يتنقع ويتضح في آن واحد، يحتجب ويبين في وقت واحد، هو تعاقب لفظي لا يولد سوى التبديل وأخيراً فالخطاب مجال للتصنيف والاستبعاد، وحقل للتجريب والنتية، وعالم من الإمكانات والاحتمالات وفضاء من الإشارات والتنبيهات.

والجانب اللاهوتي، الميتافيزيقي، في نقد ابن عربي للحقيقة هو اعتبار المجاز أساساً للفكر واعتبار الخيال أصلاً للتصورات وتحويل الرمز إلى بداهة الفلسفة الأولية. وهكذا يقوم الموجود على الوهم والتشبيه. وإذا كان نقد الحقيقة نقداً للحقيقة المطلقة فنقد

الحقيقة يقوم على " ميتافيزيقا اللغة" أو على "ميتافيزيقا الفجوة" بين الوجود والفكر، حيث يعبر المجاز عن هذه الفجوة ويقوم مقام الفكر. فليس الخطأ، والوهم والضلال " غشاوة" على العين والبصيرة وإنما هو حجب تمليه بنية الحقيقة بالذات. والبحث الجديد عن أنماط الوهم هو في الوقت نفسه تنقيب عن "معنى أصلى" والسعى الحديث إلى إظهار الوهم من وراء الأشياء والكلمات هو المعنى الحقيقى لكون نقد الحقيقة نقدا لاهوتياً، ميتافيزيقياً، ما وراثياً. صحيح أن الحقيقة لم تعد مطلقة، ولكن ناقد الحقيقة ينقب عن أصل آخر ولا بد أن يقود نقد الحقيقة إلى استبدال الوهم أو الخطأ بالحقيقة. وبهذا المعنى لا يفلت أحد منا من أصولية ما، لأنه لا يخلو أحدنا من التماهى مع ذات له أو الحنين إلى بداية أولى أو العسكرية وراء فكرة أو وراء نص ما من النصوص فالأصولية نزعاً تسكننا جميعاً .

وهكذا وإن كان ابن رشد ناقداً للحقيقة فإنه ليس من أصحاب الشك المطلق فى الحقيقة بل يبحث عن حقيقة ما، عن حقيقة من نوع آخر، لاتكون معطى، خفية، ينبغى البحث عنها، بل تكون نتاجاً للعقل والتاريخ معاً. فالحقيقة نفسها قد نشأت سلفاً عن اختلاف الظروف والشروط والملابسات والأهواء والفرق. وبلغت مرحلة نقد نفسها فى العصر الحديث حيث أعلنت أن أحداً لا يمتلك الحقيقة وحده وأنها ليست واحدة بل متعددة وأن كل واحد منا يبنى حقيقته وأن الحقيقة نفسها أصبحت لا تطابق الحكم مع الموضوع القائم خارج الذهن كما أنها أصبحت لا تتواطأ مع المعنى الأزلى، القائم فى الذات المتعالية. أصبحت تتعلق بظروف تشكلها وشروط إنتاجها وانباتها وتتوقف على معطيات التجربة ومواضيع النظر وحقول القراءة وأحوال الذات العارفة. أصبحت نتاجاً للمحاكمة الإنسانية وشكلاً من أشكال ممارسة الإنسان لذاته، أى أنها أصبحت نتاجاً لتأويل الإنسان لوجوده.

ولا يعنى التتوير زوال الحقيقة المطلقة أو أن الإنسان يتجرد عن منازعه القدسية، الغيبية. فلقد سبق أن أشرنا فى البداية إلى الفرق بين الحق الإلهى وبين الحقيقة الإنسانية. ونضيف أن القدسى عنصر من عناصر الوعى والغيبى مبدأ من مبادئ الاجتماع، فلا اجتماع بلا عقيدة، ولا عقيدة إلا و تحيل إلى غائب، ولا عقيدة من دون سلطة مقدسة. فلا مجال، إذن، لرفض الدينى فهو زمن من أزمنة الإنسان، ولحظة منطقية ضرورية من بناء الإنسان المنطقى، وكل زمن منفى، يعود على أسوأ ما يكون العود وأرهبه. ولهذا فالمطلوب ليس تدمير المقدسات أو إنكارها أو استبعادها أو تجاهلها، بل المطلوب هو

إعادة إنتاج الحقيقة الإسلامية وتداولها تبعاً لطابعها النسبي والنظر إلى الحقيقة القرآنية بكل وجوها ومستوياتها وأبعادها.

الحقيقة إذن ضرورية. فهي واحدة من مقولات ارتبط بها تشكل الفلسفة والحداثة. ويأتى نقد الحقيقة الحالية ضمن سياق السوفسطائية الجديدة التى تشكك شكاً مطلقاً فى الحقيقة. وكيف الشك المطلق فى الحقيقة والحقيقة مقولة قديمة قدم الفلسفة نفسها، إذ أن الفلسفة كانت منذ البداية الإغريقية بحثاً عن حقيقة الكائن نفسه. وابتداء من ابن رشد تمت صياغة مقولة حقيقية من خلال مقولة الحقيقة المزدوجة بحيث تتطلق الذات المفكرة، الحاضرة، المتيقنة من ذاتها بفعل تمثيلها لذاتها، وأصبح جانب من الحقيقة عبارة عن اليقين الذى ينتج هذا التمثيل، وذلك خلافاً للموقف السوفسطائى: لا ريب بوجود حقيقة ما لواقع ما، ولا ريب أيضاً بإمكان معرفتها، وإلا امتنع القول وأصبح الكلام غير ذى جدوى. وكان تصور ابن رشد للحقيقة المزدوجة بداية لتفكيك الحقيقة اليقينية، الثابتة وكان بداية مراجعة الحقيقة كتطابق بين الذهن والواقع وعنى ابن رشد من الحقيقة المزدوجة الربط بين بداهة التمثيلات ومطابقة الأحكام وصحة المعارف وبين الذات المتفلسفة واستراتيجيتها. وهكذا لا يعنى نقد الحقيقة نفيها، بل إتاحة المجال لمقولات الإنتاج، التوليد، الإجراء، المفاضلة، التفسير، السلطة، الممارسة، اللعب، إلى جانب جوهر الوحي ومقولات التطابق، البداهة، الوثوق، الإثبات، الثبات التقليدى. ومن هنا تشتغل الحقيقة على المواد وتستخدم المعايير وتبنى النماذج وتصوغ الوقائع وتنتج الموضوعات وتشكل الخطابات وتخلع الدلالات وتمارس مع الذات دون أن تصل إلى اليقين المعرفى. وترتضى لنفسها أن تكون منظومة تأويلية تفسر العالم وتفتخ على الكون. ذلك أن ناقد الحقيقة إذ تحدث عن موت الحقيقة المطلقة واهتم بتفكيك الحقيقة فإن تصوره للحقيقة يبشر بولادة جديدة للحقيقة، وهذا ما يتجلى فى اعتبار الحقيقة منظومة تأويلية مفتوحة على الكون، ومن هنا لا تنتج الفلسفة فى نفسها " أية حقيقة " ولا تعلن عن حقيقة ما. بل هى وسيط تصورى يربط بين الأحداث. وبالتالي فهى لا تشتغل على الوقائع مباشرة ولا تنتج معرفة سليمة بصدد هذه الوقائع.

فلا معنى لأن يكون القول الفلسفى صادقاً أو كاذباً، فالصدق والكذب، والحسن والقبح، والمشروع وغير المشروع، والخير والشر، كلها تصورات لها قيمتها التفسيرية

فى المجالات الإجرائية التى تشترطها ممارسة الفكر الفلسفى. فهى معايير صالحة فى العلم والفن والسياسة والأخلاق. أما العمل الفلسفى فلا يُقر أو يقيس بقدر ما يستشكل ويجادل وينفتح على الكون ويساءل الحقيقة فى ضوء الكائن. يتشكل النص الفلسفى كموقع تصورى أو صيغة عقلانية أو حقل للإمكان أو مدار للمعنى أو أفق للحقيقة . إن ابن رشد ناقد للحقيقة، لكنه لا يعتذر اليقين البرهانى، التمثل، الحضور. وهو لا يتخلى عن الصرامة والوضوح، التواطؤ، الضرورة. إنه يعنى أن الحقيقة قد سلمت نفسها إلى التأويل، المنظور، زاوية النظر، وجهات النظر العقلية.

أما بول كيرتس أستاذ الفلسفة المتفرغ بجامعة نيويورك (بافلو) بأمريكا فيؤكد أولاً أن مؤرخى الثقافة قد استعانوا " بلفظ التنوير للدلالة على التيارات الثقافية التى بزغت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى الثقافة الأوروبية الحديثة. وهذا اللفظ مردود إلى ربنيه ديكارت الذى يلقب بأبى الفلسفة الحديثة. بيد أن جذوره مردودة إلى آراء الرشديين اللاتين".^(١) أما فرن بولو أستاذ التاريخ بجامعة نيويورك ببافلو (أمريكا) فيرى أن ابن رشد لم يكن على ما كان يُتهم به من أنه "مفكر حر". ويقول فرن بولو بالفصل بين ابن رشد والرشديين: "وحقيقة الأمر أن ثمة عدداً هائلاً من الأفكار قد ارتبطت بمن كانوا يسمون بالرشديين . ولم تكن من بينهما أفكار ابن رشد. وفى عام ١٢١٧ أدان أسقف باريس ٢١٩ قضية لهؤلاء الرشديين المخربين".^(٢) إلا أنه يعتقد أن ابن رشد على الرغم من ذلك " لم يكن له التأثير الأعم فى تطوير الإسكلائية ودفع العقل إلى الصدارة الرسمية فى المسيحية. وهذه إحدى المساهمات الكبرى لابن رشد فى الغرب"^(٣). وفى عبارة موجزة يقول فرن بولو " بأن ابن رشد، سواء كان قوة إيجابية أو سلبية، قد أحدث تأثيراً هائلاً فى تنمية القوى التى انتهت إلى التنوير"^(٤). ويعتقد أوليفر ليمان أستاذ الفلسفة بجامعة جون مدرز (إنجلترا) أن اعتبار ابن رشد مفكراً " تنويرياً ليس اعتباراً صعباً.

ومن البين أن فهم الإيمان من زاوية أنه مهم ولكن دوره ثانوى من حيث أنه تأويل شعبى وعملى للفلسفة، من البين إذن - فى نظر أوليفر ليمان - أن هذا الفهم يتفق مع التنوير.

ويبين تيموثى ماديغان أستاذ الفلسفة بجامعة نيويورك ببافلو (أمريكا) فى بحث عن "ابن رشد والتنوير والتساؤل عن الحاجة إلى مجتمع متنور" كيف من الممكن أن نواجه الانتقادات المعاصرة الموجهة إلى مشروع التنوير بالاستعانة بابن رشد وينظر شيتفان فيلد

أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة بون (ألمانيا) في بحثه " بين أرنست رينان وأرنست بلوخ إلى تذكر ابن رشد واكتشافه وابتكاره، الاستقبال الأوروبي منذ القرن التاسع عشر " إلى ابن رشد على أنه م مهد للتويز الأوروبي الحديث. ويعتقد أن هذا الرأي كان ومازال ملائماً للعصر: " نحن في مقدورنا أن نتعلم من ابن رشد وكانط أن ليس ثمة مرحلة نهائية للتويز، مرحلة مكتملة ومنتصرة. إن التويز هو دائماً عملية محكومة بالتاريخ." (٥). وإذا كان التويز بالمعنى الذى يقصده عمانوئيل كانط أو بالمعنى الذى يقصده ابن رشد " هو أن تكون لديك الجسارة فى إعمال حكمك العقلانى فإن هذا الحكم ينتمى دائماً إلى زمان معين ومكان معين." (٦). وقال د. محمود حمدي زقزوق أستاذ الفلسفة ووزير الأوقاف إنه "ليس هناك خلاف على زعامة ابن رشد للتويز فقد كان لفكره التويزى دور بالغ فى دعم الحركة العقلية فى أوروبا فى العصور الوسطى وحتى مشارف العصر الحديث. ولكن الخلاف يمكن أن يدور حول الطريقة التى اتخذها ابن رشد للتويز." (٧). ويزعم د. محمود حمدي زقزوق فى بحثه " مفهوم التويز فى فكر ابن رشد" أن طريقة ابن رشد فى عملية التويز كانت فى أساسها مختلفة عما تمخضت عنه عملية التويز فى أوروبا." (٨). وهو لا يبنغى السير فى فهمه لابن رشد وراء فهم الرشدية اللاتينية. لكنه سرعان ما يؤكد أن ابن رشد من أعظم رواد التويز فى العالم. ويؤكد كذلك أن أفكار ابن رشد فى التمسك بالعقل كانت ولا تزال لها تأثيرها البالغ فى الشرق والغرب. فكيف نربط فى وقت واحد بين رفض الرشدية اللاتينية وبين القول بعالمية وتويز ابن رشد ؟! لا يجيب د. محمود حمدي زقزوق عن هذا السؤال!

وهكذا فربط ابن رشد بالتويز الغربى الحديث هو ربط يتبناه تيار خاص فى الفكر الغربى المعاصر يمثل على سبيل المثال لا الحصر بول . كيرتس وفرن بولو وأوليفر ليمان وتيموثى ماديجان وشيفان فيلد وغيرهم من المفكرين الغربيين القلائل الذين يقولون بارتباط ابن رشد والتويز أما فى مصر فيبدو د. مراد وهبه وحيداً فى هذا السياق.

وكان د. مراد وهبة قد بدأ فى ربط ابن رشد بالتويز فى البحث الذى ألقاه فى عام ١٩٧٧ فى مؤتمر للفلسفة الإسلامية فى سان فرانسيسكو بعنوان " ابن رشد والتويز" حيث

قال بأن فلسفة ابن رشد قد أسهمت في توليد التنوير في الغرب على حين أنها فشلت في هذا التوليد في الشرق.

وكان التنوير في الغرب قد بلغ ذروته في القرن الثامن عشر الفرنسي على وجه التحديد. وهو القرن الذي هوى فيه المفكرون "دقة العبارة ورقتها، النعومة التي تقوم على الإحياء بأمور كثيرة دون أن تنطق بها، والرقعة التي تألف استعمال العبارات الجازمة"^(٩). ولا يعارض القرن الثامن عشر أن تكون لأفكارنا بنية منطقية على غرار أفكار القرن السابع عشر، غير أن هذه البنية تظل خفية. إن ما يهواه المفكرون في القرن الثامن عشر هو "رهافة الفكر" والرهافة - وهذا ما يعرفونها به - هي تارة تشبيه أو كناية رقيقة، وتارة استعمال كلمة نعطيها معنى ونجعلها في الوقت نفسه قابلة لحمل معنى آخر، أو أنها كذلك علاقة دقيقة بين أفكار ليس بينها إلا القليل من الصلة المشتركة، أو التقريب بين أشياء متباعدة أو تفريق ما يبدو لنا موحدًا. إنها طوراً تشبيه جرىء وطوراً استعارة جسور تكشف ما بين كائنات معروفة من علاقات خاصة ما كانت مرئية من قبل. إنها في عدم التعبير عن الفكرة إلا بنصفها ثم تركها تتكشف. رهافة الفكر هي ما يسبغ على الحديث كل فتنة ففي الأحاديث يبدو كل شيء وكأنه يتلو بعضه بعضاً مثلما تتتالي الأفكار في رؤوسنا، إلا أننا لا نعرف كيف جاءت الأفكار وربما ظن أحد الناس أنه امتلك الحقيقة المطلقة ولكنها تغلت منه في الحال"^(١٠). ويؤكد القرن الثامن عشر كذلك "أن كل تأكيد للحديث يجب أن يتضمن قدرًا كافيًا من عدم الدقة بحيث يمكن للآخرين أن يقولوا: "ولكن ينبغي أن تظل في الحديث جوانب غامضة تستثير الذهن"^(١١). وكان الفكر في القرن الثامن عشر يبحث عن طرق جديدة لإدراك الأشياء وإيضاحها، وكان يريد أن يكشف جميع مظاهرها وأدق فوارقها وأن يقيم بينه وبينها علاقات جديدة، وأن ينظمها على خلاف ما نظمت به حتى ذلك الحين، وأن يجد كل درجات التعبير الموافقة لهذه المكتشفات"^(١٢). وهو يعبر بألف طريقة وطريقة عن تنوع المعطيات الحية، ويرفض النموذج الهندسي في التفكير الذي يعجز عن استيعاب التنوع نفسه، فهو يفكر بالخيال أوتخيل بالفكر، الإمكانات المتاحة كافة، إن وجهات النظر المختلفة غير محدودة، وكذلك الواقع غير محدود، بمتاز القرن الثامن عشر عن غيره من القرون الفكرية بمزية المرونة

العقلية التي تدرك المتغيرات من داخل الأمور المتشابهة كما تدرك بالقدر نفسه التأليف من داخل التناقض .

ولم يعد العالم في القرن الثامن عشر مبنياً بناء متيناً متماثل الشكل، ولم يؤد ذلك قط إلى إزالة الميتافيزيقا، بل كان يمتلك القرن الثامن عشر رؤية ميتافيزيقية للعالم، وجاوز هذا الامتلاك " سيادة العقل" الذي أصبح قادراً على الخلق والإبداع.

هناك إذن من جهة اعتبار العالم تنوعاً لا ينتهى، أبدى الحركة واعتبار الكون "مجموعة هائلة من الأجسام يؤثر بعضها في بعض، ويتقوض فيها كل شيء على شكل ما ليعاد تركيبه بشكل آخر، ولا يمكن أن نكون في هذا الكون مادة متجانسة، فالمادة تجد ذاتها لا بد أن تكون غير متجانسة. ينبغي أن تكون هناك لانهاية من العناصر المختلفة، ولكل من هذه العناصر طاقته الخاصة وأسلوب عمله الخاص، وذلك كما في هذه الكومة من الذرات التي نسميها " ناراً" فإن لكل ذرة منها طبيعتها وعملها وهناك قوانين بمقدار ما هناك من فوارق بين الصفات الخاصة بكل ذرة . ولا يمكن أن يكون في هذا الكون هدوء مطلق، فكل شيء فيه هو في حالة حركة، وكل شيء فيه في حالة مد دائم، والأشكال التي تأخذها الأشياء في الطبيعة ليست أبداً نهائية.(١٣).

وإذا كان صحيحاً أن ابن رشد قد مهد إلى توليد هذه المجموعة من الأفكار التنويرية فإنه من المحال أن نقول إنه ساهم في توليد القول التنويري بأن ليس في العالم مبدأ بنوي واحد يضاف عليه الوحدة أو التماسك. غير أن الوضعية العلمية التي ميزت التنوير وبلغت ذروتها في فكر أجست كومننت مردودة إلى قول ابن رشد بالفلسفة البرهانية، أي بالفلسفة العلمية فقد ارتبط عصر التنوير بتصور معين للعلم، ويقول هذا التصور بأن العلم لا يبحث عن تأسيس نظام للطبيعة ولا يبحث بحثاً موضوعياً عن علاقات واقعية بين الأشياء إنما يحاول العثور على خير هذه العلاقات ويترك الفكر المرفه " نسبية " العلاقات المختلفة بين الأشياء ولا يعطيها " قيمة " مطلقة" أما القيمة المطلقة فهي مهمة " الميتافيزيقا". وقد فصل أجست كومننت فيما يبدو بين اللاهوت والميتافيزيقا. العلم الوضعي دون أن ينفي وجود مبدأ بنوي كبير يوحد تنوع العالم – " إن للعلم إذن غاية مزدوجة: أن يباشر البحث عن وقائع جزئية، ثم ينشئ بعدئذ ما حققه من مكتشفات متتالية أو آنية، لا مذهباً بالمعنى الميتافيزيقي بل كلا حسن التنسيق تجمع فيه

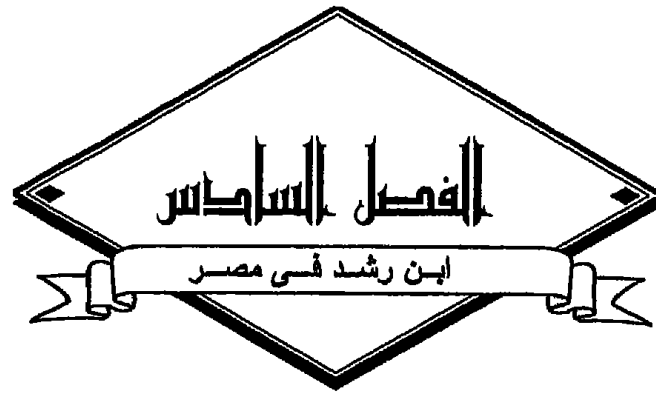
الأشياء فى أنواع وتصنف فى فصول أو تتكامل فى مجموعات خاضعة لبعض القوانين".^(١٤).

لكن ذلك لم يكن قد دفع ابن رشد إلى نفي أن غاية العلم هى البحث عن مبدأ تنوع العالم. وهذا فرق كبير بين ابن رشد والتطور الأوروبى الحديث أو بينه وبين تيار من تيارات التطور الأوروبى الحديث. فابن رشد وإن كان عقلياً فهو ليس فيلسوفاً ملحداً. لذلك يذكرنا د. على عبد الفتاح المغربى فى بحثه " التأويل بين الأشعرية وابن رشد" بما قاله ابن رشد فى "فصل المقال" أن تأويل المبادئ كفر^(١٥). وهو واحد من ضربين من الخطأ فى الشرع. وهو خطأ ليس يعذر فيه أحد من الناس. تأويل مبادئ الشريعة إذن كفر وتأويل ما بعد مبادئ الشريعة " بدعة" و"الجاحد" لله والنبوات والسعادة الآخروية والشقاء الآخروى وهى أصول الشرع " كافر"، "معاند بلسانه دون قلبه".

وهكذا لم يمهّد ابن رشد لتيار معين من تيارات الإلحاد الأوروبى الحديث ولم يمهّد لتيار معين من تيارات التطور الأوروبى الحديث إما ساهم فى التمهيد إلى العقلانية الدينية أو المجاوزة العقلية للنصوص المقدسة.

هوامش

- (١) ابن رشد والتنوير، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣
- (٢) المرجع السابق، ص ٤٤
- (٣) المرجع السابق، ص ٤٥
- (٤) المرجع السابق، ص ٤٧
- (٥) المرجع السابق، ص ١٠٠
- (٦) المرجع السابق
- (٧) المرجع السابق، ص ١٠٥
- (٨) المرجع السابق، ص ١٠٦
- (٩) برنار غروتويزن، فلسفة الثورة الفرنسية، ترجمة عيسى عصفور، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٧٠، ص ٢٥.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٢٦
- (١١) المرجع السابق، ص ٢٦-٢٧
- (١٢) المرجع السابق، ص ٣١
- (١٣) المرجع السابق، ص ٣٢-٣٣
- (١٤) المرجع السابق، ص ٤٠
- (١٥) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٥.



القراءة الإستيمولوجية لابن رشد

"وأعتقد أنه إذا أجرى تعديل على إبستمولوجيا ابن رشد فإن من شأن ذلك أن يفضي إلى مرجعية أفضل في تناول مسائل الإبستمولوجيا"

بول كيرتس

تعتمد القراءة الإبيستمولوجية لابن رشد النظر إلى أعماله من ناحية فلسفة العلوم، سواء أكانت العلوم تمدنا بمعرفة الطبيعة (كالفيزياء أو الكيمياء أو علم الفلك) أو بمعرفة الإنسان والله (كعلم الكلام وعلم الفقه وعلم السياسة). والقراءة الإبيستمولوجية هي القراءة التي تحاول الإجابة عن مجموعة متنوعة ومختلفة من الأسئلة: هل نعتبرها - أى العلوم - حقيقية؟ وإذا اعتبرناها حقيقية هل من حقنا أن نقول بأن نتائج العلم حقيقية؟ ما طبيعة نتائج العلم؟ ما المقصود بالضبط بنتيجة العلم؟ ماذا ينبغي أن نفهم من وراء مصطلح "الحقيقة"؟ حينما يكون أو يدور مصطلح فى أفلاك العلم. كيف يمكن أن نصل إلى مثل هذه المعرفة؟ ماذا نستطيع أن نستخلص فيما يتصل بملكة المعرفة وبوجود المعرفة العلمية بالطبيعة؟ ماهو الإمتداد الذى نستطيع أن نعطيه إلى نمط المعرفة القادم من العلوم الطبيعية والإنسانية؟ ما هي الصلة التي تربط العلوم بالأنماط المعرفية الأخرى؟

ولابد من أن تحدد مجال البحث. لن نتساءل على سبيل المثال عن المعرفة العلمية الرياضية، لأن ابن رشد قال مسبقا إن معادلات الرياضيات تصبح ضرورية بصرف النظر عن مطابقتها للواقع. "ويتسق هذا الموقف مع تعاليم أرسطو الذى رأى أن الرياضيات لا تستمد صدق قضاياها من حس أو تجربة وإنما من تطبيق قواعد الاستدلال التى يقدمها المنطق وندرك صدق قضايا كلا العلمين قبلها أو بحس أو إدراك مباشر، كما يتسق هذا الموقف مع مواقف المنطقة المعاصرين" كما يقول د. محمود فهمى زيدان فى مقدمة بحثه فى نظرية ابن رشد فى النفس والعقل" فى الكتاب التذكارى إشراف د. عاطف العراقى. ليس لمعادلات الرياضيات وجود واقعى وإنما تصورات فى الذهن نصل إليها بالتجريد.

وفى القرن العشرين تم الاعتراف بالطابع الافتراضى الاستتباطى للمعرفة الرياضية. وأما فى علم الفلك فقد كان اليونان - فى إطار تفسير الظواهر الفلكية - ينسبون إلى النجوم مسارات ومسافات متغيرة تبعا للأرض ومن ثم كانوا يحددون الأشكال الرياضية والمنحنيات والسرعات. كان عندهم إذن رياضيات وتصورات رياضية يستخلصون منها النتائج المعنية، وذلك على نحو يوص بأنه لا يوجد علم ممكن عند اليونان بدون استعمال الرياضيات. وقد أشار ابن رشد فى "كتاب الكليات

فى الطب" إلى أن علم الأحياء يستخلص نتائجـه استخلاصاً أكيداً ويقينياً شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى دون أن يستعمل الرياضيات.

إذن ما شروط استعمال الرياضيات فى نمط معرفى معين؟ ماذا تضيف الرياضيات إلى المعرفة العلمية؟ هل التصور الرياضى شرط ضرورى لعلمية المعرفة؟ أن لا يكفى أن تقول إن الرياضيات تضيف الدقة إلى المعرفة والعلم لأن الدقة لا تلعب دوراً معيناً فى العلم. ماذا يعنى رد علوم إلى علوم أخرى كما أراد د.مراد وهبة أن يرد العلوم الطبيعية إلى الفيزياء والفيزياء النووية على التخصيص ورد العلوم الاجتماعية والانسانية إلى السياسة؟ يعنى الرد فى جوهره تحديد كل تصورات العلوم الأخرى على أساس تصورات أساسية فى بعض العلوم واستخلاص قوانين العلوم الأخرى من بعض العلوم. هل يعنى ذلك استعمال المناهج نفسها أم الرد؟ هل يجب أن نستعمل فى جميع المعارف العلمية مناهج واحدة؟ هل فى مقدورنا أن نصوغ علوماً مثل علم الكلام أو علم الفقه أو علم النص بنقل بسيط للإجراءات المتوفرة فى العلم الوضعى؟

لدراسة القراءة الإبستمولوجية لابن رشد هناك تحديد لابد من وضعه هو أن نقتصر على العلوم التى لايقبل طابعها العلمى النقاش وهى العلوم المبنية على البرهان عند ابن رشد لا الرياضيات فى ذاتها أو علم الكلام أو علم الفقه. فالعلوم البرهانية تبين المنهج العلمى فى صورته البسيطة والواضحة.

والسؤال الإبستمولوجى يخص المنهج العلمى الداخلى للعلم. ومن ثم فإن كل الاعتبارات والادعاءات الخاصة بالهدف الذى لابد أن نجرى وراءه فى بناء العلم أو تلك الاعتبارات حول أصل العلم هى اعتبارات غير جوهرية، بل هذه الاعتبارات هشة للغاية، وعلى سبيل المثال الربط بين العلوم والتقنيات لم تظهر منذ القدم إنما هى فكرة حديثة ترجع إلى القرن السابع عشر. ومعظم الكشوف التقنية لا تحيل إلى وضع تقنى بعينه، وأما الاختراعات التقنية فهى بلا أساس علمى، على سبيل المثال تقريباً كل علم الفلك لا يخدم سوى علم النجوم وتطور التقنيات فى العصور الوسطى ولم يتم على أساس علمى، وإذا كان العلم انطلاقاً من القرن

التاسع عشر قد ارتبط بالتقنيات فإن هذا الارتباط قد تم فى ضوء نوع معين من التقنيات هى تقنيات التجريب كالساعة والعدسة والميكرو سكوب.

وحتى القرن السابع عشر كان تصور أرسطو للعلم هو التصور السائد، وكان سبب سيادة تصور أرسطو حتى ذلك الوقت برغم العيوب الجوهرية والافتراضات المجانية أن البرهان منتج. وهو كذلك لأنه يعطى طابعاً عقلياً للتجربة المحسوسة، أى أنه يبدو أنه يؤكد التجربة اليومية للبشر كافة. فأرسطو يكرر مع قليل من التجربة المعطيات المباشرة للحواس.

فبدأ جاليليو ونيوتن فى القرن السابع عشر فى تحديد طموحات المعرفة وفى افتراض الأسلوب الميكانيكى فى التفكير (المادة تعادل الصورة والحركة) وفى اعتبار الواقع رياضياً من حيث جوهره لا من حيث ظاهره. وتخلّى جاليليو - فى سياق اكتشاف النقط الشمسية - عن التفسير الأرسطى وأحل محله نمطاً جديداً من "المعقولة" العلمية. ولم يعد تفسير الشمس يميل إلى جوهرها، إنما أصبح يميل إلى إنتاج الشمس وتفككها، ووضع مكان سلطة الكتب سلطة الوقائع كما يقول جاليليو فى الرسالة الثانية حول النقط الشمسية.

كيف إذن مهد ابن رشد للعلم الحديث وقد ارتبط بأرسطو؟

- أ - القياس البرهاني

وفى الإجابة عن السؤال يركز محمود أمين العالم و د. فؤاد زكريا على الجانب المعرفى/ الإبستمولوجى فى فلسفة ابن رشد. وناقشا على وجه التحديد بحث د. أحمد محمود صبحى حول أحكام الفلسفة البرهانية والتوفيق بين الدين والفلسفة. وذلك فى الكتاب التذكارى نفسه الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى ونشره المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٣.

واختلف محمود أمين العالم مع د. أحمد محمود صبحى من منطلق التأكيد على أن الفكر الرشدى "خليط من أقيسة جدلية وأقيسة برهانية"^(١). وأن ابن رشد يدعو إلى استعمال البرهان للوصول إلى "أقصى اليقين"^(٢) لأن البرهان هو "الشكل الأتم"^(٣) فى المعرفة. وينفى العالم عن حق التناقض الوهمى بين المنطق الأرسطى

وبين الدين الأرسطى لأن البرهان طريق بين ثلاثة مناهج لمعرفة الله. والاختلاف بين د. صبحى وبين العالم أن العالم يقول بأن الفلسفة برهانية على حين يقول د. صبحى بأن الفلسفة تنأى عن المفهوم الأرسطى للبرهان^(٤). ورغم إعلان د. فؤاد زكريا عن ضرورة إعادة النظر فى تصور د. صبحى فهو يؤكد تحليل د. صبحى حينما يقول إن أفلاطون كان يرى أن الفلسفة مرتبطة "بالجدل"^(٥) وبأنها تقود إلى "نقائض"^(٦) مما يحول دون "إصدار حكم قاطع على طبيعة الحجج الفلسفية"^(٧).

ومن ثم يرتبط محمود أمين العالم و د. فؤاد زكريا و د. مراد وهبة بالفلسفة البرهانية على حين يشك د. صبحى فى تصور ابن رشد للربط بين الحكمة والفلسفة. ويفصل فصلاً نهائياً بين البرهان العلمى وبين طبيعة الحجج الفلسفية.

والتصور اليونانى القديم الذى مهد لتجديدات التصور الحديث فى القرنين السابع والثامن عشر هو التصور نفسه الذى كان أساساً لتصور ابن رشد عن العلم. وأصبحت الإستمولوجيات الحديثة تنظر نظرة نقدية إلى العلم. وهى تنظر من زاوية الوصف (أو التوصيف) والتقنين والتأسيس. أصبح ضرورياً أن نميز بين العالم والفيلسوف، فـ "رودولف كارناب" فيلسوف أكثر منه عالم وآلبرت أينشتاين عالم أكثر منه فيلسوف، وابن رشد فيلسوف أكثر منه عالم وإن كان يقول بالفلسفة العلمية، البرهانية لا بد أن نميز بين العلم وبين الخطاب حول العلم، بين العلم ودراسة العلم. ولم يكن أرسطو إستمولوجيا بالمعنى الحصرى، الضيق لكلمة إستمولوجيا فقد أسس تصوراً معيناً حول ما يجب أن يكون عليه العلم وأدواته، وحل بعضاً من التصورات البنيوية مثل العلة والبرهان والاستقراء ومبدأ البرهان. وكان أرسطو يربط ربطاً إستمولوجيا واضحاً بين العلم والبرهان. وذلك كما يبين من تحليلاته فى المنطق، وإذا كان هناك أخلاف بين خصائص البرهان بالتصور الأرسطى فى "التحليلات" وبين خصائص البرهان بالتصور الرشدى فى "تلخيص البرهان" فإن التطوير الذى أنجزه ابن رشد لا يخص خصائص البرهان التقنية إنما يخص استخلاص النتائج بالنسبة للفلسفة فى ضوء ارتباط العلم والبرهان، أى أنه يستخلص أن الفلسفة برهانية، علمية. وهذا الطابع البرهانى لا يتعارض مع تصور فلسفته وغيرها من الفلسفات "الجدلية". فنحن نؤيد القول بأن فلسفة ابن رشد "جدلية"

بطبيعتها، ونستخلص نتيجة معاكسة للنتيجة التي توصل إليها د. صبحى حيث يفصل بين الفلسفة وبين التأويل، وبين التصور الأرسطى للبرهان وبين التوفيق الدينى الفلسفى.

وهذا لا يعنى أننا نؤيد فكرة أن الفكر الرشدى "خليط" من أقيسة جدلية وأقيسة برهانية. فليست الصلة التي تربط الطابع الجدلى للفلسفة بالبرهان هو "الخليط" إنما لابد أن نميز بين المعنى الموسع وبين المعنى الضيق. فبالمعنى الضيق، التقنى، المنطقى، الفلسفة ليست برهانية إنما هى أقرب ما تكون إلى بناء الأقيسة الجدلية. وبالمعنى الموسع لمصطلح "البرهان" الفلسفة خطاب برهانى قاطع. وهو موسع أيضا لأنه لابد أن يتسع إلى "التأويل" الذى لا يلجأ إلى "المعنى القاطع" بل إلى "المجاز" أى إلى إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة الملتبسة.

يقول أرسطو فى "التحليلات الثانية" بأن المعرفة العلمية هى معرفة "كل واحد من الأمور على الإطلاق، بالحقيقة، لأعلى طريق السوفسطائيين، الذى هو بطريق العرض"^(٨). ومعرفة كل واحد من الأمور على الإطلاق هى معرفة "العلة التى من أجلها الأمر، وأنها هى العلة، وأنه لا يمكن أن يكون الأمر على جهة أخرى. ومن البين أن هذا هو معنى: "أن يعلم". "والعلم اليقين هو العلم بالبرهان. ويعنى أرسطو بالبرهان "القياس المؤتلف اليقينى". ويعنى بالمؤتلف اليقينى الذى نعلمه بما هو موجود لنا" وقد يكون القياس من غير طريق القياس البرهانى، أى قد يكون ديا لكتيا لقطقيا، جدليا، يقتضب أحد جزئى المناقضة: أيهما كان. والمناقضة هى التقابل الذى لا وسط له بذاته.

البرهان هو القياس الذى يسميه "أبو دكسيس" " أرجو إعادة كتابتها بخط واضح ".

فليس كل استدلال قياسا. وليس كل قياس برهانا. وأما موضوع العلم فهو الضرورى والثابت، أى ما يتعارض مع العرض. والبحث فى علة الأمر يؤكد الطابع اليقينى للعلم على عكس ادعاء نقاد تنوع الأقيسة.

والكلى الذى هو موضوع العلم لابد من تفصيله. لماذا نقول "محمول على كل الموضوع"؟ ولماذا هو بذاته؟ ولماذا هو يقال بالكلى؟

١ - هناك الكلى المحمول على ماهية الموضوع: ماهو بذاته هو أولاً، الأشياء الموجودة فيها هو الشيء: مثال ذلك فى المثلث الخط، وفى الخط النقطة. وذلك أن جوهرهما هو فى هذه الأشياء؟

٢ - هناك الكلى الذى يحتوى على الموضوع فى جوهره: "الأشياء التى توجد فى القول المخبر ما هو الشيء، وجميع ما كان من الأمور توجد الأشياء، تلك الأشياء موجودة فى القول المخبر ما هى. مثال ذلك الاستقامة والانحناء موجودان للخط؛ والفرد والزوج للعدد؛ والأول والمركب؛ والمتساوى الأضلاع والمختلف الطول" (٩).

٣ - هناك الكلى الذى هو موجود بذاته للجزئيات والآحاد. "قأما جميع الأشياء التى ليست موجودة على أحد هذين الضربين فهى أعراض: مثال ذلك الموسيقى "أو البياض للحيوان" (١٠)، طريقة وجود وليست طريقة حمل، إنه الكلى المحمول على شىء آخر موضوع، مثال ذلك بالنسبة إلى مَنْ يمشى إنما هو الذى يمشى، وهو شىء آخر. وكذلك الأبيض. "وأما الجوهر وكل ما يدل على المقصود إليه بالإشارة فليس إنما هى موجودة من حيث هى شىء آخر. - فالأشياء التى لا تقال على شىء موضوع أقول إنها بذاتها، وأما التى هى على موضوع فهى أعراض" (١١).

٤ - "وأيضاً على نحو آخر ما هو موجود لكل واحد من أجل ذاته، أقول إنه بذاته؛ وأما ما لم يكن من أجل ذاته فعرض. مثال ذلك إن كان عندما يمشى إنسان ما حدث البرق، فذلك عَرَض؛ وذلك أنه ليس إنما حدث البرق من أجل إنه يمشى، لكن إنما تقول إن هذا عَرَض واتفق. فأما إن كان من أجله نفسه فهو بذاته: مثال ذلك أن يكون الإنسان عندما يُنحر يموت، فنقول إن ذلك بذاته من قبل أن ذلك كان بسبب الذبح؛ وليس إنما عرض واتفق أنه عندما ينحر يموت" (١٢).

والمعنيان الأول والثانى فقط هما المعنيان اللذان يحددان فى نظر أرسطو ماهية الخطاب العلمى كمركب من خصائص حملية لا يخضع أبداً إلى قاعدة التعاقب التى قال بها فيما بعد ذلك الرواقيون. ومشكلة المعنى أن الزوج ينطوى

على العدد في ماهيته ومن غير الصحيح أن يكون كل عدد زوجاً فكل عدد إما زوج أو فرد. والحمل الكلى لا يمكن أن يحدث إلا في حدود "نوع" معين.

وأما الخلاصة بالنسبة لأرسطو فهي التأكيد على علة الأمر وعلى أن هذه العلة هي علة الأمر نفسه وعلى ضرورة الأمر ومن هنا أن موضوع العلم هو الضروري وليس العرض ومن هنا أيضا أن يكون موضوع العلم "كلية".

ويؤكد أرسطو أولا في المقالة الأولى من كتاب "طوبيقا" عن الغرض من البحث في الجدل. وموضوعه "إن القياس قول إذا وضعت فيه أشياء لزم من تلك الأشياء الموضوعه شيء آخر غيرها من الاضطرار" (١٣). والبرهان هو القياس الذي يكون من مقدمات

(١) صادقة. (٢) أولية.

(٣) غير ذوات أوساط. (٤) أعرف من النتيجة.

(٥) أكثر تقدماً من النتيجة (٦) علل النتيجة.

ولابد أن تكون مقدمات القياس البرهاني "صادقه" لأنه يلزم من قبل أنه لاسبيل إلا أن يعلم ما ليس بموجود ولأنه ليس في مقدورنا أن نستخلص أمراً من الكذب. ويلزم كذلك أن تكون المقدمات أولية وغير ذات توسط، أي أن تكون لم يحصل عليها من خلال البرهان. وعلم المبادئ التي تقبل البرهان هو البرهان نفسه. إلا أنه يلزم نقطة انطلاق وإلا أصبح العلم إما محالاً (برهان الدور) أو دائرياً (برهان المبادئ بالمبادئ الأخرى). والاستقراء هو أداة أو حل هذا الإشكال حيث تخضع معرفة المبادئ الأولى إلى الاستقراء : "فمن البين إذن أنه قد يلزم أن نفهم الأوائل بالاستقراء، وذلك أن الحس إنما يحصل فيها الكلى بالاستقراء على هذا النحو". (١٤)

وأما أن تكون المقدمات في البرهان أعرف وأكثر تقدماً من النتيجة فإن ذلك يرجع إلى أن "كل تعليم وكل تعلم ذهني إنما يكون من معرفة متقدمة الوجود. وهذا يكون لنا ظاهراً، إذا ما نحن نظرنّا في جميعها : وذلك أن العلوم التعليمية بهذا النحو تحصل عندها، وكل واحدة من تلك الصناعات الأخرى. وعلى هذا المثال يجرى الأمر في الأقاويل أيضاً، أعني التي تكون بالمقاييس والتي تكون باستقراء؛ فإن

كلا العلمين إنما يحملان التعليم بأشياء متقدمة المعرفة : فبعضها يقتضِب اقتصاباً على (أساس : إما أن الخصوم) فهموا، وبعضها يبين من قبل ظهور الجزئى..^(١٥) والمقدمات الأعراف والأكثر تقدماً من النتيجة على جهتين : فبعضها موجودة بذاتها وبعضها الآخر أن نفهم فيها على ماذا يدل القول، أى أن أرسطو يميز بين المقدمات الأعراف والأكثر تقدماً بالنسبة لنا.

ويقوم البرهان العلمى على المقدمات الأعراف تقدماً الموجودة بذاتها وبين المقدمات الأعراف والأكثر تقدماً بذاتها لأنها الأبعد عن الحس.

وأما ضرورة أن تكون مقدمات البرهان العلمى عللاً للنتيجة فإن ذلك يرجع لأننا نعرف من طريق "علة".

وقد رفض المحدثون الطابع اليقيني، المطلق، الحقيقى، التام (أبو دكسيس) للعلم عند أرسطو أى أنهم رفضوا كون البرهان الشكل التام والنهائى للعلم.

وأما ماذا كان موقف ابن رشد؟ هل ربط بين البرهان والحكمة على حين كان البرهان مرتبطاً عند أرسطو بالعلم؟ هل هذا خلط أم إنه إيداع خاص؟ إن البرهان عند أرسطو هو وحده الذى يقود إلى اليقين بصدد العلم لاصد الدين أو الفلسفة أو الحكمة. ولايسلك الفلاسفة سبيل البرهان بل علماء الحساب والهندسة والمناظر هم الذين يسلكون هذا السبيل ووفقاً للتصور الأرسطى للبرهان فقضايا العلم هى القضايا البرهانية وليست القضايا الفلسفية. لاشك أن أصح العلم عند أرسطو وأشد يقيناً هو الشكل الأول من البرهان. ولعلاقة بين هذا اليقين العلمى وبين الاضطراب الفلسفى. لذلك يقول د. أحمد محمد صبحى إن الفلسفة بطبيعتها تتأى عن المفهوم الأرسطى للبرهان^(١٦). فإن منطلق البحث الفلسفى عند أرسطو ليس القضايا الصادقة بذاتها إنما طريق الفيلسوف المحفوف بالشكوك. إنه لضرورى للوصول إلى المعرفة الفلسفية التى نطلبها من أن نتعرض فى البداية إلى العقبات التى تأتى إلى النقاش فى المقام الأول. إنه لضرورى إذن من أن نتعرض فى البداية إلى مشكلة أو إلى مجموعة من المشكلات. وبدون المشكلة المبدئية قد

يصبح التصور الفلسفى بلا معنى أو قيمة وهى مشكلات ليس من الممكن إيضاحها، توضيحها، فهمها إلا تبعا لتسلسل حلها المنطقى.

وفى مشكلة الحكمة والشرعية عند ابن رشد المشكلة هى تعدد وجوه الحق وصلاتها وتقديمها المتبادل ومن البديهي أن تتغير عناصر المشكلة إذا اعتقدنا أو اكتشفنا. مشكلة أخرى.

ويعرض د. أحمد صبحى الشكوك - التى لا يسميها بهذا الاسم - التى انطلق منها ابن رشد على النحو التالى :

١- " نقد مذاهب السابقين تمهيداً لإقامة المذهب الفلسفى الجديد على أنقاضها، وتلك سمة بارزة فى فلسفة ابن رشد لاتكاد تخلو منها نظرية من نظرياته" (١٧).

٢- " نقد القائلين بأن معرفة الله تتم بالمسمع، وإلى المعتزلة والأشاعرة فى استنادهم إلى دليل الحدوث واستدلالهم على حدوث العالم بتركيب الأجسام ثم انتقدهم مرى أخرى فى استدلالهم على وحدانية الله بدليل التمانع" (١٨).

٣- وجد فى كثرة الأدلة على وجود الله "تتافراً" (١٩).

٤- " رد الاتهام الموجه إلى الفلاسفة أنهم عطلوا الصفات الإلهية وبخاصة صفتى الإرادة والفعل منتقدا الأشاعرة فى قولهم بصفات ليست هى الذات ملزماً إياهم أن يكون هناك حامل ومحمول وأن تكون الذات مركباً" (٢٠).

٥- " رد على الغزالي إنتقاداته الفلاسفة بصدد العلم الإلهى فإنه رد الاتهام إليه وإلى الأشاعرة بقياس الغائب (الله) على الشاهد (الإنسان) بتمسكهم بعلم الله بالجزئيات" (٢١).

٦- رد فى "تهافت التهافت" القول بتهافت الفلاسفة للغزالي (٢٢).

٧- " نقد موجه لنظرية الفيض أو الصدور حيث العقل الأول صادر عن الله ضرورة" (٢٣).

٨- " نقد آخر موجه إلى نظرية العقل الفعال حيث صور الموجودات الطبيعية فى عالم الكون والفساد راجعة إلى استعدادها لتقبل هذه الصور من العقل الفعال



عقل فلك القمر وبذلك خلط الفلاسفة بين ما هو كونى فلكى وما هو إنسانى
عقلى" (٢٤).

٩- " نقد موجه إلى الأشاعرة فى إنكارهم الضرورة" (٢٥).

١٠- " نقد موجه إلى قول المتكلمين بحدوث العالم" (٢٦).

١١- " الشك فى مسألة البعث أو الخلود" (٢٧).

إن الشكوك تؤدي إذن وظيفتين : استكشاف مجال البحث وإجلاء
الاعتراضات الموجهة إلى مسأله الجوهرية. ويمكن أن ترجع هاتان الوظيفتان إلى
وظيفة واحدة، إذ إن الاعتراضات تمثل، فى الفلسفة، وسيلة كل استكشاف تأسيسى.

وهكذا يمثل تعدد وجوه الحق فى كتاب "فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة
والحكمة من الاتصال" الشك الرئيسى : فإن الغرض من هذا القول، أن نفحص على
جهة النظر الشرعى، هل النظر فى الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور
أم مأمور به؟ (٢٨).

وإذا كان ابن رشد يقول بأن " الشرع قد حث على معرفة الله تعالى
وموجوداته بالبرهان" (٢٩) فإن ذلك يدفعنا إلى التمييز بين معنى ضيق وبين ومعنى
عريض للبرهان عند ابن رشد. هناك المعنى الضيق الذى يقول بأن البرهان هو أتم
شكل من أشكال العلم لا يستعمل فى الفلسفة، وهناك المعنى العريض الذى يقول بأن
البرهان هو الطريقة العامة للنظر العقلى فى الموجودات. والبرهان بالمعنى العام قد
يكون جدلياً كما يتحدث أرسطو عن "البرهان الجدلى" فى الفقرة الرابعة من المقالة
الأولى من كتاب "طوبيقا" عن الجدل. وبدون التمييز بين معنيين للبرهان (البرهان
العلمى والبرهان بمعنى القياس) يدخلنا فى معارضة ابن رشد دون مبرر.

ينظر أرسطو إذن نظرة عامة إلى ما سماه "البرهان الجدلى" دون أن يخلط
بين المعنيين ويقول : "الأقاويل هى ما تحدث عن المقدمات، والأشياء التى فيها
تكون القياسات هى المسائل" (٣٠).

ويقول ابن رشد بأن القياس البرهاني يخالف القياس الجدلي وبأن البرهان أتم أنواع القياس وبأن الفلسفة تنظر في الأشياء بحسب ما تقتضيه قواعد البرهان، ومن ثم ففلسفة ابن رشد "فلسفة علمية". هو يقتبس البرهان من العلم ويضع العلم داخل إطار الفلسفة باعتبار أن الفلسفة أم العلوم، وهذا الاعتبار - اعتبار الفلسفة علماً بل وأم العلوم - هو اعتبار أرسطى أيضاً في أصله. وقد ظل هذا التصور حتى رينيه ديكارت في العصر الحديث حيث كتب يقول في الرسالة التي بعث بها إلى مترجم كتابه "مبادئ الفلسفة" وهي بمثابة تقديم له إن "الفلسفة بأسرها أشبه بشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزيقا والفروع التي تخرج من هذا الجذع هي كل العلوم الأخرى التي تنتهي إلى ثلاثة علوم رئيسية هي الطب والميكانيكا والأخلاق"^(٣١). كذلك كان ابن رشد يرى أن الفلسفة واحدة يترابط فيها علم الطب وعلم الفلك وغيرهما من العلوم. تقول د. منى أحمد أبو زيد: "يدرس ابن رشد علم الطب داخل إطار فلسفته العامة معتبره جزءاً لا يتجزأ من هذه الفلسفة لأنه أحد فروع الحكمة العملية وبالتالي تنطبق عليه الخطوط العامة لفلسفته"^(٣٢).

ويقول بول كيرتس الأستاذ بجامعة نيويورك ببافلو بأمريكا ضمن بحثه عن "الحرية العقلية والعقلانية والتتوير" في المؤتمر الدولي الخامس في عام ١٩٩٤ في القاهرة تحت عنوان "ابن رشد والتتوير" (٥-٨ ديسمبر ١٩٩٤) وبأن ابن رشد "من الممهدين للرؤية العلمية الحديثة". وبأنه قدم أرسطو في صورة الفيلسوف الطبيعي المنشغل بتفسير الكون.

كان ابن رشد - وفقاً لتحليل بول كيرتس - ينظر إلى الفلسفة اليونانية من منظور أنها علم برهاني يتجاوز حدود النشاط النظري الضيق ومن منظور أنها تبلور معرفة موضوعية عن الواقع، لأنها تستخلص نتائجها من الملاحظات التجريبية والاستدلالات المنطقية. "وهكذا تطورت الفلسفة الطبيعية الأرسطية على يد ابن رشد إلى بحث علمي عقلاني منظم عن الكون"^(٣٣). فأسهم في تخمير الثورة العلمية في أوروبا وعلى الأخص في جامعات بادوا وبولونيا بإيطاليا.

وأكد فرن بولو الأستاذ بجامعة نيويورك ببافلو بأمريكا في بحثه عن "الفلسفة المدرسية والرشدية في العصر الوسيط: تأثيرات ابن رشد في العلم الغربي" على أن

"فى بادوا طبق عدد من أساتذة الطب منطق الطب الذى دعا إليه الأطباء السابقون مثل ابن سينا وابن رشد. وهذا المنطق أفضى بدوره إلى تطوير المنهج المسمى "بالتحليل والتركيب". وفى تقديرى أنه كان ضروريا لتطوير العلم الحديث لأنه ركز على أهمية مفهوم التجربة، وهو مفهوم أكثر تعقيدا من مفهوم الملاحظة الذى قنع به أرسطو والاسكلاطيون الأوائل. فالواقع المركبة، موضع الملاحظة، كانت تحلل إلى مكوناتها حتى نصل إلى العلة المحدودة والتميزة للمرضى، وقد فصل نيفو وآخرون الكلام فى هذا الشأن. هذا بالإضافة إلى أن نظريات ابن رشد قد وضعت موضع الاختبار، فمثلا أسس ابن رشد نظرية اللون التى تقرر أن الألوان هى سمة أنية بدرجات متفاوتة لكيفيتين متضادتين: اللعان والقائمة، والمحدودة وغير المحدودة، وقد أفضى ذلك بعدد من العلماء ومن بينهم إسحق نيوتن، إلى فحص نظريات ابن رشد واختبارها والإتيان بنقيضها"^(٣٤). وأضاف فرن بولو إن ابن رشد اهتم بمسألة الجاذبية المغناطيسية. فقد كانت الجاذبية المغناطيسية "تُفسر على أنها شكل من أشكال تكاثر الأنواع، بمعنى أن حجر المغناطيس يغير أجزاء الوسط الذى يمسّه الهواء أو الماء على سبيل المثال. وهذه بدورها تغير الأجزاء المتاخمة للحديد حيث تنشأ قوة محركة تدفعها إلى الاقتراب من حجر المغناطيس. وهذه مماثلة لأنابيب القوة عند كل من جون فراداي ومكسويل"^(٣٥). واهتم ابن رشد بعلم الأجنة. "وقد كان لأفكار ابن رشد تأثير عظيم على جاليليو وجيو ردانو وبرونو اللذين كانا قد تتلمذا للرشديين"^(٣٦).

فى القرن السابع عشر الميلادى امتازت التجربة والملاحظة والامتحان الأوروبى عن غيرها من الأمم بتأسيس العلم الحديث، ولم يكن هذا الامتياز التجريبي تركيزاً على الخبرة المحسوسة، الحسية، الملموسة، التطبيقية أمل كان يدل على ضرورة بناء الخبرة وإعادة تطوير العناصر الهامشية وتقديم الكم على الكيف. وهكذا تحولت التجربة عن كونها معطى جاهزا مسبقا وأصبحت الفيزياء الحقيقية علما قريبا لا بعيداً.

وعلى حين كان أرسطو لا يميز بين الفيزياء وبين الميتافيزياء فإن ابن رشد - تبعاً لتحليل د. محمد المصباحى - قد فرق بين الفلسفة والعلم على أساس مفهوم

"جهة النظر" الذى يمكن من النظر إلى المبادئ نفسها من اعتبارات مختلفة، ووجهة النظر الفلسفى - من منظور د. محمد المصباحى - هى (١) أسباب جنس الموضوع (٢) وأحد الموجودات (٣) ومفهوم بالذات وعلى الكنه. وأما مفهوم "أسباب جنس الموضوع" فهى الأسباب التى تتميز عن الأسباب الخاصة بموضوع الصناعة. تدخل الأسباب الخاصة بموضوع الصناعة فى براهينها. أما أسباب جنس موضوع الصناعة فترجع بأصلها إلى الموجود بما هو موجود (الطبيعة العليا). من هنا يحق لصاحب الصناعة الجزئية أن يبرهن على الأسباب الخاصة بموضوعه. أما الفيلسوف الأول فيقدم أسباب جنس موضوع الصناعة الجزئية. وبالنسبة لمفهوم أحد الموجودات، "فالفرق بين نظر العددي ونظر الفيلسوف إلى العدد، هو أن نظر الأول وظيفى معرفى، ونظر الثانى أنطولوجى مطلق، أى أن الغاية من نظر العددي إلى العدد هو إنتاج معارف متماسكة انطلاقاً من مبادئ أولى بيّنة بنفسها أو مفترضة ويهمه إن كان العدد موجود بالفعل خارج النفس أم لا. فى مقابل ذلك، لا يهتم الفيلسوف بالعدد من حيث هو موضوع صناعة جزئية، أى من حيث هو موضوع منفعة وسلطة معرفية، بل من حيث هو أحد الموجودات وحسب" (٣٧).

وهذا التفريق الرشدي بين العالم والفيلسوف يؤسس فى جانب من جوانبه الرئيسية للتفريق الحديث والمعاصر بين الميتافيزيقا والعلم، بين العلم الزائف والعلم، بين الأيديولوجيا والعلم، بين اللغة المنطقية واللغة الفارغة.

وتقول د. منى أحمد أبو زيد فى بحثها "ابن رشد طبيباً" ضمن الكتاب التذكارى الذى أشرف عليه د. عاطف العراقى، تقول د. منى أحمد أبو زيد بأنه قد "أمر بحرق جميع كتبه ماعدا كتبه فى الحساب والفلك والطب لأنها كانت من الكتب المعول عليها فى هذه المجالات كما أنها لم تكن محل نقد ومهاجمة من خصوم ابن رشد من المتكلمين والفقهاء" (٣٨). وتقول فى موضع آخر بأن ابن رشد قد درس علم الطب داخل إطار فلسفة العامة. فلا تثير السؤال الإستمولوجى الأساسى: كيف لا تحرق كتبه العلمية إذا كانت داخلية فى إطار فلسفته العامة؟ كيف لا يكون علمه موضع جدل وهو جزء لا يتجزأ من فلسفته؟ هذا هو السؤال المعرفى.

ب - الهرمنيوطيقا : مشكلة التأويل

اعتاد الباحثون والدارسون أن يشتقوا الكلمة الأجنبية "HERMENEUTICS" من اليونانية "أرمينين"، أى أن الهرمنيوطيقا هو علم التأويل أو التفسير وبنحو خاص تفسير الكتاب المقدس. وبناء على ذلك فقد اعتادوا ترجمة كتاب أرسطو "بارى أرمينياس" بأنه كتاب "فى التأويل" أو "فى التفسير" على حين أن الكتاب يبحث "فى العبارة" أو فى القدرة (الملكة أو القوة) على الكلام. وبالتالي فقد أثر ابن رشد بجدية فى ميدان المنطق حيث أضاف التأويل الذى لم يكن أرسطو قد بحث فيه، ذلك أن المنطق عند أرسطو يخلو من التأويل. فالسؤال الأساسى الذى يثيره كتاب أرسطو فى العبارة هو: ما الصلة التى تربط اللغة بالأشياء والحق؟ ما هى مكونات اللغة؟ ويرفض أرسطو كما سبق أن رفض أفلاطون أن يجعل من اللغة أداة سفسطائية للإقناع. ومحور "فى العبارة" هو تحديد شروط فصل المقال أو الخطاب الحقيقى، لذلك يدرس أرسطو الكلمات من حيث طبيعتها ويحاول أن يميز بين الحق والباطل، كيف الوصول إلى الحق؟ ما الاسم؟ ما الكلمة؟ ما الإيجاب؟ ما السلب؟ ما الحكم؟ ما العدل؟

يبحث أرسطو فى الصدق الدال على الآثار التى فى النفس ولا يبحث فى الهرمنيوطيقا. وعلى عكس جوتييه وجيلسون فى زعمهما أن ابن رشد لم يأت بجديد فى المنطق يقول د. مراد وهبة بأن ابن رشد أضاف جديداً فى منطق التأويل. وفصلت د. منى أبو سنة هذه الإضافة بقولها إن ابن رشد رائد ومؤسس الهرمنيوطيقا ويستند إلى نظرية فى التأويل، فقد ألف ابن رشد بين اللغة والمضمون فى تأويل النصوص الدينية فى إطار البرهان العقلى، ومن هذه الزاوية تجاوز ابن رشد المعنى الحرفى للنصوص الدينية، وقد قام لوثر بما لم يستطع أن يطوره ابن رشد بعد أربعة قرون، فى مجال الإصلاح الدينى ثم جاء شلير مآخر وكانط ودلتى وجادامر وغيرهم من أقطاب الهرمنيوطيقا فى العصر الحديث الأوروبى.

وهو المنحى نفسه الذى ينحوه إرنست فولف – جازو فى بحثه "ابن رشد فى سياق الخطاب التأويلى الألمانى" (مجلة ألف).

ويقوم إرنست فولف – جازو بدراسة حضور ابن رشد فى الخطاب التأويلى الألمانى والدراسات الاستشرافية. فالرسائل المتبادلة بين مستشرقين هما نولدكه

وجولدزيهـر التى لم تتشر إلا فى وقت متقدم تؤكد ارتباط ابن رشد بالهرمنيوطيقا المعاصرة والفكر الغربى المعاصر.

أما د. على عبد الفتاح المغربى فيربط تأويل ابن رشد بالأشعرية فى بحثه "التأويل بين الأشعرية وابن رشد" (الكتاب التذكارى إشراف د. عاطف العراقى، ١٩٩٣، وعلى حين كان ابن رشد يهاجم علماء الكلام على وجه العموم والأشعرية على وجه الخصوص ويصفهم بأنهم نفوس مريضة يقول د. على عبد الفتاح المغربى إن الأشاعرة وابن رشد يتفقان "فى أن التأويل يعنى مجاوزة النص، لكن هذه المجاوزة لابد أن تخضع لقواعد اللغة العربية التى نزل بها النص، وبما تسمح به اللغة والصرف من استخدامات للكلمات، فيبحث المؤول عن استخدامات أخرى للفظ المؤول فى القرآن، بحيث يقصد به تأويله، ويبحث أيضا عن استخدامات اللفظ فى اللغة والصرف، مما يؤيد ما ذهب إليه والتأويل. وأيضا فإن كلاهما يستبعد التأويل الرمزى، وهو الذى يقوم على أن كلمات النص ترمز إلى أشياء أو أحداث أو أشخاص، كالذى نجده عند غلاة الشيعة أو غلاة المتصوفة على سبيل المثال — وهذا يعد تأويلا فاسداً لأنه ينبو عن الأفهام ولا يقره العقل، ولا يقبله العرف — ولا تسمح به قواعد اللغة"^(٣٩).

إلا أنه إذا كان صحيحا أن الأشاعرة، يستبعدون التأويل الرمزى فإن إبداع ابن رشد يكمن بالتحديد فى التأويل العقلى للنصوص الدينية، وهو التأويل الذى يحافظ على اللغة العربية، لكنه يخضعها للقياس العقلى، ويفضى التأويل إلى تعدد الرؤى ونفى الجمود الفكرى. أما ربط د. على عبد الفتاح المغربى ابن رشد بالأشاعرة فهو ربط دوجماتيقى يقيد التأويل.

أما إرنست فولف — جازو فى بحثه "ابن رشد فى سياق الخطاب التأويلى الألمانى" فيربط ابن رشد لا بالماضى بل بالحاضر، أى بمفكرى الخطاب التأويلى فى ألمانيا من شليرماخر إلى دلتى وجادامر وبلومبرج. وهو يقرأ ابن رشد فى إطار التراث الألمانى التأويلى الذى يتضمن من بين ما يتضمنه النقد الإنجيلى المتأخر والهينية المحدثة والهرمنيوطيقا الفلسفية. وقد نما نقد الأناجيل فى سياق تطوير ونقد وتحليل النقوش حيث كانت ألمانيا قد اتجهت إلى فقه اللغتين اليونانية

واللاتينية، وقد أثر ذلك في مجال الفلسفة، فقد أدى استقبال أعمال أرسطو إلى عمل الطبعة الأساسية لأعماله تحت إشراف بيكر في عام ١٩٣١ في إطار أكاديمية العلوم البروسية. مما أدى إلى إعادة الشباب إلى الأرسطية في أعمال تريند يليبورج وبونيتز وبريتانو وهيدجر الشاب. وأسست الهرمنيوطيقا الألمانية قواعدهما الفقهية واللاهوتية الحديثة - بعد نقد الأنجيل وإصلاح لوثر - على يد المفكر الألماني شلير ماخر (١٨٤٣). وقد زامل شلير ماخر هيجل في جامعة برلين حتى وفاة هيجل نفسه عام ١٨٣١. وواصلت الهرمنيوطيقا مسيرتها عبر فقه اللغة اليونانية واللاتينية من فيلامو فيتس - موليندورف إلى ياجير ثم بعد ذلك على يد دلتى.

وكان رواد الاستشراق الألماني قد ارتبطوا بإصلاح الكنيسة في القرن السادس عشر على يد يعقوب كريستمان (١٥٥٤ - ١٦١٣) في هيلبرج ورايسكيه في كوتجن وبلغ ذروته في أعمال ديتيريتش وشناين شنايدر وفيلهوسن ونولدكه وفون كريمر وجولد زيهر. وس.ه. بيكر و ماكس هورتن. وليست مصادفة أن يكون الاستشراق الألماني قد نبع من إصلاح الكنيسة في هولندا وإنجلترا ثم أصبح يسمى في الهرمنيوطيقا والفلسفة باسم "KULTURTRAGER"، أى باسم "غطاء حضارى" وقد كانت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، أى فلسفة المثالية الألمانية، مشروعاً إصلاحياً بروتستانتياً لا تشاركه مشاريع أخرى. كان هيجل وفشت وشلنج وهولدرنى جميعاً أبناء الكنيسة البروتستانتية. وكان عمانوئيل كاتط متنبأ. بهذا المعنى كانت الهرمنيوطيقا والأدبيات الكلاسيكية الألمانية للاهوت بروتستانتيا وفلسفة جزءاً من مشروع واحد امتد من ف. أ. فولف وجوته إلى ييجير وبولتمان وهيدجر.

يدمج إرنست فولف - جازو ابن رشد في هذا السياق، سياق الخطاب التأويلي الألماني الحديث والمعاصر. أما د. على عبد الفتاح المغربى فهو يقرأ تأويل ابن رشد في ضوء الماضى لا فى ضوء المستقبل أو الحاضر على أقل تقدير. فكما أسلفنا يقول ضمن بحثه "التأويل بين الأشعرية وابن رشد" فى الكتاب التذكارى تحت إشراف د. عاطف العراقي، يقول د. على عبد الفتاح المغربى فى بداية البحث إن هناك اختلافاً بين "تيارين متميزين، أحدهما الأشاعرة، والثانى ابن رشد، كل منهما

ينتمى إلى تيار فكرى مختلف عن الآخر، فالأشاعرة ينتمون إلى المتكلمين، وابن رشد ينتمى إلى الفلاسفة^(٤٠). ولكنه سرعان ما لا يتقيد بهذا الاختلاف. وعلى حين يمكن الاختلاف بين الأشاعرة وابن ابن فى أن ابن رشد يقول بمجاوزة النصوص الدينية ويقول باستخدام النظر العقلى فى الدين يحذر الأشاعرة من استخدام العقل ويغلبون اللغة فى التأويل. ولا شك أن ابن رشد يفيد التأويل باللغة والبلاغة والفصاحة. لكن هذه القيود لا تمثل جوهر التأويل عند ابن رشد. فالشروط اللغوية والبلاغية تأتى عنده فى المرتبة الثانية أو الثالثة بعد قيود البرهان العقلى. بعبارة أخرى، هناك اختلاف فى الجوهر بين التأويل اللغوى عند الأشاعرة وبين التأويل العقلانى عند ابن رشد، وهو الاختلاف الذى يطمسه بحث د. على عبد الفتاح المغربى، كما يطمس فى السياق نفسه الإختلاف بين التأويل والتفسير جاعلها أمرا واحداً: التحليل اللغوى.

فمن المسلمات الثابتة منذ زمن بعيد أن هناك صلة قوية تربط بين الوحي الإسلامى وبين اللغة العربية. قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) إن علم البلاغة هو العلم "الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة، التى رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها"^(٤١). وعلى خلاف المسيحية التى تقول بالتجسد الفيزيقي للإله والتى لا تولى أهمية كبرى للغة فى تفسير الأنجيل، يتجسد الإله فى الإسلام فى الكلمة. نقول الآية: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (سورة يوسف، الآية ٢). وسمى بعض القرآن قرآننا لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه. وتدل عبارة "لعلكم تعقلون" على إرادة أن يفهموه ويحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليهم. اللغة العربية مرتبطة إذن بالنزول وقصدية الوحي (إنا أنزلناه) والاستقبال والتعقيل (لعلكم تعقلون). ونقول آية أخرى: "كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون" (سورة فصلت، آية ٣). و (فصلت آياته) ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعد وغير ذلك وقرىء (فصلت) أى فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها. و (لقوم يعلمون) أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم

من الآيات المفصلة المبنية بلسانهم العربى المبينة لا يلتبس عليهم شيء منه. وتركز الآية على العلم، على الفعلية ، على العقل دون الإدراك المباشر، الحنس أو الانفعال. وهكذا ارتبطت اللغة العربية بالهدى. وانقسمت إلى علم البيان وعلم التفصيل فى دراسة نص القرآن. وأما علم التفصيل فهو العلم الذى يتناول التفصيل والتفريق بين الأصوات وبين مقاطع المعنى (علماء الصوتيات ودى سوسير). وأما علم البيان فهو العلم الذى يتناول موضوعاً آخر. "والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القرآن، وبذلك فأخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم. والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُقضى السامع إليه حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضوع"^(٤٢). وكان أرسطوطاليس قد قال إن الإنسان هو الكائن الناطق المُبِين، أى أنه "LOGOS APOPHANTIKOS". والبيان كان أساس علم اللغة وعلم المنطق عند اليونان القدماء.

وأما لغة القرآن فهى تتشكل بمحتوى الرسالة الإلهية. بعبارة أدق، الشكل اللغوى يرتبط بالرسالة والوحى. وقد نحا الأشاعرة النحو نفسه فى تفسير القرآن. أما ابن رشد فقد أضاف التأويل العقلى، وهى الإضافة التى يطمسها بحث د. على عبد الفتاح المغربى، فهو يقصر تأويل ابن رشد على التأويل اللغوى السابق والذى يقول به القرآن نفسه والأشاعرة فى عمومهم. كذلك لا يستبعد ابن رشد تماماً التأويل الرمضى إنما يُعطى الأولوية للتأويل العقلى على التأويل المجازى، فكيف يستبعد التأويل الرمضى وهو القائل إن التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية؟ يصر د. على عبد الفتاح المغربى على أنه عند حدوث تعارض بين ظاهر الشرع وبين البرهان العقلى فإن ظاهر الشرع يقبل التأويل اللغوى وحده دون التأويل العقلى. وحينما يُسلم بالتأويل العقلى فإنه لا يُسلم بذلك بنفسه إنما يستعير عبارة للدكتور عاطف العراقى التى تقول هذا المعنى. وهى

العبارة التي يقتبسها من كتاب د. عاطف العراقي "النزعة العقلية عند ابن رشد". وهي تقول: "يجب إخضاع ظاهر الشرع للبرهان". أما د. على عبد الفتاح المغربي فيقول إنه لا يمكن أن نفتح باب التأويل غير اللغوي على مصراعيه، لأن في ذلك - من منظوره - إبطال للشرعية، وضياح لمعناها عند المعتقدين لها. وإذا كان صحيحاً أن ابن رشد يقول إن تأويل مبادئ الشريعة كفر فإن ذلك لا يفيد بالضرورة الحتمية اتفاقه مع الأشاعرة إنما يعني أنه مفكر مسلم. وكما قال بول كيرتس أستاذ الفلسفة بجامعة نيويورك (بافلو) فإن رشد لم يكن ثورياً. ولم ينقد القرآن. بل كان مفكراً مسلماً يؤمن بمبادئ الدين والشرع. لكن لماذا هذه الثنائية؟ أما أن يكون مسلماً أو أن يكون عقلانياً، لماذا لا يكون عقلانياً مسلماً أو مسلماً عقلانياً؟ لماذا هذا التضاد والحتمية بين التأويل العقلاني للنصوص الشرعية والدينية وبين الاعتقاد الديني؟ لماذا يرفض د. على عبد الفتاح المغربي النظر العقلي في الشرع ويؤكد تأكيداً تاماً على إسلام ابن رشد وكأن استخدام النظر العقلي في الشرع لا يتفق مع مبادئ الإسلام؟

ج - السيميوطيقا الرشدية :

دخل د. نصر حامد أبو زيد إلى تحليل النصوص والدراسات الإسلامية على وجه العموم إلى تحليل النصوص الرشدية على وجه الخصوص من زاوية السيميوطيقا. وذلك في بحثه عن التتوير الإسلامي من المعتزلة وابن رشد إلى محمد عبده، وهو البحث الذي سبق أن نشره في مجله القاهرة في عدد مايو ١٩٩٥ قبل أن ينشره من جديد في أعمال مؤتمر "ابن رشد والتتوير" (دار الثقافة الجديدة، ط١، ١٩٩٧)، وكذلك يبين مدخله في بحثه عن "خطاب ابن رشد بين حق المعرفة وضغوط الخطاب النقيض" (مجلة ألف، العدد ١٦، ١٩٩٦).

وهو يستند إذن في الأساس إلى مشجرات السيميوطيقا (السميولوجيا) أو علم العلامات الذي يرجع إلى دي سوسير، فهو العلم الذي يدرس العلامات داخل المجتمع، وهو جزء من علم النفس الاجتماعي ومن علم النفس العام. ويكشف هذا العلم أسس العلامات والقوانين التي تحكمها، أما مصطلح السيميوطيقا فيرجع إلى تشارلز بيرس الذي

ربط بين المنطق وبين السميوطيقا. وفي فبراير ١٩٦٩، في باريس، قررت لجنة دولية تبني استخدام السميوطيقا وتأسيس الرابطة الدولية للسميوطيقا. وقد أصدر جريملس وكورتيس معجماً تحليلياً عن "السميوطيقا واللغة" (١٩٧٩).

ويدرس د. نصر حامد أبو زيد أنساق العلامة المتعددة دون أن يثبني تماماً "البنوية" التي ارتبطت بحكم العلامة على نحو أصبحا معا ينتميان إلى مجال نظري واحد.

وبهذا المعنى د. نصر حامد أن زيد بدون شك الفكر الإسلامي. فالعالم الذي ينتظم الموجودات كلها عند ابن رشد ليس إلا دلالة، وهو من هذه الزاوية علامة تفك شفرتها الفلسفة وتستبطن دلالتها. "هذه هي المقدمة الأولى في كتاب "فصل المقال"، وهي لا تختلف كثيراً عن أطروحة المعتزلة، بل لا تختلف عن التصور العام لمجمل تيارات الفكر الديني الكلاسيكي في عصور الازدهار، والتي انطلقت من القرآن الكريم نفسه، والذي يطرح العالم بكل مفرداته الطبيعية الجامدة والحية من السموات إلى الأرض وما بينهما بوصفه دلالة وعلامات (آيات)" (١٣).

وترتبط السميوطيقا إذن بدلالة إلهية "لا تخالف ما وردت به الشرائع السماوية على لسان الرسل والأنبياء". وهكذا فعلم السميوطيقا علم إلهي بطابعه يبحث في "وحدة الدلالة بين النص والعالم". فقد أدمج المعتزلة العلامات الكونية في بنية القرآن واعتبر ابن رشد الموجودات دالة على الله، علامات العالم دالة على الحقيقة أو تميل إلى الصانع القادر الحي العالم المغاير للعالم الذي صنعه. ويفرق المعتزلة بين نمطين من الدلالات:

(١) الدلالة الوجودية حيث يتلازم الدال والمدلول تلازماً عقلياً. ومثال ذلك:

(أ) دلالة الفعل على فاعل قام به (ب) دلالة الفعل المحكم المضبوط على أن الفاعل الذي قام به فاعل حكيم عالم.

(٢) الدلالة الوضعية الاتفاقية التي تقوم على التواطؤ بين أفراد الجماعة أو بين المتكلمين. مثال ذلك: اللغة الطبيعية، لغة الإشارات والحركات الجسدية، دلالة المعجزات على صدق الأنبياء والرسل. فاختلاف الدوال لا يقود د. نصر حامد أبو

زيد إلى تبديل المدلول. كذلك لا يقوده التأكيد على الطبيعة الاتفاقية للمدلول إلى تغيير المدلول أو تطوير الصلة التي تربط الدال بالمدلول، فالصلة الاعتبارية التي تربط الدال بالمدلول تتعارض مع القول بدلالة الدال على دلالة إلهية أو شبه إلهية. ويتعارض القول بالدلالة الإلهية - حتى ولو ادعت كونها شيئاً آخر - وبالقصديّة مع المنحى التأويلي لدى د. نصر أبو زيد حيث إن التأويل الحديث يقول إنه لا توجد دلالة. كما يقول إنه لا يوجد قصد إنما يوجد فقط وجهات نظر أو قراء يصنعون دلالة خاصة بكل واحد منهم على حدة. واستعمال السميوطيقا يبقيه داخل إطار الفكر الإسلامي الكلاسيكي وإن استخدم مصطلحات حديثة: "الدلالة الذاتية للعالم ليست متخارجة عن القصديّة الإلهية في ترتيب خلق العالم وتركيب المسببات على الأسباب والنتائج على المقدمات، وذلك كما يتبدى في "الدلالة الذاتية المركبة" للفعل المحكم. معنى ذلك أن الدلالة العقلية الكاشفة لا عن "القصديّة" في الكلام الإلهي هي التي تربط بين دلالة العالم ودلالة الكلام" (٤٤).

وهكذا يتجاوز في نسق نصر حامد أبو زيد السميوطيقا الميتافيزيقية والتأويلية الإنسانية دون حسم لهذا التجاور لصالح إحداها. فالسميوطيقا ميتافيزيقية لأنها تقسم العالم قسمين: العالم علامة دالة على مدلول يقف وراء العالم. وأما التأويلية فهي تحسم الصراع بين الدال السميوطيقي والدلالة الذاتية لصالح الدلالة التي يصنعها القارئ أو المتلقى. السميوطيقا تفترض فعلاً يتعلق بالفاعل على حين تنظر التأويلية إلى الفعل دون أن ترجعه إلى فاعل مغاير للفعل.

ويتسع هذا التجاور لاحتضان ابن رشد ضمن التصور العام لمجمل تيارات الفكر الديني الكلاسيكي والقرآن الكريم نفسه. وهو التصور الذي يقول بأن العالم دلالة وعلامة وآية تدل على الصانع. ويتسع هذا التجاور أيضاً بين السميوطيقا الميتافيزيقية والتأويلية الذاتية إلى الخلط في تصور الفلسفة عند ابن رشد. فهي تبدو عندنا تأملاً لآيات الله في العالم لا برهاناً عقلياً بينما هنالك عند ابن رشد تعريف واضح للفلسفة أنها برهان وليس تأملاً. وبالتالي فنصر حامد أبو زيد يزحزح تصور الفلسفة من البرهان إلى التأمل حتى يستقيم تناول السميوطيقي، وحتى تستقيم القراءة الصوفية لابن رشد حيث يربط أبو زيد ابن رشد بابن عربي. على

حين يقول أبو زيد نفسه أن "منظومة ابن رشد لا تلتقى مع منظومة ابن عربي"^(٥)، فالنظر في العالم عند ابن رشد ببرهاني في عقلى أما النظر نفسه في العالم عند ابن عربي فمجازى ورمزى. ولم يدمج ابن رشد البرهان فى النص بقدر ما دعا إلى النظر البرهاني فى البيان القرآنى.

وأحيانا ما تتزحزح السميوطيقا الميتافيزيقية أمام أولوية التأويلية الذاتية عندما يقول د. نصر حامد أبو زيد "إن الكلام الإلهى لا يقع دلالة إلا تأسيسا على الدلالة الذاتية للموجودات التى خلقها الله وثبتها فى العالم"^(٦). كذلك يقول إن مرجعية العالم هى الأساس الجوهرى فى فهم الكلام الإلهى باستنباط دلالاته. ويستخلص أن التعارض بين العلم والدين، بين البرهان والقرآن، بين الفلسفة والخطاب الإلهى، ليس تعارضاً موضوعياً، دلالياً، سميوطيقياً، إنما يستخلص أن سبب هذا التعارض الإبستمولوجى هو سبب سيكولوجى/ منطقى جوهره قصور فى فهم دلالة الخطاب الإلهى. لكن تركيزه أو إصراره على وجود دلالة إلهية يثبت تحليله فى أفق السميوطيقا ويجعل تحليله كذلك يدور فى فلك أن الحرية (التأويل الذاتى) ما هى إلا وعى بقوانين الخطاب الإلهى. وهو التصور الذى يتعارض تماماً مع روح الهرمنيوطيقا المعاصرة.

هوامش

- (١) حوار حول ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٨.
- (٢) المرجع السابق، ص ٥٠.
- (٣) المرجع السابق.
- (٤) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠.
- (٥) حوار حول ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.
- (٦) المرجع السابق.
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) منطق أرسطو، الجزء ٢، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط ١، ١٩٨٠، ص ٣٣٢.
- (٩) المرجع السابق، ص ٣٤٢.
- (١٠) المرجع السابق، ص ٣٤٣.
- (١١) المرجع السابق.
- (١٢) المرجع السابق.
- (١٣) المرجع السابق، ص ٤٨٩.
- (١٤) المرجع السابق، ص ٤٨٤.
- (١٥) المرجع السابق، ص ٣٢٩.
- (١٦) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠.
- (١٧) المرجع السابق، ص ٧٥.
- (١٨) المرجع السابق، ص ٧٦.
- (١٩) المرجع السابق.

- (٢٠) المرجع السابق.
- (٢١) المرجع السابق.
- (٢٢) المرجع السابق.
- (٢٣) المرجع السابق.
- (٢٤) المرجع السابق.
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٧٧.
- (٢٦) المرجع السابق.
- (٢٧) المرجع السابق.
- (٢٨) ابن رشد، فلسفة ابن رشد، مرجع سبق ذكره، ص ١٣.
- (٢٩) المرجع السابق، ص ١٤.
- (٣٠) منطق أرسطو، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩٣.
- (٣١) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة وتقديم وتعليق د. عثمان أمين، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٩٣، ص ٤٣.
- (٣٢) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٣.
- (٣٣) ابن رشد والتتوير، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ٤٧.
- (٣٥) المرجع السابق.
- (٣٦) المرجع السابق.
- (٣٧) ألف، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨ - ٥٩.
- (٣٨) ابن رشد، إشراف د. عاطف العراقي، ص ٣٧٨.
- (٣٩) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٤٠) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٤١) أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، القاهرة، مطبوعات الأزهر، ط٢، ص٢.

(٤٢) أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين وأهم الرسائل، بيروت — لبنان، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٩، ص ١١.

(٤٣) ابن رشد والتتوير، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٤.

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٣٢.



التناقض بين ابن رشد وابن عربي

ليس د. أبو الوفا التفتازانى هو المفكر المصرى الوحيد الذى قارن بين ابن رشد وابن عربى فى الفكر الفلسفى المصرى المعاصر، فالمقارنة التى يعقدها بينهما فى بحثه " ابن رشد والتصوف" فى الكتاب التذكارى عن ابن رشد بإشراف د.عاطف العراقى لها أتباع آخرون ومن بينهم د. نصر حامد أبو زيد فى " فلسفة التأويل، دراسة فى تأويل القرآن عند محيى الدين ابن عربى" (١٩٨٣) وشتييفين شتيلرز فى بحثه " لقاءات فاصلة: ابن رشد وابن عربى والمعرفة" ضمن عدد مجلة ألف (١٩٩٦، ١٦) وقد مثّل على حرب المفكر اللبنانى المعاصر نموذجاً فلسفياً بارزاً دالاً على استحضار وتطبيق وإعادة صياغة روح ابن عربى فى إطار من الأدوات الحديثة. ورغم أن الاتجاه النقدي القوي لدى على حرب فهو يمثل عيّنة تطبيقية تدل على كيفية تدمير العقلانية على وجه العموم وعقلانية ابن رشد على وجه الخصوص.

وربما لم يكن على حرب لفترة من الوقت من الأسماء الفلسفية البارزة فى الساحة العربية المعاصرة وربما بدا أنه لا يحتل مركز الصدارة، ذلك أنه يرفض سلفاً أن يوضع فى خانة محددة أو ضمن تيار من التيارات الفكرية أنه مفكر حر. والمفكر أرحب وأكبر من أن يصنف، هو حر من المنظومات الجاهزة، وهو حر من القيود الأيديولوجية فهو فيلسوف رحالة يرحل دوماً بين المدارس والتيارات والمنظومات وهو لا يكتب أو يبحث عن بناء نسق أو نظام فكرى معين وهو لا يسعى إلى أهداف أو مثل عليا أو غايات قصوى، فهو ليس صاحب رسالة يريد إبلاغها بالفيلسوف الرسولى، معلم الحقيقة الشيخ/ الرئيس أو الإمام ليس فيلسوفاً بل هو داعية أو مروج.

ولهذا لا يتعلق على حرب بفكرة معينة ولا يلتزم بمشروع فكرى خاص، إنه بالعكس يمارس فاعليته بنقد الالتزامات والعقائد والمشاريع والأنساق والمنظومات الكبرى وذلك أنه إذا كان فى كل تفكير جانب "غير مفكر فيه" فإنه يمارس التفكير بصورة منتجة ويخضع تصوراتهِ الفلسفية نفسها إلى النقد والفحص والمراجعة بهدف الكشف عما تمارسه أشكال الفكر من النسيان. وهذا البحث عن المسكوت عنه فى الخطاب عند على حرب هو واحد من مبادئ ميشيل فوكو التى

يطبقها على حرب فى براعة عالية، ويعتبر ابن عربى ممهداً لهذه المبادئ، وبهذا المعنى. أيضاً يرفض تماماً عقلانية ابن رشد البرهانية.

إنه يفكر بطريقة تريد أن تكون مخالفة للعصبية العربية والأيدولوجية السائدة، فلا يلتزم بشعار فكرى معين ولا يشر أو يدعو إلى نظرية بعينها. لذلك فهو وإن كان عربياً مسلماً فإنه مسيحى لاعتقاده بأن الحق يتجلى فى الخلق ويهودى لأنه يؤمن باصطفائه ويمارس نخبويته وإغريقى لأنه يمارس الفلسفة، وفرنسى لأنه تتقن بثقافة الفرنسيين وبوذى لأنه يتوق إلى الفناء فيمن يحب، وقبل ذلك كله زنديق لأن الحياة الدنيا تستغرقه، هكذا فهو على حرب ليست ثابتة وإنما همه أن يتغير باستمرار انطلاقاً مما هو عليه، أى أن يكون على غير ما كان وأن يفكر فيما لم يكن يفكر فيه وأن يعمل ما لم يكن باستطاعته عمله. وهذا مآل المثقف الحقيقى فى نهاية الأمر فالمثقف مملكته ليست من هذا العالم، فيعيش مأساة الغرب كما مثلها أبو حيان التوحيدي وكافكا ويضيع المثقف من حيث كونه مثقفاً لأن الثقافة اغتراب الذات عن نفسها، فتتفى الذات المثقفة نفسها نفيّاً شكلياً بلا رباط، إنها تتماهى وأغرب الكائنات.

المثقف الذى يصبح غربياً فى وطنه، غربياً فى نفسه، أجنبياً عن ذاته التى لا يعود إليها أبداً.

وكذلك يميل على حرب، وإن كره التصنيف والتبويب، إلى التصوف والإشراق والعرفان فهذا هو الإطار الذى يتيح بناء أنطولوجيا جديدة ومفتحة دون أن تكون مفارقة وهو الفكر الذى يبيح أيضاً بناء أنطولوجيا إشكالية لا ينخلق فيها الكائن على نفسه.

وأخيراً، لا آخراً يفتح على حرب الفكر العقلانى على الشعر والنبوة وذلك لاستكشاف وجودنا على قدم المساواة مع العقلانية الفلسفية، إنه شاعر بالعرض وفيلسوف بالجوهر.

كانت حاجة الحضارة العربية قد صارت شديدة إلى ضرب من ضروب النقد الفكرى الذى يتفق مع شكل التحول العالمى الجديد وبالرغم من أن التنبؤ فى ذاته الفلسفية لا يزال محفوفاً بالرؤية فإن الفكر العربى المعاصر استطاع فى بعض

رموزه أن ينخرط في المشروع النقدي الفكري. هذا وإن لم يستطع هذا العمل أن يوقف نزيف الهزائم من عام ١٩٦٧ إلى حرب لبنان وغزو بيروت في ١٩٨٢ ثم حرب الخليج الأولى والثانية، استطاع بعض رموز الفكر العربي المعاصر أن ينتجوا نموذجاً مهماً في نقد الذات العربية مثال ذلك إسهام على حرب الذي تجاوز الهزيمة إلى النقد الجذري للنصر والهزيمة معاً. ذلك أن دخول العقل العربي في القرن الحادي والعشرين مرهون بمدى قدرته على مراجعة مسلماته وبالرغم من كل التشابهات بين المفكرين إلا أن مستقبلنا هو أولاً في نظر على حرب في نقد النص. كيف نقرأ النص؟ كيف نتعامل معه؟

ومشروع على حرب هو أولاً مشروع نقدي يرمى إلى الحفر في النماذج والعقائد والعقليات والجمود الفكري والتطرف وهو لا يقود نقداً تدميراً خالصاً لأنه يسعى إلى بناء نظام يكون أكثر تركيباً، هذا هو المشروع النقدي الذي انخرط فيه على حرب إنه مشروع نقدي مزدوج وجاء نقداً للذات وللغير.

ونقد الذات إنه أساساً هو نقد النص فالنص هو محور الثقافة العربية والرابطة التي تصل بين عناصر المشروع النقدي عند على حرب هو الحفر عند جذور النص وإن كان علم النص تعبيراً يؤثره على حرب ومن هنا فهو يقصد من وراء الاصطلاح إظهار المسكوت عنه في النص.

ومن هنا فلا بد من التمييز بين نوعين من النقد.

نقد النص عند على حرب ونقد العقل عند محمد أركون ومحمد عابد الجابري وغيرهم من نقاد العقل العقلانيين وأما نقد على حرب للنص فيقوم على مسألة مبدأ الهوية وما يرتبط به من مطلقات وما وراثيات وماهيات متعالية وكنيات مجردة كالذات والحقيقة والوجود والعدم والعقل فيستعيد تصورات الجسد والهوى والمفرد والخيال والعلاقة لأن العامة تستبعد الخاص وتطمس الكلى الحدث. باختصار، يكشف التفكيك أن المقول يسجد للجسد وأن المنطق يعتقل الخيال وأن الكل يحاصر الهوى.

ونقد النص في هذا المعنى لا يمت بصلة مباشرة إلى فلسفة عمانوئيل كانط التي يرى فيها نقاد العقل المعاصرون أنها تؤسس لنقد العقل العربي على حين أن

كانط نفسه يتناسى شروط وإمكان نقد العقل حيث لم يستطع أن يؤسس الميتافيزيقا ذلك أن معرفة العقل لذاته المتعالية هي مهمة يتعذر تحقيقها أو وصل كلام كانط على صوغ أختام تأليفية وقبلية تؤسس للميتافيزيقا نفسها ثم إلى تعجيز الكائن العاقل عن القبض على حقيقة العقل نفسه ولا يؤسس كانط لنقد العقل المحض إنه لا يفتح السؤال حول شيء لا يعرفه وهو أساس قوله ومنطقه ومنظومته، فالعقل لا يعرف نفسه معرفة تامة وإذا كان كانط قد أراد أن يؤسس المعرفة فقد كشف نقد العقل الخالص أنه لا أساس للمعرفة والغريب أن البعض أراد تأسيس النقد العربى الفكرى على فلسفة عمانوئيل كانط النقدية مع أن كانط أنشأ نقد العقل المحض على غير أساس.

وإذا كان على حرب ناقلاً فهو ليس ناقلاً للعقل بل هو ناقد من نقاد النص. والواقع ورغم حب على حرب لعمانوئيل كانط وفلسفته النقدية إلا أنه يستبدل نقد النص بنقد العقل ومن هنا فهو يختلف عن محمد أركون ومحمد عابد الجابرى اللذين يتعاملان مع العقل فى منظار ما ورائى ولاهوتى حيث يستعملان العقل على نحو يحيله إلى بنية شكلية، ثابتة، كلية، تؤسس اكتساب المعارف وتتحكم بكل ميادين الإنتاج الثقافى العربى والإسلامى فيلغى محمد أركون ومحمد عابد الجابرى الفروق بين التجارب والأعمال والميادين والنصوص باسم وجدانية العقل العربى والإسلامى وهما يلغيان أيضاً أوجه الشبه بين النص العربى وبين النص الغربى وهما يدرسان معاً عقلاً إسلامياً، أحادياً، ثابتاً، متعالياً على العلوم والأعلام واللغات والعصور "لايوجد فى النهاية عقل إسلامى أو شرقى أو غربى هناك نصوص وخطابات أوقوى ومؤسسات أو أبنية وتشكيلات، بكلام آخر أن العقول هي افتراضات مجردة لا توجد إلا فى الأذهان أما فى الأعيان فلا توجد سوى خطابات لا تتفك تتوالد وتتكاثر إذن نحن لسنا إزاء عقول بل إزاء نصوص نشغل عليها ونعيد اكتشافها^(٢).

هكذا ينفى حرب (وجود العقل) ويقدم نقد النص عند على حرب على استواء النصوص كافة. فلا يعنيه اختلاف النصوص مادامت المسألة هي (علم النص) وهو يبحث عن المسكوت عنه فى النص لكن كيف تستوى النصوص وهو ناقد محمد أركون ومحمد عابد الجابرى باعتبارهما يخفيان أن كل مضمون يحمل شكلاً

خطابياً خاصاً؟ كيف تستوى جميع النصوص وهو يرفض استواء كل العقول؟ أليس (علم النص) علماً ما وراثياً لا هوتياً يدرس النص على نحو يحيله إلى بنية شكلية، ثابتة، كلية، خالدة؟

ورغم تأكيديه على الاختلاف غير أنه فى لحظة التحليل يفضى ناقد النص على اختلاف الثقافات واللغات والمجالات ويغوص فى تعميم حول مجاز كل النصوص، مع أن النص الواحد قد يستخدم المجاز وقد يستعمل التقرير ويقود التحليل على حرب إلى إحالة النص إلى نفسه فى منظور على حرب الوقائعى وليس الواقعى، يشهد النص على نفسه ويولد حقيقته وهذا المنظور الوقائعى فى النظر إلى النص يستعمله على حرب للتعبير عن كون النص واقعة تفرض وجودها علينا بصرف النظر عن الواقع الموضوعى - المنهج الواقعى - وعن الذات المؤلفة للنص - هى المركز والقوة والمقياس. قلت من قبل إن الفكر العربى يعيش آراء راسخة على مدى قرون ولم تتغير وإن عليه أن يمارس نقداً حقيقياً للأسس والمسلمات التى انبنى عليها، وذكرت أن الفكر العربى قد خطى خطوة شجاعة فى هذا الاتجاه لكنها خطوات كانت ضرورية وأصبحت غير كافية تماماً وتناولت مشروع على حرب المفكر اللبنانى بالتفصيل والنقد. وقلت إنه بالرغم من النوايا الحسنة تبقى نقاط أساسية عالقة ومن بين هذه النقاط اعتبار على حرب جميع النصوص دون تمييز أو تفريق مجازية أو أنها جميعاً عمل متشابه فإذا كانت جميع النصوص تستعمل تقنيات أو أساليب المتشابه كيف نفسر أو نفهم الآية التى تقول " هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله... ﴾ (سورة آل عمران الآية ٧)

وقد حكى ابن حبيب النيسابورى فى المسألة أقوال:

١ - إن القرآن كله محكم لقوله تعالى كتاب أحكمت آياته.

٢ - إن القرآن كله متشابه لقوله تعالى كتاباً متشابهاً.

٣ - انقسام القرآن إلى محكم ومتشابه.

وبما أن النص كله متشابه عند على حرب فإن النص يحجب ذاته ويحجب موضوع الكلام ومن يرعى رواية الحقيقة يخفى حقيقة الخطاب والحقيقة نفسها وتكمن قوة كل نص في قدرته على الحجب، والمتمثلة لا في الإتقان أو الإحكام أو الإفصاح أو البيان بل في الاشتباه والالتباس في اختلافه لا في وحدته وإذا كان معظم المفسرين قد عملوا على رد المتشابهات إلى المحكمات فإن على حرب يرد المحكمات إلى المتشابهات فيفتح باب التأويل على النص كله. والنص القوى لا يقول كل شيء عما يريد قوله فترتد الحقيقة الحجاب ولا تنزعه إلا بين أحجار النصوص الصامته يقرأ على حرب "النص" بطريقة ميشيل فوكو فهو لا يهتم بالمنطوق أو بالمصرح به ولا يلتفت إلى المتن أو إلى طروحاته إنما يلقي الضوء على الهوامش والحواشي ويركز على اختلاف النص وتواتراته وقراءة على حرب هي قراءة للنص الإسلامي على أساس تحليل النص ويشغل على النصوص ولا يبحث في العقل نفسه. بل هو يمارس نقداً على منطقة خارجة عن إطار العقل ونقد اللاعقل هو فحص هامش النص وليس النص نفسه وهو يربط هامش النص بالنص فإذا كان النقد لا يخص العقل فما جدواه؟ وما الجديد في القول بأن القرآن الكريم حدث؟ من المسلمات التقليدية أن الوحي حدث ظهر وأصبح له وجود موضوعي، ما الجديد في القول بأن العرب تمكنوا بفضل القرآن الكريم من السيطرة على العالم وتعريبه؟ هناك، إجماع على أن النص كان منطلقاً إلى مشروع تاريخي ثقافي جاء به أصحابه إلى مسرح الوجود، وعلى حرب لم يكن أول من أدخل التاريخية في ميدان قراءة النص بل إن تاريخ القرآن مجال معرفي مستقل ومعروف كتب فيه أبو عبد الله الزنجاني ونولدكه وعبد الصبور شاهين وغيرهم من علماء الإسلام والمستشرقين وليس صحيحاً إذن أن كلاماً من المستشرقين والإسلاميين ينكرون التاريخية، فقط أدخل على حرب أدوات جديدة إلى مجال معرفي قائم وواسع وهي أدوات ليست أدواته في الأصل بل هي أدوات ميشيل فوكو في الحفر عند الطبقات والحجب والاستبعاد والكبت والتبديل والخداع ويؤكد على حرب أن نقاد النص لا يختلفون عن المفسرين التقليديين الذين قرأوا القرآن الكريم قراءة تاريخية إلا أن الأسلاف قد فسروه بحدود إمكاناتهم المعرفية وحسب ما أتاحتهم أدواتهم المنهجية بينما يفسر المفسرون في العصر الحديث من

منظور ما تتيح لهم إمكاناتهم المعرفية والمنهاجية وليس تحرير النقد الحديث للنص الأول القرآني من النص الثاني المؤول للنص والشارح له سوى أنه كشف نصاً ثانياً وجديداً فهما وقراءة - وإن كانت حديثة - نزعاً بأنها لا تقوم إلا بشرح النص غير أن القراءة الحديثة للنص الأول تهدف إلى الحلول مثل النص الأول تماماً كما فعل المفسرون الكلاسيكيون فإنه مما بلفت النظر أن كل شرح على نص يدعى بأنه الشرح الأصح والأقرب إلى روحه وإلى ظاهره وكل تفسير يزعم أصحابه بأنه التفسير الصحيح وحده من دون التفاسير الأخرى، بيد أن التأكيد على أحقية تفسير من التفاسير وحده دون غيره، لا يعنى محاولة استبعاد التفاسير الأخرى وحسب، بل يعنى أيضاً إقصاء النص المراد تفسيره والحلول مكانه ولذا غالباً ما يحل التفسير محل النص، ويقوم الفرع مقام الأصل^(٣).

فمشروع النقد الحديث للكتب الدينية والنصوص المقدسة يصل إلى تقيد النص الأول كغيره من الشروحات ويأسر النص الأول بالرغم من التصريح بغير ذلك . ولاشك أن التأويل للحديث النقدي يشكل - بدوره - حجاباً كثيفاً يحول دون الوصول إلى " الظاهرة المعجزة " والنقد الحديث للنص يعبر في الوقت نفسه عن رغبة في الطهارة الأولى والمحافظة على صفاء العقيدة أو بقاء الوحي والظاهرة المتكررة أن النقد " يعدنا بالتحريم من سواه من النصوص فيما هو يقيم سلطته ويحجب أثره، ويزعزع الثقة بمرجعيات قائمة لكي يؤسس مرجعيته، ويريد العودة إلى الأصل الأول فيما هو ينسخ الأصل نفسه، يدعوك إلى ممارسة حريتك في التقليد وحقك في النقد فيما هو يمارس وصايته على الحقيقة والحرية على حد تعبير على حرب لكن يرجع الفضل إلى النقد الحديث في أنه - وإن أكد على أن القرآن الكريم هو خطاب المعنى - فإنه يؤكد كذلك على أن النص القرآني ليس واحداً لا على مستوى الحرفية والطباعة والصوت ولا على مستوى علم الأصوات نفسها ليس القرآن واحداً تماماً لا إذا قرئ قراءات سبعا كما أحصاها علماء التفسير وأما على مستوى الدلالة فالنص ليس سوى اختلافه إذ بهذا الاعتبار لا يقرأ إلا على نحو مختلف، ولا يولد إلا تحوله ونسخه إذا جاز القول، إذ لا تطابق بينه وبين أى من قراءاته^(٤).

والنقد الحديث للنص القرآنى كما سبق أن أشرنا يؤول فى نهاية المطاف إلى القيام مقامه كالتفاسير كافة ويصير نقد النص أصلاً ويقود منطقته الداخلى إلى ذلك. فالنقد الحديث للنص ينتقد مجموع التفاسير والتأويلات ليحل محلها، وكل مفسر سواء أكان حديثاً أم تقليدياً يدعى - سواء صرح بذلك أم أخفى - النبوءة أو يوهم البشر بأنه ممن يوحى إليه. وإذا لم يكن أحد يملك تلك الخاصية التى هى النبوءة فكل الانتقادات والتفسيرات والتأويلات بعدها متساوية فى الافتقار إلى التفسير الحقيقى ولا يمكن لواحد من النقاد أو من المفسرين أن يتماهى مع النبوءة أياً كانت عناصر الاستمرار وصور الثمائل ووجوه الشبه.

ومنذ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودارسو النص يحاولون تقمص دور النبوءة بشكل نقدى أو بشكل سلفى بهدف الوصول إلى الهوية الصافية أو "النقية" وكل فريق ينصر مذهبه أكثر مما ينصر دينه، ويتحزب لرأيه أكثر مما يتحزب لدينه. ويغضب لعلمائه وأئمتيه ولكنهم صناع فرقة على صعيد الواقع والكل ينتسبون إلى عقيدة التوحيد فى الظاهر ولكنهم فى الحقيقة والجوهر أهل شرك، يشركون بالحق موطنهم ومذاهبهم وعلماءهم وأهواءهم وهكذا ما توحدته اللغة تفرقه الملل والقبائل، وما يوحدته الكتاب تفرقه المذاهب والعصبية هذا هو واقع الحال منذ عصر النهضة حتى الآن واقع فرقة وعصبية^(٥)، إن كل فرقة فيما هى تقرأ النص وتستعيد الأصل إنما تجعل من إرثها الخاص أى من فقهها وعقائدها ومجمل معارفها، أصلاً يضاف على الأصل الأول، وتميل إلى إحلال نصوصها محل النص القرآنى كيف لا، ونحن نجد أن كل فريق قد نصب نفسه حارساً أوحد للشريعة والعقيدة ومالكا للحقيقة وحده دون سواه وأن كل ناظر اعتبر أقاويله المفتاح لفهم النص واكتناه حقيقة الوحي، وكرس كتبه بوصفها الطريق (والمنقذ من الضلال) و(الموصل إلى ذى العزة والجلال) ومن هذا شأنه إنما ينزل نصوصه منزلة النص المنزل، ويقيم أقواله مقام القول الحق ويتعامل مع الحقائق التى يقرها وكأنها حقيقة الحقيقة ولا غرابة فى القول بالكلام الذى يزعم التأسيس لكلام إليه يتقدم على الكلام الإلهى والقول الذى يبين ماهى الحقيقة ويوضح طريقها ويضع معاييرها يصبح حقيقة الحقيقة والمعيار الذى يحدد أدلة استثمار الأحكام من النص يقدر حاكماً على النص ومرجعاً له والنوع الذى يشرع

للأصلى وينظر له يصير هو الأصل الذى يعتمد عليه يصبح معنى المعنى، ومن ثم أولى من النص المشروح ذاته^(٦).

والشرح الذى يدعى أنه بشرح فقط إنما يوجب الاختلاف بين الشرح والمشروح، ويصبح الشرح أولى على المراد من المشروح ومن ثم يكون الشرح بديلاً عن المشروح وإن كان نص الوحي^(٧) يحتاج إلى مقالات العقل لكى تؤسس وتثبت حقيقته فالعقل يغدو عندئذ أولى من النص والوحي.

وينتزع إذن الشرح سواء أكان نقدياً أو تقليدياً إلى إقصاء النص الأول ويحل محله، أى ينزع إلى نسخه فما آل التأويل أن يحل محل التنزيل^(٨) وهذا، يصدق على أئمة نقد النص وشيوخ نقد العقل العربى نفسه.

وإذا كان على حرب ناقداً للحقيقة فخطابه نفسه هو واحد من خطابات الحقيقة وإلا لما كتب أو تفلسف أو بحث أصلاً عن الحقيقة ليس " نفيًا " للحقيقة بل المقصود منقذ الحقيقة (تعرية) آليات وكشف أقنعة^(٩) ناقد الحقيقة يفضح (الأعياب الحقيقة التى يمارسها خطاب الحقيقة) ويبين أن الكلمات ليست بريئة فى تمثيلها للعالم المعنى وأن المنطوقات لا تتواطأ مع المفهومات وأن الأسماء لا تشف عن المسميات فهو يبين أن للخطاب نشاطاته السرية وإجراءاته الخفية تخفى ما نشير إليه وتتكلم عليه ذلك أن ما تدمره الحقيقة وتسكت عنه هو أنها متعالية، مطلقة، نهائية، ثابتة، أحادية، إلهية ومن ثم لم تعد الفلسفة بحثاً عن الحقيقة وأصبحت بحثاً عن الحجاب الذى تريده الحقيقة وتعنيه وعادة الحقيقة لا تتعالى على شروطها أو تكتفى بذاتها ولم تعد جوهرًا قائمًا بمعزل عن خطاب الحقيقة ولكن لا يستقيم نقد على حرب للحقيقة الإلهية مع رغبته الواضحة فى بناء أنطولوجيا ما ورائية فقد سبق أن أشرنا إلى أنه يريد أن يسهم فى بناء أنطولوجيا تستشرف أفقاً ماورائياً كيف ينسجم الأفق الماورائى للأنطولوجيا الجديدة مع القول بأن الحقيقة ليست نهائية وبأنها سلسلة من التأويلات المتلاحقة للعالم والأشياء؟ كيف تتسق الأنطولوجيا الماورائية مع نفي ثبات الحقيقة واعتبارها بناء متواصلاً وصيرورة لا تنتهى ولا تكتمل؟ ما ميتافيزيقا الاحتمال والخطأ؟ وماذا يعنى النص الماورائى لليقين والبطلان معاً فلا بد من إعادة تحديد تصور الميتافيزيقا على نحو ينسجم مع اعتراف الحقيقة بإمكان

الوهم والغلط، لا بد من إعادة صياغة تصور الماورائيات إذا كان تصور الحقيقة على النحو الذى يقدمه على حرب يزعم الثقة بالتصور اللاهوتى للحقيقة فلماذا الإضرار على بناء أنطولوجيا ما ورائية لاهوتية وهذا هو السؤال ولم تعد الحقيقة مطلقة، أزلية، صافية، يقينية وأصبحت لا تصدق فقط من الناحية العقلية أو المنطقية أو النظرية أو الدلالية، بل أصبحت تصدق أيضاً من ناحية اختلافها أو كبتها، وسياستها أو هيمنتها وضلالها أو تلاعبها " فليس الخطاب الفلسفى عند على حرب هو خطاب البرهان الرشدى القاطع والترتيب المحكم، والوضوح التام والتميز الحاسم والتطابق الكلى وإنما هو خطاب تعمل على تشكيله لعبة قوى وسلطات ويتحكم فى إنتاجه خليط من الرغبات والاستراتيجيات ويبنى على منظومة من الاعتقادات والأوهام، إنه نسيج من الكنايات والاستعارات، ومحصلة ترسبات وتراكمت، ونظام من المراجع والإحالات، وشبكة من الأعراض والدلالات وشريط رمزى محمل بالإصغاء وهو كذلك قناع للحجب والإخفاء، وأداة للانزياح والانحراف، وتعاقب لفظى لا يولد سوى النسخ والتبديل، وأخيراً فالخطاب مجال للتصنيف والاستبعاد وحقل للتجريب والتيه وكون من الإمكانيات والاحتمالات وفضاء من الإشارات والعلامات ^(١٠).

وهذا تصور لا ميتافيزيقى للحقيقة أين إذن الجانب الماورائى أو اللاهوتى فيه؟ والجانب اللاهوتى الميتافيزيقى فى نقد الحقيقة هو اعتبار المجاز أساساً للغة والخيال أصلاً للتصورات والأفكار والرمز بداهة الفلسفة الأولية والوهم والتشبيه هما ما يبنى عليهما الوجود ومعنى ذلك أن نقد الحقيقة - وإن كان نقداً للحقيقة المطلقة - فهو بتأسس على ميتافيزيقا اللغة ويقوم على نسيان الوجود على المستوى الانطولوجى وعلى نسيان المجاز الذى يتحكم بالتصورات على المستوى المعرفى ونسيان الوجود لا يعنى التخلّى عن الوجود ولا يعنى نسيان المجاز التخلّى عن المجاز يعنى الأمر أين أفكر حيث لا أوجد وأوجد حيث لا أفكر أنها ميتافيزيقا " الفجوة" بين الوجود والفكر.

والمجاز هو الصيغة التى تعبر عن هذه الفجوة وتجعل الفجوة بين الوجود والفكر للمجاز سلطة على الفكرة وتجعل الوهم حاكماً على العقل وليس الخطأ

والوهم والضلال مجرد غشاوة على العين والبصيرة بحسب استعارة العلماء العرب القدامى وإنما هو حجب يقتضيه النسيان الذى يسميه الوجود الإنسانى، وتمليه بنيه الحقيقة بالذات^(١١) وعلى نقيض ما يقوله على حرب فى هذا البحث الجديد عن أنماط الوهم هو تنفيث عن معنى أصلى والسعى الحديث الى جلاء الوهم الخفى من وراء الأشياء والكلمات هو المعنى الحقيقى لكون نقد الحقيقة نقداً ميتافيزيقياً لاهوتياً ما ورائياً وإلا لا يستقيم خطاب على حرب، صحيح أن الحقيقة لم تعد مطلقة لكن ناقد الحقيقة ينقب عن أصل آخر قد وجد أن هذا الأصل الآخر هو الوهم أو الخطأ وبهذا المعنى لا يخرج أحد من أصوليته لأنه لا يخلو أحد من التماهى مع ذات له مزعومة أو الحنين إلى بداية أولى أو العسكرية وراء فكرة أو نص من النصوص فالأصولية نزعة تسكننا كما تسكننا الشهوة إلى السلطة أنها إذن شكل يستبطنه الفكر بين أشكال أخرى^(١٢) وبسبب تركيز على حرب على الحقيقة المجازية أو على ميتافيزيقا اللغة فهو يميل إلى الرؤية الفلسفية المرتبطة بالشعر والتصوف وأما الانفتاح الكلى فلا يجده على حرب إلا فى المقال الصوفى وذلك تبعاً لوجهة نظره حيث تتوحد الأشياء وتترأى الذوات وتتفتح العوالم على بعضها وحيث تخترق الغيرية الهوية وتتقوم الذاتية بالاختلاف فالحقيقة الصوفية مغايرة، وجودية، لا تقتصر على الطرق أو الأبواب أو الوسائل النظرية المؤدية إلى الحقيقة الفلسفية ومن هنا انفتاح الصوفى على جميع الحقائق أولاً ومن هنا سر مأساته ومواجهته. ثانياً: فالصوفى إذا نظر إلى الحق (الله) بوصفه عين ذاته وعين الأشياء يرى إليه من خلال كل تعييناته ونسبه وإضافاته وإذن يتعرف عليه من خلال تجلياته الكثيرة وصفاته المختلفة واسمائه المتعددة يرى إليه فى كل شئ ويتعرف عليه فى كل معنى، فينفتح بذلك على جميع الآراء والاعتقادات، ويترأى فى كل الصفات والأسماء ويتوحد لكل الكائنات والذوات فهو يتوحد مع كل الأديان ويتعرف إلى الله فى كل معتقداته^(١٣) الحقيقة إذا منسوجة من المجاز ولا يخلو خطاب من استعارة.

* واستطاع تصوف ابن عربى أن يخرق الخطاب الفلسفى الماورائى من وجوه عدة:

١ - فقد أزال الحواجز بين الكتابة الفلسفية البرهانية وبين الكتابة البيانية الأدبية من خلال كتابه اللطائف الذوقية والشعر معاً.

٢ - وفتح الكلام على الجسد المقموع فى خطاب محكوم بشرطه المنطقى وبنيتة الماورائية.

٣ - وأعاد الاعتبار إلى الخيال بمحتواه المعرفى وبعده الأنطولوجى.

٤ - أعاد الاعتبار إلى العلامات أى إلى اللغة والحروف بصفتها بيئة الفكر وأداة إنتاج الحقيقة والمعنى.

٥ - كسر منطقة الهوية بفتح الكائن على الاختلافات.

٦ - قال بالاختلاف العين عن الغير.

٧ - قال الكائن عينه عن ذاته (١٤).

وعلى حرب فى استناده أو استلهامه أو تأوله ابن عربى ينقلب على أفلاطون الذى كان قد استبعد الإجراء الشعري من دائرة الحقيقة والمدينة لصالح الإجراء الرياضى بحجة أن الشعر يتحدث بلغة حسية مجازية لا تشكل فكراً أو تصوراً أو مثلاً وبعبارة أخرى يثور على حرب أو تصور على حرب للحقيقة على الرأى التقليدى الأفلاطونى الذى كان يقول بأن الشعر يعوق صعود الفكر إلى المثل، فالشعر والفلسفة عند على حرب لا يقلدان أو يحاكيان إنما الفلسفة الشعرية تجاوز الفلسفة التجريدية والبرهانية والأرسطية والرشدية والكلية الضرورية إلى حقيقة الكينونة وأفلاطون نفسه يحاول عندما يلجأ إلى الأسلوب البيانى والأسطورة والاستعارة فى البرهنة على طروحاته وأفكاره النظرية الخالصة. وهكذا وإن كان على حرب ناقضاً للحقيقة فإنه ليس من مفكرى الشك المطلق فى الحقيقة بل هو يبحث عن حقيقة من نوع آخر لا تكون معطى خفياً ينبغى البحث عنه بل تكون نتاجاً للعقل والتاريخ، فقد نشأت الحقيقة عن اختلاف الظروف والشروط وتفرق

الأهواء وتباين الفرق وتطورت إلى طور النقد لنفسها فى العصر الحديث وبلغت مبلغاً كبيراً فى النقد يقول بأن أحداً لا يمتلكها وحده وبأنها ليست واحدة بل متعددة وبأن كل واحد يقوم ببناء حقيقة، كما أنها لم تعد تطابق الحكم مع الموضوع القائم خارج الذهن كما أنها لم تعد تواطئ الشرح أو التفسير على المعنى الأزلى القائم فى الذات المتعالية القاصدة وأصبحت تتعلق بظروف تشكلها وبشروط إنتاجها وانبنائها وتتوقف على معطيات التجربة ومواضيع النظر وحقول القراءة وأحوال الذات العارفة وأصبحت نتاجاً للحكمة الإنسانية وشكلاً من أشكال ممارسة الإنسان لذاته أى أنها أصبحت نتاجاً لتأول الإنسان لوجوده ولا يعنى زوال الحقيقة المطلقة أن يتجرد الإنسان من منازعه القدسية الغيبية فالقدسى هو عنصر من عناصر الوعى والغيب هو مبدأ من مبادئ الاجتماع يقول على حرب: "لا اجتماع بلا عقيدة ولا عقيدة إلا وتحيل إلى غائب ولا عقيدة من دون سلطة مقدسة فلا مجال إذن لرفض الدينى فهو زمن من أزمنة الإنسان وكل زمن منفى يعود على أسوأ ما يكون العود وأربه ولهذا فالمطلوب ليس الإنكار والاستبعاد والتجاهل^(١٥) ولا يعنى انتهاء الحقيقة المطلقة انتهاء "الحقيقة القرآنية بكل وجوها ومستوياتها وأبعادها بل يؤكد نقد النص ونقد الحقيقة على " الحقيقة الإسلامية ويقيد إنتاجها وتداولها، فلا مفر إذن من الحقيقة فهى واحدة من مقولات ثلاث ارتبط بها تشكّل الفلسفة الحديثة منذ ديكارت إلى الآن ويأتى نقدها الحالى ضمنى سياق السوفسطائية الجديدة التى تشك شكاً مطلقاً فى الحقيقة وكيف الشك المطلق فى الحقيقة والحقيقة مقولة قديمة قدم الفلسفة نفسها إذا التفلسف كان منذ البداية الإغريقية عبارة عن بحث فى حقيقة الكائن عينه^(١٦) وابتداء من ديكارت تم صياغة مقولة الحقيقة من خلال مقولة الذات المفكرة الحاضرة المثبقة من ذاتها بفعل تمثيلها لذاتها وأصبحت الحقيقة عبارة عن اليقين الذى ينتجه هذا التمثل خلافاً للموقف السوفسطائى: لا ريب بوجود حقيقة ما لواقع ما ولا ريب أيضاً بإمكان معرفتها وإلا امتنع القول وأصبح الكلام غير ذى جدوى إلا أن التسليم بذلك لا يعنى أن الحقيقة يقينية ثابتة ولا يعنى التسليم أن الحقيقة تطابق الذهن مع الواقع كما تصور أرسطو وهيجل وديكارت بل يعنى التسليم بوجود حقيقة ما الانصراف عن البحث عن بداهة التمثلات ومطابقة الأحكام وصحة المعارف إلى البحث عن الذات واستراتيجياتها وهكذا يعنى نقد الحقيقة

الحفاظ عليها لكن ضمن إطار مغيار لتصورات الجوهر، التطابق، البساطة، الوثوق
الإثبات، الثبات أى ضمن إطار مقولات الإنتاج، التوليد، الإجراء، المفاضلة،
التفسير، السلطة، الممارسة، اللعب.

ومن هنا تشتغل الحقيقة على المواد وتستخدم المعايير وتبنى النماذج وتصوغ
الوقائع وتنتج الموضوعات وتشكل الخطابات وتخلع الدلالات وتمارس مع الذات
دون أن تصل أبداً إلى اليقين المعرفى وترتضى لنفسها أن تكون منظومة تأويلية
تفسر وتتخرط فى العالم وتفتتح على الكون، ذلك أن ناقد الحقيقة إذا تحدث عن
موت الحقيقة المطلقة واهتم بتفكيك الحقيقة فى مؤلفاته المختلفة فإن تصوره للحقيقة
يبشر بولادة جديدة للحقيقة وهذا ما تجلى فى اعتباره الحقيقة منظومة تأويلية مفتوحة
على الكون.

من هنا لا تنتج الفلسفة فى نفسها أية "حقيقة" أو تعلن عنها بل هى وسيط
تصورى يربط بين الأحداث وبالتالي لا تشتغل على الوقائع مباشرة ولا تنتج معرفة
سليمة بصدد هذه الوقائع، فلا معنى أن يكون القول الفلسفى صادقاً أو كاذباً فالصدق
والكذب والحسن والقبح والمشروع وغير المشروع والخير والشر والمشرق
والمغرب كلها مفاهيم لها قيمتها التفسيرية فى المجالات الإجرائية التوليدية التى
تشتربها ممارسة الفكر فهى معايير فاعلة أو صالحة فى العلم والفن وفى السياسة
والأخلاق أما العمل الفلسفى فليس له طابعه التقريرى أو المعيارى بقدر ما هو
مصدر لقول إشكالى جدالى يفتح أبداً، عبر سؤال الحقيقة على رحاب الكائن، إنه
نص يتشكل كموقع مفهوى أو صيغة عقلانية أو حقل للإمكان أو مدار للمعنى أو
أفق للحقيقة^(١٧) فإن العمل الفلسفى مفازة تؤمن العبور أو الارتحال بين الحدث
والكينونة، بين الواقعية الإجرائية للحقائق وبين السؤال الحر عن كينونة هذه الحقائق
لكن على ألا تعيد ثنائية الحدث والكينونة التصور القديم "الأرسطى الرشدى
الديكارتي للحقيقة باعتبارها تطابقاً بين طرفين أليست الكينونة الجديدة هى "الجوهر
القديم" الحدث أليست الكينونة الجديدة نوعاً جديداً من أنواع البداهة القديمة.

كانت البداهة منذ ديكارت رياضية وكانت البداهة الرياضية هى معيار الحقيقة
فهى عالم للذاتية وخطاب للمنهج ونقد للفكر، المدرسى وتحولت البداهة مع كائط

إلى الذات المتعالية ثم تحول العقل إلى النسبية والاحتمال دون الرغبة فى تقرير حقيقة ما غير أن على حرب أولاً: يقول بالتطابق بين الحقيقة والكينونة ويحافظ بالتالى على النموذج التقليدى فى النظر إلى الحقيقة.

ثانياً: يقول إن هيجل قدم أول خطاب حديث فى نقد الهوية فى حين أن فلسفة هيجل لا يمكن فهمها فضلاً عن استيعابها بدون مصطلح الهوية، فلسفة هيجل هى وحدة الهوية والاختلاف أو هوية الهوية والاختلاف هذه هى بداية هيجل أو مقياسه الذى يقيس به. صحيح أن هيجل انتقد المنطق الصورى لكنه لم يغادر الهوية إلى الاختلاف، وهذا هو السبب فى أنه لا يزال يدور فى فلك الكوجيتو الديكاردى. وإذا بصر على حرب على الكينونة والحدث فإنه لا يخرج من دائرة الحقيقة المطابقة بين الذات والموضوع والخلاصة النهائية أن نقد الحقيقة يعنى الاعتذار عن الذات واليقين والتمثل والحضور، ويعنى أيضاً التخلّى عن العلم والصراحة والوضوح التواطؤ والضرورة ويعنى كذلك أن الحقيقة قد سلمت مقاليد الحكم إلى التأويل المنظور زاوية النظر، وجهات النظر ويعنى أخيراً انتهاء الفلسفة لصالح الشعر فى هذه الحال كيف نفسر مقولة شعر الحقيقة ١٩٨٢ لمحوى الدين صبحى وكيف نفهم ربط روستريفور هاملتون فى "الشعر والتأمل" ١٩٦٣ بحسب ترجمة دكتور/ محمد مصطفى بدوى ومراجعة دكتورة/ سهير القلماوى وكيف نتأول الشاعر/ النبى والأسلوب الفلسفى فى نظم الشعر؟ كما يقول إبراهيم العريض وكيف نفهم أخيراً المؤثرات الفلسفية فى الشعر؟ هذا هو السؤال.

يرجع الصراع بين الشعر والفلسفة إلى ٢٥ قرناً تقريباً حينما أعلن أفلاطون الفيلسوف الحرب على الشعر فى زمانه من منطلق أن الشعر يقلد أرضياً الصور المثالية والسماوية، بينما تبحث الفلسفة فى هذه الصورة والمثل الأصلية بشكل مباشر بل زعم أفلاطون أن الفلسفة وحدها هى التى تجعلنا نفعل الخير من تلقاء أنفسنا وجاء أرسطو فيما بعد ليوجد السياق الذى يتصالح فيه الشعر والفلسفة وقال إن كل منهما يبحث عن الحقيقة والنظام الكونى ولكن لكل طريقته ولكن النقاش عند أفلاطون ثم أرسطو لم يتعرض إلى جوهر هذه الطريقة التى يصور كل منهما بها الحقيقة ونظام الكون إلا أن الفكرة المستقرة منذ ذلك الوقت هى أن أسلوب الفلسفة

يختلف عن أسلوب الشعر وأن الفلاسفة لابد أن يتحدثوا نثراً عقلياً بينما لابد للشعراء أن يتحدثوا قولاً خيالياً، وعلى حرب واحد ممن يحاولون الأسلوب الجميل فيما يعرضون من آراء أو يناقشون من قضايا كذلك فهو يكتب آراءه الفلسفية متأثراً في العصور الحديثة بمحاولات الشعر عند الفيلسوف الألماني نيتشه إلا أننا نتساءل إلى أى مدى تظل فلسفة على حرب فلسفة؟

هذا سؤال يحيرنى فى إنتاج على حرب هل هو شاعر أم فيلسوف أم جزائر صوفى؟ إنه فيلسوف شاعر أو شاعر فيلسوف لأنه متأذب بالعرض ومتفلسف بالجواهر لكن فلسفته تنفى الفلسفة إلى جزائر الشعر.

على حرب إذن ناقد للحقيقة يعمل على تفكيك خطاب الحقيقة أو هدم مؤسساتها أو فضح ألاعيبها أو فتح سجلاتها المطوية ويكشف النقد عن الخداع الذى يمارسه خطاب الحقيقة بنسيان ذاته وحقيقته ويكشف النقد كذلك عن مدى الخلط بين خطاب الحقيقة وحقيقة الخطاب، وقد ظل الفيلسوف منذ سقراط يخفى سلطة نصه وينصب نفسه مرجعاً للحقيقة وناطقاً باسمها أما النقد المعاصر أثبت أن الحقيقة أقل حقيقة مما لا نتصور وغير تصورنا للحقيقة وعلاقتنا بها كما أزاح النقد المعاصر التصور الأحادى اللاهوتى للحقيقة والادعاء المتكرر باختلالها وبين أن وصفها فى مقابل الخطأ تبسيط لتجاربنا وعلاقتنا بالعالم.

ولكن هل لنقد الذات جدوى فى الفكر العربى؟ والتساؤل حول الذات يصطدم بالضرورة بمشكلة ليست فقط معجمية بل تحيل إلى مشكلة جوهرية هل الذات فاعلة أو مفعول فيها هل الذات مصدر أم موضوع الخطاب؟ هل الذات مؤسسة أم مبنية على غيرها؟ فالتعريفات متعددة ومتعارضة، ما سبب هذا التعدد الدلالى؟ هل يخفى هذا التعدد الظاهر - وحدة باطنية عميقة؟ وإذا تأكد أن هذه الوحدة ليست وهما ماهى إذن! أم نكتفى بتشظى المعانى ونسلم بعجزنا عن جمعها فى وحدة نظرية مترابطة؟ وحتى إذا اكتفينا بالتشظى تبقى مهمتنا أن نفسر سبب هذه الاستحالة فى توحيد التعدد الدلالى الظاهر.

الذات، النفس، والشخص يقال ذات الشيء نفسه وعينه لكن الذات يقابل نفسه لأنه يدل على نفسه ويدل من ناحية أخرى على حقيقة الشيء وباطنه يقابل الذات نفساً من داخل نفسه لأنه يدل على الشخص والثابت في آن واحد والذات أيضاً هو الموضوع ويقابلها المحمول وبالتالي فالذات مرة ذاتي ومرة أخرى موضوعي ومرة مفرد ومرة أخرى جمع، الذات هو الذات والنفس معاً الذات والحقيقة معاً الذات والعرض معاً الذات والماهية معاً الذات والتصور معاً لذلك يثار السؤال كيف يصبح الفرد كلياً؟ ما محتوى كينونة الفرد؟ لا يعنى على حرب بلفظ الذات التقابل بين الذات وبين الموضوع ولا يعنى الذات العارفة التي تتخذ من الوجود موضوعاً للتمثل والإدراك وإنما يعنى الموجود وهو الأمر الذي يستند إليه كل اسم أو صفة ولهذا فهو يستبدل العين بالذات وليس مصطلح العين من اختياره وإنما هو مصطلح عربى قديم استعمله المترجمون الذين نقلوا أعمال الفلاسفة اليونان وتداوله الفلاسفة والصوفية وهو يرد عند الفارابى وابن عربى بشكل خاص ويقال فى تصور أفلاطون للوجود "الكائن على ما هو عين ذاته، أى ما على الشيء هو هو" والكائن على ما يحتفظ دوماً بالعلاقة عينا مع نفسه إذن الكائن عين وهوية. وفى الإسلام يتمامى الشيء بالعين ونفسه مماهة تامة ويخاير سواء مغايرة تامة ومن ثم فالكائن عين بالذات والعين علاقة بين الشيء ونفسه تقوم على الوحدة والمماهة على حد تعبير على حرب.

لكن هل الفكر العربى فى حاجة إلى نقد العين أم إلى إعادة التأكيد على العين؟ أن يفكك الفكر العربى العين أمر مفهوم لأن الفلسفة الحديثة الغربية قامت على العين والعين أساس من الأسس الرئيسية للفلسفة الحديثة لكن الحال يختلف فى الثقافة العربية لإعادة قراءة الذات عربياً الآن أمر غير مفهوم لأن العين المفردة الخلاقة المسئولة وإن كانت موجودة اصطلاحياً فهي غير موجودة فى التصور الفلسفى الجوهرى نفسه فكيف نتقدم بعين النقد وهي لم ترسخ إحداها؟ لاشك أن على حرب يقول بالغيرية والمغايرة ولاشك أنه يؤكد تأكيداً حقيقياً على أن العين شبكة نسب وعلاقات وسلسلة لوازم ولواحق ومجموعة صفات وأغراض لكن هذا التوكيد العظيم والمصيب يصطدم من داخله باستمرار بخطاب ماورائى لاهوتى عربى تقليدى يستبدل النص بالذات. ومازق التفكير كما يذهب على حرب أنه يلغى

الذات المؤولة وذلك بواسطة الذات عينه فتلك حدود توكيد على حرب على نسبية العين لاشك أن العين نسبية لكنها فى الحقيقة غائبة فى سياق أولوية نظام العبارة والتشكيل النحوى واللغوى بعبارة أخرى لاشك، وأن على حرب حاول إعادة فهم تصور العين وفكر فيه بطريقة علائقية جديدة تمام الجدة غير أن مازق التفكير الذاتى أنه يسعى إلى إلغاء الذات والتأويل على حين لا تعنى إعادة القراءة عنده إلا تأويل ما لا يؤول تلك هى المفارقة.

وفى نقد النص يتم التعامل مع الخطاب كواقعة منفصلة كمؤلف تشكل ميدانا معرفياً مستقلاً ومنطقه من مناطق عمل فكر^(١٨) ويسقط ناقد النص من الحساب المؤلف ومقاصده وأطروحاته ويركز على بنى النص وآلياته.

وبهذا المعنى نستطيع أن نوجه لعلى حرب النقد نفسه الذى وجهه إلى نص حامد أبو زيد (مفهوم النص) فخطاب على حرب يناهض الأصولية ولكنه يقف على أرضها التى هى أرض النص، أو إذا كان ينقد توفيق نصر حامد أبو زيد بين بشرية النص وبين المؤلف الإلهى، فهو برفضه لمؤلف النص سواء كان إلهياً أم إنسانياً يلتقى ومفهوم النص عند نصر حامد أبو زيد، أما إعطاء على حرب الأولوية للنص على الذات فهو إعلان صريح عن موت الإنسان، أو إعادة الإعلان المتكرر فى الثقافة العربية عن موت الإنسان وهو الموت الذى يرتدى عند على حرب ثياب التفكير المعاصر، صحيح أن فى القرآن الكريم فلسفة إنسانية تتعلق بالإنسان فى مختلف حالاته وأوضاعه باعتباره فرداً أو عضواً فى أسرة أو عضواً فى مجتمع صغير أو كبير أو عضواً فى أمة أو فى جماعة الإنسانية كلها، لم يهمل القرآن الكريم ناحية من هذه النواحي، وفى القرآن مع هذا وذاك كله أولوية للإله على الإنسان، وإذا كان الإله لا يهيمن على الإنسان عند على حرب فإن النص هو الذى يتمص الدور الإلهى دون منازع من هنا أو هناك.

غير أنه سرعان ما يتخلى عن تأليه النص الأصلى ويستعيد الذات التى ينتقدها ويقول على حرب بأن المشكلة الفكرية العربية هى فى المقام الأول مع أنفسنا، مشكلتنا أننا نتصرف بوصفنا غير مسئولين عما جرى ويجرى لنا.

مشكلتنا أننا لم نقدم منذ عصر النهضة حتى الآن شيئاً مهماً للعالم على الصعيد الحضارى لا فكراً ولا سلعة ولا نموذجاً للعمل ولا صيغه للعلاقات بين البشر.

هذه الوضعية تجاه (ذواتنا) هى المشكلة الأولى فى جملة مشاكلنا الفكرية أى أن مشكلتنا الأولى هى كيفية استعادة أو استنهاض ذاتنا المفكرة ونحن فى حاجة ماسة لا إلى تدهورها بل إلى إقامتها على أقدامها.

لماذا يستثمر على حرب إذن التفكير فى تثبيت غيبة الذات العربية المسبقة؟
بعبارة أخرى كيف يستقيم قطع الصلة التفكيرى بالإنسان والذات وربط الصلة بذواتنا وتغيير أنفسنا وإعادة بناء هويتنا؟

يترجم التفكير دماراً ذاتياً فهل استخدمه بينما مشكلتى الأساسية مع نفسى؟
ولست ضد منهج التفكير لكننى ضد استخدام المنهج التفكيرى فى غير محله وإذا كان على حرب يفكك الذات على حين هى لا تحتل المكانة المتينة اللاتقة بتحولها إلى موضع التفكير فإن ذلك يرجع إلى كونه يتناسى أنه مفكر عربى ويتعامل مع نفسه كمفكر غربى همه الأول أن يفكر بقطع النظر عن موضوع التفكير أو ذاته (١٩).

وفى نقده للذات المفكرة تناسى على حرب أنه مفكر عربى ويتعامل مع نفسه كمفكر غربى يقتبس أعلام الفلسفة الغربية المعاصرة فالنحو عنده يمارس حجباً على الكائن أو يقف حائلاً دون العلم به وذلك بقدر ماتوهمنا الذات النحوية أى الأنا المنشأة لأفعال الكلام، إنها مصدر الفكر وعلة الوجود، هذا على حين أن الأنا مفعول من مفاعيل الفكر ونمط من أنماط ممارسة الوجود لدى الإنسان، بعبارة أخرى الأنا مفعول من مفاعيل النص (فمن المستحسن بل أقله أن يكون النص الذى نمارس عبره وجودنا ونصنع ذواتنا نصّاً يتمتع بالفائدة والأهمية بقدر ما يكون مصدرراً للذة والمتعة فعلاقة المرء بوجوده وأشياءه لا تستغرقها المعرفة وحدها، إنها علاقة استحقاق بقدر ما هى علاقة استمتاع؛ هذا يصدق من باب أولى على النص) لأن له بعده الفنى والإنتاجى، وذلك على حد عبارات على حرب وصحيح أن ديكارت أنشأ خطاباً حول وجود ذات مفكرة لكن من من فلاسفة العرب أنشأ خطاباً

ممثالاً حتى يجوز لنا نقده؟ فالعرب في حاجه أولى إلى إنشاء خطاب خاص بهم يقبضون فيه على الحقيقة بمقاييس معينة ولا شك أننا في حاجة أيضاً إلى الحفريات أو إلى إظهار علاقة العقل باللامعقول وإلى التأكيد على (أن الحقيقة هي الوجه الآخر للخطأ) على حد تعبير على حرب أننا في حاجة إذن إلى إنشاء خطاب من النوع الديكارتي للتحرر من أطر الفكر المدرسي والخروج على قوالب المنطق الشكلي وبهذا المعنى نستيقظ من ثبات الفكر الفقهي والكلامي إلى دراسة الإنسان.

هوامش

(١) على حرب، النص والحقيقة، الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٥، ص ١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٣) على حرب، النص والحقيقة، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي ط١، ١٩٩٣، ص ١٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٥١

(٦) المرجع السابق، ص ٧٦

(٧) المرجع السابق، ص ٧٧

(٨) المرجع السابق

(٩) المرجع السابق، ص ٢

(١٠) المرجع السابق، ص ٢١-٢٢

(١١) المرجع السابق، ص ٢٤

(١٢) المرجع السابق، ص ٢٨ (الهامش)

(١٣) المرجع السابق، ص ٤١

(١٤) المرجع السابق، ص ١٠٠

(١٥) المرجع السابق، ص ٧١

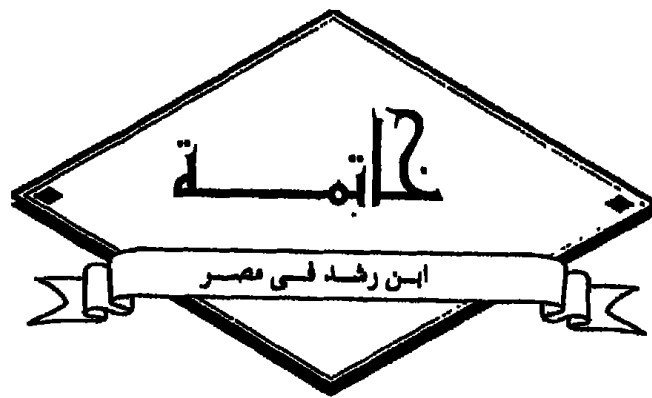
(١٦) المرجع السابق، ص ٨٩

(١٧) المرجع السابق، ص ٩٥-٩٦

١٨) على حرب، النص والحقيقة، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥.

١٩) المرجع السابق، ص ١٣٩.

(أخلص إلى القول بأن المفكر العربى يخرج من عنق الزجاجة أى يفكر بطريقة
مجدية فاعلة عندما يتناسى أنه مفكر عربى)



عبقريّة ابن رشد

عبقّر موضع زعم العرب أنه موطن الجن، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من حذقه وروعته أو جودة صنعه.

والعبقري نسبة إلى عبقر، وهو كل ما يتعجب من كماله وقوته وروعته. فالعبقري من الأشخاص هو المتميز، المبرز، الذي لا يفوقه في اختراعه أحد. ونقول إن ابن رشد عبقرى.

والعبقري من الأشياء ما يدهشنا ويحيرنا ويجاوز الأنواع التى ألفناها من روائع الفن وعجائب الصناعة. يقال : ثوب عبقرى.

والعبقريّة صفة العبقري وحاله، وهى جملة من المواهب الطبيعية السامية التى تمكن صاحبها من التفوق، وإذا أضيفت العبقريّة إلى الفرد دلت على ما يتصف به من استعدادات طبيعية خاصة. ونقول مرة أخرى: عبقرية ابن رشد. وإذا أضيفت إلى آثار الأفراد أو الجماعات دلت على ما تتصف به هذه الآثار من أصالة. يقال عبقرية العربية، وعبقرية العرب أو اليونان .

هل هناك تصور يجمع بين كل هذه الاستعمالات؟ هل كل هذه الاستعمالات مشروعة؟ هل هناك استعمالات غير مشروعة؟ إذا كانت العبقريّة جملة من المواهب الطبيعية كيف نقيس أو نميز العبقري من غير العبقري؟

يثير العبقري شعوراً غريباً فى النفس الإنسانية، وإذا كان يبهّر ويجذب فإنه فى الوقت نفسه يحطم المقاييس والمقادير . كيف نعرف البعد السرى الخفى فى الإبداع العبقري؟

يبدو العبقري وكأنه موهوب موهبة مختلفة، غير عادية، علوية، تجعله يحل كل القضايا بسر فائق.

يتضح من التحليل السابق أننا لم نكتشف بعد جميع الأشكال التى يمكن أن تتخذها فلسفة ابن رشد، فكذا لم تكشف الدراسات الرشدية المعاصرة النقاب بعد عن كل ما قد يكون فيها، ولم تستلّف بعد جميع طرائق التفكير الرشدى.

ولم يمت ابن رشد قبل ثمانية قرون بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة. إن الولادة والحياة والموت هى تبدل فى الشكل، وأى شأن للشكل الذى يكون عليه الإنسان؟ إن لكل شكل هناؤه أو شقاءه الخاص به، كل شيء يتبدل، ويمضى، ولا يبقى إلا الكل، والعالم يبدأ وينتهى بلا لقطاع. وهو فى كل لحظة فى بدايته وفى نهايته معاً.

وهكذا فإذا كان ضرورياً أن نبحث فى مقياس العبقريّة فإننا لابد أن نحلل جملة المواهب الطبيعية السامية فى علاقتها بالعمل والجهد، بعبارة أخرى، العبقريّة

جملة من المواهب الطبيعية السامية التي تجعل العبقرى يؤدي عملاً دون تعب أو إجهاد فإن عامة الناس يلجأون إلى العمل والإرهاق والاتصال.

فالعبقري يقف بعيداً عن العامة، ليس بإرادته لكن بحكم تكوينه الطبيعي الذي به يتفوق ويمتاز عن المستوى المتوسط لفقراء وضعفاء القريحة. إذن هو يقف من خارج عموم الناس ويتفوق على الإنتاج العام والمشارك. ويقول التعريف التقليدي للعبقرية بأنها جملة من المواهب الطبيعية السامية التي تجعل العبقرى فى حالة تلقى الوحي، ومن ناحية الاشتقاق اللاتينى (INGENIUM) تدل على ما يظهر مع النشأة الأولى ويمثل "GENIUS" الإله أو الروح التي تنشئ أو تؤسس للنشأة الأولى كما تبنى القضاء والقدر من أساسهما.

العبقرية إذن هى قدرة الروح على رفع الإنسان فوق القياس العام. وتجعل العبقرى قادراً على إبداع متميز، مبرز.

السؤال إذن يخص أحد شروط التفكير فى تصور العبقرية، فالعبقرية حاصل جمع أو خلط بين الصفة فوق الطبيعة وبين الصفة الطبيعية، بين الوحي وبين البعد الطبيعى، وبين الطبيعة وما فوق الطبيعة، هذه المفارقة هى أساس فهم الطابع السامى، الممتاز، المبرز للعبقرية.

ثانياً: هناك فرق بين العبقرية وبين الموهبة الطبيعية. فالموهبة الطبيعية ترتبط بفكرة القدرة على إنجاز عمل ما، وبالتالي فالموهبة ترتبط أساساً بما يملك المرء من عنفوان "VIRTU".

بعبارة أخرى، ترتبط الموهبة بما يمتلك المرء من طاقة وقوة وعزم وقيمة وحشية وضاربة إذا لزم الأمر، أى بأسلحة المرء الخاصة.

فإذا بدت موهبة كاتب ما غير كافية لى تجعل منه كاتباً عبقرياً فإن موهبته تشير إلى القدرات الطبيعية للنجاح فى نشاط معين أو فى عمل معين على حين يمتلك العبقرى ملكة سامية فى التصور والتخيل وإبداع الأعمال المعينة، وأغلب الوقت يمتلك العبقرى ملكة تجعله يقدم عملاً ريادياً.

ومن النتائج ذلك الرئيسية لذلك أن من واجب العبقرى أن يكون مبدعاً أو من الطبيعى أن يكون مبتكراً وهو يبدو أنه يستمد قوته من قوة تجاوز الإنسان ومن ثم لا يستطيع العبقرى أن يبدع وأن يبتكر أو أن يصنع إلا من خارج نفسه أو تحت تأثير قوة غريبة، أجنبية، خفية، سرية. وبالإضافة إلى كونه يستمد قوته من غيره فإنه يخرج من نفسه. نرى إذن أن العبقرية تحيل إلى فكرة الوحي.

ويعد تصور الوحي هو التصور المركزى لنص القرآن الكريم عن ذاته حيث يشير إلى نفسه بهذا الاسم فى كثير من المواضع، ويستوعب اسم الوحي جميع

أسماء القرآن والذكر والكتاب. فهو تصور دال في الثقافة العربية سواء قبل تشكل النص أو بعد تشكله، وتتسع دلالاته ليشمل كل النصوص الدينية الإسلامية وغير الإسلامية، فهو يستوعب كل النصوص الدالة على خطاب الله للبشر، هذا من حيث الاستعمال القرآني والاسم من جهة أخرى دال في إطار محاورة دفاع عن سقراط (١٢١) لأفلاطون على "الشيطان" الذي كان سقراط يقول عنه إنه يخطره (الإعلام بأفدر عدة فیتبعها. وكان أبولو هو الذي أعلم سقراط وفرض عليه أن يعيش حياة فلسفية. وذلك بأن يختبر نفسه ويمتحن الغير، وشعر سقراط بأن ثمة حضوراً معيناً في نفسه وبأن هناك صوتاً داخلياً، وحينما تعجز الحكمة الإنسانية عن استشراف آفاق المستقبل يبلغ إبليس سقراط ما عليه أن يجتنبه من أفعال. ويقول سقراط في محاورة أفلاطون للدفاع عنه (٣١د) إن إبليس يأتيه منذ طفولته. إنه صوت يجعله ينصت أو يشئت تفكيره. إذن تتلخص عبقرية سقراط في هذا الصوت الإبليسي الذي يخاطبه أحياناً فيلهمه أو ينصحه. وفي تصور أفلاطون يبين هذا الصوت في الإبداع الفني على وجه التحديد (GENIUS) .

وفي محاورة أفلاطون سماها إيون (٥٣٤) يقول سقراط إن العبقرية ليست في الفن بل في إبليس الذي يسكن الشعراء فيفقدون عقولهم. فالمصدر الوحيد للإبداع كائن يقف بين الآلهة وبين البشر، وليس ذهن المبدع هو الذي يبتكر من داخل نفسه، لذلك يؤكد أفلاطون بأن الشاعر يبدع بالخروج من نفسه ومن عقله (إيون، ٥٣٤ب) عبقرية الفنان إذن هي القدرة على استقبال الوحي المباشر من الشيطان. وهي حالة خاصة من حالات الجنون المتنوعة. ومن ثم يقع مصدر الإلهام الفني فوق الذهن والتقنية والعمل. وبالتالي فالعبقرية نداء إلى عامل فوق طبيعي هو الشيطان.

وكرهه عدو الله إبليس هو أحد المشاعر الرئيسية التي عبرت بها الأديان السامية الثلاثة عن علاقة الإنسان بالآلهة. وحاول البعض أن يعرف المكانة التي يحتلها إبليس في نظام الكون وتحديد علاقته بالآلهة واستقصاء الغاية التي وُجد من أجلها. وأفاض البعض الآخر في شرح تلبيسه على البشر وتلقيهم التعاليم والتعاويذ المعروفة بغية إبعاده وإتقاء شره .

كان إبليس من المقربين بين الملائكة وكان له شأن عظيم في نظام الملائكة الأعلى، إلى أن عصى أمر ربه، فطرده من الجنة، ولعنه لعنة أبدية فأصبح بذلك تجسيدا لكل ما هو شر. وجمع في ذاته كل الخصائص التي تنتمي عن الله، وإبليس من الإبلات أي من اليأس التام من رحمة ربه ومن العودة إلى الجنة، وتدل كلمة إبليس عند الجميع على الدس والفتنة والوسوسة والإفساد والعصيان.

وعلى مر العصور أضفت مخيلة البشر قوى كبيرة على إبليس منها الطاقات الفكرية الخلاقة والقوى الفنية المبدعة، إذن يلبس إبليس على البشر فيزودهم بقوة خلاقة مبدعة . فكانت السوفسطائية والدهرية والطبائعية وأديان الشرق الأقصى وعلم الكلام والمعتزلة من أعمال إبليس ، وترجع حركة الخوارج والرافضة والزهد والتصوف إلى تلبيسه على أئمة هؤلاء القوم بما فيهم أبو طالب المكي والإمام الغزالي. وزين إبليس لأرسطوطاليس وأصحابه مع أدعائهم القول بالعقل أخيراً لبس إبليس أهل اللغة والأدب فشغلهم بعلوم النحو واللغة عن العبادات.

غير أن تصوير العبقرية على هذا النحو الذى يجعلها رسالة قادمة من الخارج أمر يثير عديداً من القضايا. فتلبس إبليس يعنى تحقق العبقرية بدون تدخل من العبقري، بذلك تخرج العبقرية عن العبقري، فكيف ننظر إذن إلى انضباط تلبس إبليس ضمن قواعد محددة؟ فالتصور على النحو الأفلاطونى يستبعد العمل والكدح بمعنى أن مصدر الإنتاج يخرج عن الإنتاج نفسه. ويبدو إذن أن العامل فوق الطبيعى والمتعالى لا يكفى لقياس عبقرية العبقري. لكن كيف ينسجم قياس العبقرية مع السلوك العنيف، الاستثنائى، الفجائى، الذى يتميز بالسلوك العبقري؟ وكيف نفسر الإبهار الذى يمارسه الإبداع العبقري الذى لا يبين إلا ضمن القوائد؟

فالفكرة الشائعة عن العبقري إلى الآن تدور فى إطار تصور الهوس "SCHWARMEREI" على أن اعتبار أن العبقري يمتلك مواهب طبيعية، مسبقة، استثنائية. وإذا كان العقلانيون ينتقدون الهوس والسلوك العنيف غير القابل للقياس باعتباره وهماً أفلا ينبغى أن تتحول من التعالى إلى المماثية، من التخارج إلى التداخل، من "GENIUS" إلى "INGENIUM" ؟.

لابد أن نميز بين ضربين مختلفين من الإنتاج البشرى: الإنتاج الفنى والإنتاج الصناعى، لاشك أن الإنسان حيوان صانع ، فهو يخترع آلات، ويصنع أدوات ويستحدث موضوعات. وتحمل هذه جميعاً صبغته الخاصة يستعين بها فى تكييف الطبيعة مع حاجاته ورغباته وأهدافه ومطامعه. غير أنه لابد من التمييز بين ما يصح تسميته باسم الموضوع الاستعمالى وما اصطلاحنا على تسميته باسم الموضوع الجمالى، والموضوع الاستعمالى نفى يحمل آثار غائبة بشرية ظاهرة أو خارجية، وأما فى الإنتاج الجمالى فلا يكفى الإتقان فلا يوجد فى مجال الإنتاج الجمالى ضوابط مسبقة تربط الوسائل بالغايات.

لذا ليست العبقرية قدرة على إتقان شئ معين قد نتعلمه على أساس من القواعد المعينة بل العبقري هو من يملك الموهبة والقدرة على إنتاج ما لا يقبل القياس بقاعدة معينة.

إلا أن استعادة ابن رشد كان قد ارتبط بالنهضة العربية الحديثة من رفاعة رافع الطهطاوى إلى محمد عبده. ثم ارتبط بعد هزيمة ١٩٦٧ بمواجهة قوى الظلام، أى أنه دائماً ما يعود ليفتح آفاق التفكير الحر من جديد، إلا أن عودته المنكررة تؤكد من جانب آخر أن النهوض فى كل مرة يميل إلى التوفيق بين الإسلام والعصر دون أن يراجع مسلمات الفكر مراجعة جذرية.

وجاء ابن رشد منذ عقد السبعينيات وإلى الآن فى إطار اتجاه الفكر العربى المعاصر إلى دراسة مباشرة للنص، كيف نقرأ النص الدينى؟ كيف نتعامل معه؟ فقامت دراسة النص الدينى. وارتبطت بمسألة مبدأ الهوية والأصول المطلقة، الماورائية، الماهية، المتعالية، الكلية، المجردة، ولم تعد الحقيقة كما كانت عليه. وتغير العقل، وتحول الوجود من المرحلة الكلية إلى المرحلة المفردة، وساعد ابن رشد المفكرين المعاصرين على استعادة المجاز من وراء الكليات وعلى دراسة النص الدينى فى إطار من المراجعة الجذرية للأسس والمنطلقات التى انبنى عليها التفكير عندنا على مدار التاريخ.

وقد بدا أن التفكير المعاصر بعد هزيمة ١٩٦٧ قد استطاع من خلال استعادة أعمال ابن رشد أن يخطو خطوة شجاعة فى اتجاه التركيب بين الإسلام والعصر بدل القراءة التوفيقية للنهضوية الحديثة (السابقة) التى كان قد عرضها محمد عبده من قبل.

وهى القراءة التى ترى أن أزمة الفكر العربى المعاصر هى تبعيتها للمنهج الغربى، إلا أن تناول الحديث من زاوية "الأزمة" نفسها يمثل مدخلاً "غريباً" إلى تناول الفكر العربى الحديث والمعاصر بالتحليل.

فإن كانت هناك أزمة فهى أزمة من!

وإذا كان الفكر العربى قد اتبع المنهج الغربى وحن الخروج عليه فإن المنهج الغربى نفسه هو الذى علم الفكر العربى الحديث أن يستخلص من ذاته ضوابطه وقوانينه، والمنهج الغربى - رغم نرجسيته المعروفة - هو الذى قال ولا يزال يقول بأن لكل ثقافة نظام تفسيرها وأدواتها ومناهجها وطرقها الخاصة فى إدراك اللغة المشتبهة التى تريد أن تقول غير ما تقول وفى فهم الاحتمالات التى تحملها اللغة، فالتشابه هو الذى يستدعى التفسير.

وليس هناك دلالات رشدية جاهزة إنما هناك تفاسير رشدية مختلفة، وتؤكد الدراسة السابقة أنه لا يوجد تفسير كامل لابن رشد، وما قدمناه هو تفسير التفسير. أما البحث عن دلالة مسبقة فيرتبط بالبحث عن شيء أول، مبدئى دون أن يرى أن نص ابن رشد نفسه تفسير فى القراءة الواحدة مدلول أصلى. أما الدراسة السابقة

فقد سعت نحو التأكيد على أن المفردات نفسها تفسيرات وحسب، والمفردات لاتعنى شيئاً سوى أنها تفسيرات ولا شيء سوى كونها تفسيرات.

وقد فسرنا التفسير - لا بسبب وجود دلالات - بل بسبب وجود تفسيرات قائمة ولأن نسيج التفسيرات لايزال أساس الكلام واللغة، لذا فهناك دلالات تملئ علينا تفسيرها. إلا أننا لا نتصور قط أن قراءة واحدة من القراءات التى عرضناها قد استولت على الحقيقة العارية وإذا كانت كل قراءة على حده تسعى إلى طمس التفسيرات والآراء الأخرى.

ويسبق التفسير إذن الدلالة كما أن الدلالة نفسها ليست كائنة بسيطة بل هي ملتبسة أو غامضة تنسب إلى الإرادة والقصد والدلالات نفسها تفسيرات - كما سبق أن أشرنا - تحاول أن تبرر نفسها من خلال الدلالات. وليست التفسيرات دلالات تحاول أن تبرر نفسها من خلال التفسيرات. وباكتساب الدلالات وظيفة حجب التفسير تفقد الدلالات وجودها كدال .

اتبعنا التفسير إذن لا الدلالة الأصلية، ولم نفسر ما يوجد فى المدلول بل فسرنا وأعدنا تفسير تفسيرنا دوماً، من طرح التفسير؟ ما سر التفسير عند المفسر؟ ولم نعتقد فى وجود دلالة موجودة أولاً وأصلاً وفعلًا وحقا بوصفها إشارة أو تنبيهها متجانسا، سديداً، منظماً، كذلك لانعتقد فى وجود تفسير كامل، نهائى، إرهابى، للحقيقة الرشدية العارية.

فقط نحن فى حاجة إلى استعادة ابن رشد لكى يساعدنا على نقد العقل إذا جاز هذا المصطلح اللاهوتى أو الميتافيزيقى - التقليدى ونحتاج إلى إبداع فكرى لصياغة نموذج صالح للتطبيق لا يكون نقلاً آلياً لقواعد أخرى، فلا بد من الارتكاز على تصور الخصوصية التاريخية، لكن هذا الارتكاز لايدل على أن الخصوصية استمرار خالد، أبدي، ثابت. فالبعض يثبت ويجمد عمق المجال التاريخى، ولا يتجاوز العمق أو الخصوصية عندهم حدود " أقدمية" التكوين القومى المتجانس تجانس الكل القومى من وجهات نظر الانصهار الاجتماعى وسلطة القرار السياسى والتكوينات التى تتبع عن هذين العاملين : الإرادة واستمرار المجتمع القومى فضلاً عن اتصال التكوين القومى من خلال العصور المتنوعة.

وإذا كان الآخر يجيء فى المرتبة الثانية بعد الأنا لأن الأولوية للإبداع لا للنقل فإن ذلك يجيء فى إطار معين هو أن تصور الآخر هو تصور الأنا أخرى تقدم نفسها كموضوع. وهو آخر خاص بالأنا، أما الأنا والآخر معاً فهما مكونان اثنان لتصور الأنا نفسها والواقع أن تصور الأنا نفسها يحيل إلى مشكلة بل إلى مشكلات بدونها يصبح تصور الآخر بلا معنى، وهى مشكلات لا تقبل التوضيح أو الفهم من جانبنا إلا وفقاً لتسلسل حلها، ومشكلة الأنا والآخر هى مشكلة تعدد الذوات

وصلاتها وتفاعلها المتبادل، لكن من البديهي أن تتغير العلاقة إذا اعتقدنا في الرفض المسبق للإسلامي للآخر الغربي.

ولا يزال المفكرون والباحثون والدارسون المصريون يختزلون فشل المشروع القومي العربي التاريخي في غيبة الديمقراطية دون أن يحاولوا ممارسة النقد المعرفي لأسس الفكر العربي نفسه، وهم يرددون بأن المأزق ليس في النظام المعرفي للعقل العربي إنما في المجتمعات التي جربت المشروع القومي، ويعيدون أنه مأزق الأنظمة السياسية أو فشلها الشمولي في الدفاع عن الحريات الفردية. المأزق هو مأزق البشر الذين تخلوا عن المشروع وشوهوه. ولعل هذا ما يقوله أتباع الديانات ودعاة العودة إلى الأصول. إنهم يحملون تبعة ما تعانيه البشرية اليوم إلى تخلي البشرية عن الإيمان. إذن ليست المشكلة في المبدأ بل في البشر أنفسهم. ليست المشكلة هي مشكلة القيادات والأحزاب بل هي مشكلة الشعوب نفسها. ينزه المفكرون إذن الأفكار ويفصلونها عن الأنظمة السياسية والتشكيلات التاريخية ويحملون البشرية المسؤولية بدلاً من نقد النظام المعرفي للعقل العربي، ولهذا فهم يرون العلة في الواقع بدلاً من نقد أسس التفكير ويلومون الظروف والوقائع والبشرية بدلاً من نقد الفكر وأسسها، إنهم يفصلون بين المبدأ والتطبيق، بين النظرية والممارسة، بين المنهاج واستعماله وهذه الآلية الفكرية، أعنى الفصل بين الواقع والمثال، هي الخدعة التي يمارسها أرباب العقائد والأديان والأيديولوجيات عندما تصطدم أصولهم ونظرياتهم بالوقائع وتفقد مصداقيتها على محك التجارب اليومية. إنهم يحاولون تبرير فشل المبادئ وعدم صمود النظريات، بفصلها عن الممارسات وخلع صفات التعالي والعصمة عليها. لذا فهم يتعاملون مع الفكر العربي الإسلامي على نحو لاهوتي وكما يتعامل المؤمن مع أقانيمه أو كتابه، أي بوصفها أفكاراً مجردة تتجاوز التاريخ وتعلو عليه.

وإذا كانت غيبة الديمقراطية وراء تخلفنا الكبير فإن نظرية الحقيقة نفسها هي السبب الأعظم.

ارتبط تصور الحقيقة بمقوله التطابق، التطابق على مستوى أول بين اللفظ والمعنى، أو بين الكلام والرؤية، أو بين القول والماهية، أو بين الخطاب والحقيقة، أي بين الدال والمدلول؛ والتطابق على مستوى ثان بين التصور والكائن، أو بين النظرية والواقع، أو بين التفسير والحدث، أو بين القراءة والنص، أي بين الماهية والوجود. وهذا هو التصور التقليدي الذي قام عليه خطاب الحقيقة منذ أرسطو إلى ابن رشد.

وإذا كان الخطاب الرشدي المعاصر قد شكك ببداية مقولة التطابق فهو يسلم بتطابق الموجود والمنطوق. ولأن الحقيقة تطابق فإن الطريق المعرفي إليها يرقى بها إلى مرتبة الحقيقة الصادقة، الكلية، الضرورية، الثابتة، النهائية. وقد كسر

الخطاب الرشدى المعاصر الصورة المثالية، اللاهوتية، الغيبية، الطوباوية لابن رشد. فلم يفقد تاريخيته وانفتح على نفسه وعلى الصراع بين حجب إرادة الحقيقة وإرادة السلطة أو العقيدة، وارتبط الخطاب الرشدى المعاصر بالتاريخ والواقع ولكن لا تصمد فى النهاية إلا القوة القادرة على التجدد.

والمقصود إذن هو الخطاب الرشدى المعاصر وليس خطاب ابن رشد نفسه. ذلك أن ابن رشد، ونعنى به نصوصه على التحديد، لا يمكن حصرها وتصنيفها وتبويبها ضمن اتجاه فكرى حاسم، قاطع، شأنها شأن الأعمال الفكرية الأخرى. فالنص أوسع وأغنى وأعقد من أن يقول فى صيغة جاهزة أو فى إطار محدد فما تهافت فى الخطاب الرشدى - خطاب ابن رشد نفسه - هو العلم ، وأما الذى بقى فهو ما أثار - ولا يزال - يثير الإشكال.

تبين دراسة تطور النظام العالمى منذ ١٩٤٥ بوضوح انخفاض معدل نمو الدول الصناعية الرأسمالية فى الغرب وظهور بوادر تشكيل مركز عالمى للنفوذ حول الصين واليابان ودخول عدد من الدول العالم الثالث فى دائرة التأثير الجديد مثل الهند والبرازيل ومجموعة دول جنوب شرق آسيا. وقد تم ذلك إذن فى ضوء الأزمة التى أصابت تطور النظام العالمى الغربى الرأسمالى الأوروبى والأمريكى وما صاحبتهما من هبوط فى معدل نمو القطاع المتقدم بينما ارتفع معدل نمو المجتمعات الأخرى، والأزمة من ثم هى أزمة المبادرة التاريخية للغرب الرأسمالى فى العالم، وهى لا تعنى الانحدار، وإنما تعنى انخفاض معدل القدرة على المبادرة .

ومن هنا فإن الأزمة التى يراها د. سيد البجراوى أنها أصابت النقد العربى هى فى الجوهر إسقاط لأزمة غالبية الغرب الصناعى الرأسمالى على الفكر العربى، أى أنه نقل " الأزمة " ضمن النقل العام للمعرفة والتكنولوجيا والسؤال هو كيف يجوز لنا أن نتحدث عن أزمة المنهج فى النقد العربى المعاصر باعتبارها أزمة نقل المنهج الغربى دون أن نعدل أو ننقل تصور " الأزمة " نفسها التى ارتبطت بالمسار التاريخى للغرب!

لا شك أن الحديث حول أزمة الأمة العربية وتآزم التحريك العربى وانكسار المسار العربى يسود الثقافة العربية منذ سنوات، ولاشك أيضا أن إخفاق تجارب الوحدة السياسية العربية ومأساة فلسطين والصراع العربى العربى وهجرة العقول والطاقات من العواصم الثقافية تؤكد الوجه السالب للعالم العربى فى نهاية القرن العشرين.

(أ) مؤلفات الدكتور وائل غالى

١. نهاية الفلسفة، دراسة فى فكر هيجل (الجزء الأول)
القاهرة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٧
٢. دفاع عبد الرحمن بدوى عن الزمان
القاهرة، دار الثقافة، ط ١ ١٩٩٧.
٣. أوهام المستقبل
القاهرة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٧
٤. معرفية النص
القاهرة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٨
٥. نهاية الفلسفة، دراسة فى فكر هيجل (الجزء الثانى)
القاهرة، دار الثقافة، ط ١، ١٩٩٨

(ب) ترجمات:

- ٦ - نهاية الشيوعية
القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط، ١٩٩٤
- ٧ - إعادة قراءة القرآن
القاهرة دار النديم، ط ١، ١٩٩٦

دراسات قيد الإعداد للنشر

- ١ - ميتافيزياء الشعر عند أدونيس
- ٢ - الجذور المصرية للاعقلانية الحديثة
- ٣ - بحوث فلسفية فى الصورة
- ٤ - المستقبل والحنمية.
- ٥ - هيجل والدراسات المصرية
- ٦ - الجمود الفكرى العربى.
- ٧ - ابن عربى فى عيون المعاصرين
- ٨ - من علم المناهج إلى علم الإشكال
- ٩ - مولانا فى عيون الصقر
- ١٠ - نقد الفلسفة، المادية.
- ١١ - تشريح العلم

المفكر

الموضوع	الصفحة
مقدمة : الحاجة الماسة إلى ابن رشد	٥
الفصل الأول: مفارقة ابن رشد والغزالي.....	١٣
الفصل الثاني: ثنائية العروبة والإسلام.....	٣١
الفصل الثالث: المدخل الإسلامي.....	٤٧
الفصل الرابع: تناول العربى.....	٨٧
الفصل الخامس: استباق ابن رشد للتبوير.....	١١٥
الفصل السادس: القراءة الإستمولوجية لابن رشد.....	١٣٣
الفصل السابع: التناقض بين ابن رشد وابن عربى.....	١٦١
خاتمة: عبقرية ابن رشد.....	١٨٥

هذا الكتاب

قد يكون من المثير للدهشة أن نقول إن كل اهتمامات د. وائل غالى فى هذا الكتاب قد اتجهت نحو مسائل تحليلية ونقدية فى أعمال الفيلسوف العربى الكبير ابن رشد وفى الأعمال التى ناقشت أفكاره. فليس لدى د. وائل غالى أدنى إيمان بنسق عقلى أو بمذهب عقائدى سابق. ومن ثم فقد انحصر الجانب الأكبر من تحليلاته الفلسفية – فى هذا الكتاب – فى الكشف عن المغالطات والأخطاء وشتى ضروب الخلط التى طالما حفلت بها الدراسات والأبحاث الفلسفية المصرية والعربية والعالمية الراهنة فى ابن رشد. وهذا ما يعبر عنه د. وائل غالى نفسه فى قوله: "إنه يبحث فى الإجابة عن سؤال واحد: بعد مرور ثمانمائة عام على رحيل ابن رشد، كيف يُدار ميراثه فى مصر والوطن العربى والعالم؟ وإجابته محكومة برؤية فلسفية لا تستند إلى منهج بعينه بقدر ما تسعى إلى تفكيك مناهج القراءة، والقراءة نفسها دون تمييز أو انحياز مسبق إلى هذا المنهج أو ذاك. والقضية التى يتناولها، على تعقيدها وثرائها، تتطوى على فكرة محورية وهى إسقاط الأقنعة الأيديولوجية المتعددة والمتنوعة التى لبسها ابن رشد فى البحث الفلسفى المصرى والعربى والعالمى على مشارف القرن الحادى والعشرين.

أحمد غريب